الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
قسنطينة

كلية أصول الدين والشريعة
والحضارة الإسلامية
قسم العقيدة ومقارنة الأديان

رقم التسجيل :...../2006
الرقم التسلسلي:.....

جهود محمد رشيد رضا التجديدية في علم العقيدة الإسلامية

-النبوة نموذجا -

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في العقيدة ومقارنة الأديان

إعداد الطالب(ة):توفيق شنون

إشراف د.صالح نعمان

لجنة المناقشة

اللجنة	الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية
الرئيس	اسعيد عليوان	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
المقرر والمشرف	صالح نعمان	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
العضو	كمال جحيش	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
العضو	محمد بو الروايح	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تاريخ المناقشة:.....

السنة الجامعية : 1426-1427هـ/ 2005-2006م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

إلى الذي اعتنى بتنشئتي على حب الإسلام ، فحفّظني القرآن صغيرا ، وشجّعني على طلب العلم كبيرا . . والدي العزيز .

إلى التي ما غفلت عن الدّعاء لي لحظة ، وما قصّرت عن الجود عليّ بفيض عطفها وحنانها .. أمّي الغالية.

إلى الذي غرس فيّ حبّ العلوم الشرعيّة ، وكان خير قدوة لي ، أخي إسماعيل .

إلى روح عمّتي الطّاهرة ، التي طالما انتظرت رؤية هذا العمل ، فحال القدر دون ذلك .

إلى إخوتي الذين كانوا خير سند لي ، ماديّا ومعنويّا .

إلى كلّ أساتذتي الذين نهلت من علمهم وخبرتهم ، واستفدت من توجيهاتهم ونصائحهم ، وأخص بالذكر: بشير بوجنانة ، مولود سعادة ، عمّار طسطاس ، حجيبة شيدخ ، ابراهيم بن مهيّة .

إلى كلّ الإخوة والأخوات الذين أعانوني على إخراج هذا العمل .

إلى كلّ محب للإسلام ، وساع لإعادة مجده وحضارته .

إلى كلّ هؤلاء أهدي هذا العمل .

توفيق شنون

شكر وعرفان

إيمانا منّي بقول المصطفى ﷺ :" من لم يشكر النّاس لم يشكر الله " وحرصا منّي على التنويه بالفضل لأهل الفضل فإنّني :

أشكر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات بالمملكة العربية السعودية ، على جليل المساعدات التي قدمها لي .

كما أشكر أخي إسماعيل على جهده وإعانته لي على إخراج هذا البحث .

وأشكر أستاذي المشرف صالح نعمان على تفضله بالإشراف عليّ ، وحسن تعامله ومتابعته لهذا العمل .

وأشكر كذلك عمال مكتبة الدكتور أحمد عروة بالجامعة الإسلامية : هيكل ، سليم ، خوجة ، والأخت حليمة ، وكل الأخوات العاملات بقسم الدوريات ، على التسهيلات والإعانات التي قدّموها لي .

وأشكر في الأخير لجنة المناقشة على تفضّلهم وتشريفهم لي بقراءة هذا البحث ومناقشته.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، له الحمد الحسن والثناء الجميل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يقول الحق وهو يهدي السبيل ، وبعد :

إنّ الحديث عن تجديد علم العقيدة الإسلامية يكتسي أهمّية خاصّة ، نظرا لما يحتله هذا العلم من مكانة في المنظومة الفكرية الإسلامية ، ونظرا كذلك للموضوع الشّريف الذي يتناوله ، وهو الدّفاع عن العقيدة الإسلامية ، ولقد تعالت أصوات كثيرة ، داعية للتجديد في علم العقيدة الإسلامية ، بعد أن اتفقت على الأسباب الدافعة إلى هذه الدعوة ، فقد نظر المفكرون المعاصرون إلى هذا العلم فوجدوه مليئا بقضايا خلافية ، ومشاحنات بين فرق إسلامية لم يعد لها وجود فعّال في ساحة المسلمين الحديثة ، بالإضافة إلى مناهج بحث اعتمدت على مصادر قديمة ، بات من الضروري تجاوزها لأنها هي بنفسها تجاوزها الزمن ، وهذا في مقابل متغيرات جذرية كبيرة طرأت على واقع المسلمين ، تخللها هجوم منظم ودقيق على العقيدة الإسلامية والإسلام عموما ، من طرف المتربصين به وبالمسلمين وفي مقدمتهم الغربيون المتسلحون بعلوم ، ومناهج بحث حديثة ، شكّلت خطرا حقيقيا على تعاليم الإسلام ومبادئه ، وهذه العوامل كلها كانت كافية للمفكرين المسلمين للاقتناع قناعة تامة بضرورة تجديد علم العقيدة الإسلامية أو علم الكلام وهي تسميته الشائعة .

وقد كانت هناك محاولات عديدة في تجديد هذا العلم ، عبرت كلّها عن مدى الاهتمام البالغ الذي أولاه المفكرون المسلمون لهذه القضية ، ومدى إحساسهم بقيمتها وخطورتها كذلك .

وقد اعتاد الدّارسون والمشتغلون بهذه القضية أن يبدؤوا التأريخ لها من عصر النهضة الإسلامية الحديثة ، أي قبل حوالي قرنين من الزّمن ، مركّزين في ذلك على بعض الأعلام الذين كان لهم دور بارز في تحديد المعالم الأولى للانطلاق في هذا العمل التجديدي ، فباستثناء محمد بن عبد الوهاب ، الذي يعدّه كثير من الباحثين من جملة المصلحين لا المجددين في العقيدة الإسلامية ، نجد أن الأعلام الذين أتوا بعده مباشرة ، ويذكرهم الباحثون بوصفهم دعاة التجديد في علم العقيدة الإسلامية ، ينسبون إلى تيار واحد يعرف بتيار السّلفية العقلية ، يتقدمهم الشخصيتان البارزتان جدًّا في الفكر الإسلامي الحديث ، وهما : جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، هذا الأخير الذي يعدّه الباحثون أوّل من جدّد فعليا في علم العقيدة الإسلامية ، وأعاد بناءه بناء عصريا ، من خلال مؤلفه الشّهير: رسالة التوحيد .

وفي نفس هذه الفترة الزّمنية ، كانت هناك شخصية فكرية قريبة جدا من محمد عبده ، كان لها وزن كبير على السّاحة الفكرية الإسلامية ، وذلك من خلال الجهود العلمية والإصلاحية التي قدّمتها ، والتي كان لها أثر طيب في محاولة سعي المسلمين لتخطّي عقبة الانحطاط والانهزام الحضاري الذي كانوا يعانون منه ، وهذه الشخصية هي شخصية : محمد رشيد رضا .

لقد تفطّن محمد رشيد رضا بدوره إلى أن الضّعف العام الذي أصاب المسلمين ، ومكّن غيرهم من السّيطرة عليهم سببه الأول بعدهم عن عقيدتهم ، وفهمها فهما خاطئا أو سلبيا ، كما تفطن أيضا إلى أن سبب هذا الفهم السّلبي للعقيدة الإسلامية ، راجع أساسا إلى علم الكلام الذي ما زال يتشبّث بمسائل وقضايا لم يعد لأغلبها الأهمية نفسها التي كانت لها من قبل ، وفي مقابل هذا رأى أن العقيدة الإسلامية قد طرأت عليها شبهات جديدة مستحدثة ، لا يمكن ردها بمنهج علم الكلام القديم ، فكان أن خصص جزءا مهما من جهوده لإعادة بعث العقيدة الإسلامية ، وإعادة بعث علم الكلام ، حتى يمكن الرّدّ على الشّبهات الجديدة التي تعترض العقيدة الإسلامية .

وبالرّغم من أن الباحثين لم يهتموا كثيرا بالجانب العقدي من تفكير محمد رشيد رضا ، فضلا على أن يهتموا بجهوده التي بذلها من أجل إحياء العقيدة الإسلامية ، وتجديد علم الكلام ، إلا أنّني رأيت – وأنا في بداية تخصصي في العقيدة الإسلامية – أنّ هذه الجهود التي قدّمها رشيد رضا تعدّ حلقة مفقودة في تاريخ الفكر العقدي الإسلامي الحديث ، لها جانب كبير من الأهمية ، فارتأيت أن تكون موضوعا لمذكرتي في الماجستير تحت عنوان : جهود محمد رشيد رضا التجديدية في علم العقيدة الإسلامية .

وبما أن مباحث العقيدة الإسلامية متشعبة وواسعة ، والكلام فيها كله قد يطول ، فتخرج الدراسة بذلك عن إطارها العلمي الأكاديمي ، أردت أن أحصرها في مبحث واحد من مباحث العقيدة الإسلامية على الأقل أتخذه نموذجا لدراستي هذه ، فاخترت النبوة كنموذج لجهود رشيد رضا التجديدية ، وهذا بعد أن رأيت أن المادة العلمية متوفرة بما فيه الكفاية ، وبعد ما رأيت كذلك الاهتمام المتزايد الذي أبداه رشيد رضا تجاه هذه المسألة ، لأسباب سأذكرها في لب البحث لاحقا بحول الله ﷻ .

إشكالية البحث :

لقد شغلت قضية الوحي والنبوة بال كثير من المشتغلين في حقل الفكر العقدي الإسلامي ، ذلك أن الوحي كما يقول محمد سعيد رمضان البوطي : هو الأســـاس الأول الذي يقوم على حقيقته

معنى النبوة والرّسالة، ومن ثم فهو المنبع الأول لعامة الأخبار الغيبية وشؤون العقيدة وأحكام التشريع، كما أنّ حقيقة الوحي هي الفيصل الوحيد بين الإنسان الذي يفكر من عنده ويشرع بواسطة رأيه وعقله ، والإنسان الذي يبلغ عن ربه دون أن يغير أو ينقص أو يزيد.

من أجل هذا يهتم أعداء الإسلام بمعالجة موضوع الوحي في حياتهﷺ ، ويبذلون جهدا فكريا شاقا ويتخذون شتّ الوسائل من أجل التلبيس على حقيقته والطعن في نبوة محمدﷺ، وذلك لعلمهم بأن موضوع الوحي هو منبع يقين المسلمين وإيمانهم بما جاء به محمدﷺ من عند الله؛ فلئن أتيح تشكيك المسلمين بحقيقته أمكن تكفيرهم بكل ما قد يتفرع عنه من عقائد وأحكام، وأمكنهم أن يحملوهم على الاستجابة لفكرة بشرية القرآن الكريم ودعوة الإسلام.

ولأن قضية الوحي والنبوة غدت اليوم أكثر من أيّ وقت مضى محور شبهات الخصوم ومرتكز تفكيرهم ومطاعنهم ، تمثلت ذروتها في الحمل على الإساءة لنبينا محمدﷺ ، الحملة الأوروبية الدنمركية الشّرسة ، كان لابد من الوقوف في وجه مثل هذه الأفكار والحملات وتزييفها ورد الشبهات، إحقاقا للحق ونشرا للحقيقة ودعوة لدين الحق ، وتعريفا بمعلم البشرية المبعوث رحمة للعالمين.

ومن ثمّ كان هذا العمل ضرورة حضارية عصرية تمكن الإسلام من الصّمود في وجه الغزو الجديد الضروب ، لأن جملة الطعون في نبوة نبينا محمد ﷺ لم تتوقف ، ولأننا نحتاج في عملنا الحضاري هذا إلى الاستفادة من جهود علمائنا الذين سبقونا في هذا الميدان ، وكان لهم سعي محمود في الدفاع عن مقدساتنا ومقوماتنا ، كان حريّا بنا أن نبيّن فضلهم ، ونضع جهودهم الفكرية موضع دراسة وتقييم ، فكان محمد رشيد رضا الشخصية التي اخترتها لبحثي هذا .

فقد كان محمد رشيد رضا من الأوائل الذين ساروا على هذا الدّرب واشتغلوا بقضية التجديد، وذلك من خلال جملة الآراء والاقتراحات التي سعى لتحقيقها في هذا الميدان ، وكانت النّبوة المجال الأكثر بروزا فيها.

- فإلى أيّ مدًى استطاع محمّد رشيد رضا أن يجدد في علم العقيدة الإسلامية، أو على الأقل أن يضع أسسا نظرية لهذا التّجديد ؟

- وهل كان محمد رشيد رضا مجددا لعلم العقيدة الإسلامية فعلا ، أم إنّه مجرّد مصلح كما يصنف عند البعض ؟

- وما هي دوافع التجديد في علم العقيدة الإسلامية التي اتخذها محمد رشيد رضا ، وهل كانت واقعية أم لا ؟

- وما هي المرتكزات التي انطلق منها في تجديده لعلم العقيدة الإسلامية ؟

- وما هي المرتكزات التي انطلق منها في تجديده لعلم العقيدة الإسلامية ؟

- وأين يمكن وضع محاولته التجديدية في علم العقيدة الإسلامية بين سائر المحاولات الأخرى ؟

- وهل استطاع محمد رشيد رضا توظيف المنهج التجديدي الذي اقترحه في إثبات قضايا النبوة والدفاع عنها ؟

- وإلى أي مدى استطاع استغلال العلوم الحديثة في إثبات قضايا النبوة والإجابة على مجموع الإشكالات و الشبهات ؟

أسباب اختيار الموضوع :

لقد كان لاختيارنا موضوع التجديد في علم العقيدة الإسلامية، وكذا اختيار شخصية محمد رشيد رضا، جملة من الأسباب والدوافع التي حفّزتنا للبحث والدراسة من بينها :

1-بالرغم من أن البحث في مسألة تجديد علم العقيدة الإسلامية قد قُطع فيه شوط لا بأس به ، وبالرغم من كثرة الدّراسات والمؤلفات التي أنتجت في هذا الموضوع ، إلاّ أنّه لم يوصل فيه إلى قول فصل ، وما زالت المسألة تحتاج إلى كلّ إضافة يمكن الاستفادة منها وما دام محمد رشيد رضا قد خصّص حيّزا من جهوده للاشتغال بهذه المسألة فإن محاولته هذه يمكن أن تكون لها إضافات مفيدة، وهو ما حفّزنا للبحث في مثل هذا الموضوع .

2- إن من الباحثين فريقا يصنّف محمد رشيد رضا ضمن تيّار السّلفية النّصوصية ، وفريقا يدرجه ضمن تيّار السّلفية العقلية ذو الدّعوة المزدوجة للعودة للسّلف دون إهمال مستجدات العصر ، والاستفادة منها ، فكان هذا البحث محاولة للوصول إلى مدى صحة هذين التصنيفين ، من خلال تناول قضية النبوة كقضية عقدية سعى إلى إثباتها بمناهج مختلفة .

3- إنّني كثيرا ما قرأت من الكتب التي تتحدّث عن محمد رشيد رضا – وهو تلميذ للإمام محمد عبده – أنّه لم يكن إلا مدوّنا لإنتاجات أستاذه الفكرية ، ومجرّد ناقل لها من خلال المجلة والتفسير (المنار) ، مع أن إسهاماته الشّخصية لا تقلّ أهمّية عن إسهامات أستاذه ، فكانت هذه الدّراسة محاولة لتبيين هذه الاستقلالية الفكرية .

4- إنّ التّجديد في علم العقيدة الإسلامية في زمن ما بعد النّهضة الإسلامية ، لا يمكن الحديث عنه من حيث ضرورة المقترح ، والجهد المتوصل إليه ، ما لم نعرف موقف أعلام زمن بداية النهضة، ومحمد رشيد رضا واحد من هؤلاء ، فكانت هذه الدراسة محاولة شخصية للوقوف على الموقف الحقيقي لمحمد رشيد رضا من مسألة تجديد علم العقيدة الإسلامية .

أهداف الموضوع :

يهدف الموضوع إلى ما يلي :

1-محاولة وضع أسس نظرية لمسألة التجديد في علم العقيدة الإسلامية ، التي وإن كثر الحديث عنها إلا أنها ما زالت بحاجة إلى صياغة وضبط دقيقين .

2-كما يهدف الموضوع كذلك إلى محاولة تبيين منهج محمد رشيد رضا في تجديد علم العقيدة الإسلامية، من خلال آثاره التي تعد إسهامات مهمّة في هذا المجال.

3- ويهدف الموضوع كذلك إلى محاولة وضع شخصية محمد رشيد رضا ، في موضعها الصّحيح كشخصية مستقلة عن أستاذه محمد عبده بإسهاماته العلمية ، وطروحاته الفكرية المتميزة .

4- ويهدف الموضوع كذلك إلى محاولة معرفة منهجه في معالجة موضوع النبوة ومدى إمكانية الاستفادة منه اليوم.

منهج العمل في البحث :

وفيما يخص المنهج الذي سأتبعه في هذا البحث ، فإن طبيعة الدراسة تقتضي مني استعمال مناهج متعددة متفاوتة في نسبة الاعتماد عليها ، وذلك حسب طبيعة المباحث ، والغاية التي أريد الوصول إليها من خلال كل فصل أو مبحث ، وهذه المناهج هي :

1- المنهج الاستقرائي : حيث سأحاول استقراء جميع ما كتبه محمد رشيد رضا حول المسائل التي سأتناولها في هذا البحث ، كالنبوة والوحي ، والتجديد ..وهذا بهدف الإحاطة بجميع المادة العلمية، التي تمكنني من إعطاء نظرة شاملة ودقيقة لموضوعي .

2- المنهج التحليلي التركيبي : وفيه سأعمد إلى تحليل ما جمعته من مادة علمية حول المسائل السّالفة الذكر ، وتركيبها قصد الخروج بقواعد ونتائج عامة وخاصة للبحث .

3- المنهج المقارن : حيث سأعمد فيه إلى مقارنة آراء محمد رشيد رضا ببعض معاصريه ، كأستاذه محمد عبده ، وجمال الدين الأفغاني ، كما سأكون مدفوعا إلى المقارنة بين قضايا النبوة في العقيدة الإسلامية ، وما يقابلها في العقيدتين المسيحية واليهودية ، وذلك باعتبار أن محمد رشيد رضا كان كثير الخوض في هذه الأمور .

تخريج الآيات :

اعتمدت في تخريج الآيات على رواية ورش ، وذلك بأن نقلت الآيات من قرص مضغوط .

تخريج الأحاديث :

وأما فيما يخص الأحاديث : فقد اعتمدت على تخريجها من المصادر المعروفة لها ، بادءا بكتب الصحيحين ، فالسنن الأربع ، فمسند الإمام أحمد .

ترجمة الأعلام :

وأما فيما يخص الأعلام ، فقد حاولت أن أترجم لكل الأعلام الذين أوردتهم في هذه الرسالة ، وذلك بالرجوع إلى كتب التراجم المتخصصة ، فترجمت للأعلام الفكرية من موسوعة الأعلام للزركلي ، أو من كتاب : معجم المؤلفين لعمر كحالة ، وترجمت للشخصيات السياسية من كتاب : الموسوعة السياسية ، للكيلاني ، وترجمت للشخصيات العقدية من كتاب الملل والنحل للشهرستاني ، أو لابن حزم، وترجمت للمستشرقين من : موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي.

الدراسات السابقة :

وأما عن الدّراسات السّابقة ، فقد استطعت الوصول إلى بعض الرّسائل الأكاديمية التي تناولت فكر محمد رشيد رضا بوجه عام أو خاص ، لكنني لاحظت عدم وجود أيّة رسالة تنفرد بدراسة التفكير العقدي له ، وعلى هذا فقد كان تعاملي مع هذه الرسائل محدودا وفي إطار ضيق نوعا ما ، باستثناء رسالة واحدة اعتمدت عليها كثيرا في الفصل الأول من هذه الدراسة ، ويتعلق الأمر برسالة الماجستير للباحث التونسي محمد صالح المراكشي ، وعنوانها : تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار ، حيث حاول فيها مؤلفها إبراز تفكير محمد رشيد رضا في مختلف الجوانب ، وذلك من خلال تتبّعها عبر مجلة المنار ، وقد كان للجانب العقدي في تفكير محمد رشيد رضا مكان في هذه الرّسالة ، وإن لم يكن وافيا ، خاصة وأن هذه الرّسالة تفتقد إلى التحليل المعمق والدّقيق في عمومها ، دون الحديث عن النتائج والأحكام التي توصل إليها المؤلف في بحثه هذا خاصة في مجال العقيدة الذي نحن بصدد دراسته ، ولكن مع هذا فقد استفدت من هذه الرسالة كثيرا ، خصوصا من الملحق الذي وضعه المراكشي في نهايتها ، والذي يتضمن فهرسة شاملة للمقالات الواردة في مجلة المنار ، موزعة حسب المجالات الأربعة التي قام المؤلف بالبحث فيها .

– وأمّا الرسالة الثانية التي استطعت الوصول إليها ، فهي تخص الجانب السّياسي من حياة محمد رشيد رضا بصفة عامة ، وهي رسالة ماجستير بعنوان : الشيخ محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية ، للباحث أحمد فهد بركات الشوابكة ، وبالرّغم من محدودية استفادتي من هذه الرسالة إلا أنها ذات قيمة علمية كبيرة ، نظرا لأن مؤلفها اعتمد في مادتها العلمية على مصدر مهمّ يتمثل في أوراق محمد رشيد رضا الخاصة ، التي حصل عليها من ورثته .

- وأمّا الرّسالة الثالثة وهي رسالة ماجستير كذلك ، فهي دراسة حديثية تخص الجانب الحديثي من تفكير محمد رشيد رضا ، للباحث شفيق بن عبد بن عبد الله شقير ، وهي بعنوان : موقف المدرسة العقلية الحديثة من الحديث النبوي الشريف –دراسة تطبيقية على تفسير المنار – وحتى وإن كان عنوان هذه الرّسالة يوحي بأن المؤلف قصد دراسة موقف المدرسة العقلية المتمثلة في جمـــال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، ومحمد رشيد رضا ، إلا أن تركيزه على هذا الأخير كان أكثر من سابقيه، باعتباره الشّخصية الأكثر تمكنا في علم الحديث من سابقيه ، وقد استفدت من هذه الرسالة باعتبار الباحث تطرق إلى موقف محمد رشيد رضا من بعض القضايا العقدية ، من الناحية الحديثية سندا ومتنا .

- وأما الرسالة الرابعة التي تمكنت من الحصول عليها ، فهي تتعلق بدراسة تراث محمد رشيد رضا، وهي بعنوان : الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه الوحي المحمدي ، للباحث السعودي عبيد الله بن رجاء العصيمي(رسالة ماجستير) ، وبالرغم من العنوان الذي قد يبدو مثيرا ، وله ارتباط كبير بدراستي ، إلا أنني لم أعتمد عليها إطلاقا، وهذا راجع لطبيعة الدراسة التي قام بها مؤلفها ، والتي كانت وصفية أكثر منها تحليلية ، ولم أجد فيها ما يمكنني الاعتماد عليه في بحثي ، فاكتفيت بالاستفادة من الإحالات التي تضمنتها الرسالة في حواشيها .

صعوبات البحث :

ولما كان من طبيعة أي عمل بشري أن يتخلله نقص ومشقة في إنجازه ، فقد واجهتني في بحثي هذا جملة من العوائق والصعوبات التي كان لها أثر مباشر في تأخر اكتمال هذا العمل .

وأهم عائق واجهته في بداية بحثي هو صعوبة الحصول على المصادر الأساسية له ، وبالرغم من الجهد الذي بذلته في سبيل الحصول على هذه المصادر ، إلا أنني لم أوفق في الوصول إلى أهمها، وبعضها الآخر لم أتمكن من الحصول إلا على أجزاء منها .

وأما العائق الثاني الذي واجهته في بحثي هذا فهو التوقف المستمر للبحث وتقطع العمل فيه ، وهذا راجع لعاملين اثنين : أحدهما ذاتي : ويتعلق بمروري بظروف خاصة في حياتي الشخصية ، كان لها أثر معنوي مباشر في مواصلة البحث .

والثاني موضوعي: ويتعلق بتأخر وصول بعض المصادر الأساسية لهذا البحث ، والتي كنت أحصل عليها تباعا من بعض مراكز البحث والمكتبات العربية الخارجة عن وطننا ، والتي كانت تمتد إلى فترة تزيد في أغلبها عن الشهرين .

مصادر البحث ومراجعه :

وقد اعتمدت في بحثي هذا على أربعة طوائف من المصادر والمراجع مقسمة على الشكل الآتي :

الطائفة الأولى : وتشمل مؤلفات وأعمال محمد رشيد رضا ، وهي مصادر أساسية سيكون اعتمادي عليها كبيرا جدا على غرار مجلة المنار والتفسير ، وكتاب الوحي المحمدي ، وتاريخ الأستاذ الإمام ..وغيرها من المصادر الأخرى التي كتبها بخطّ يده ، كما تشمل هذه الطّائفة أيضا الكتب التي قام فيها مؤلّفوها بجمع مقالات منتقاة من مجلة المنار في جانب معين من الجوانب التي اشتغل فيها محمد رشيد رضا ، وجعلتها مصادر أساسية كحال الأولى ، ككتاب وجيه كوثراني : مختارات سياسية من مجلة المنار ، وكتاب : ديوان النهضة ، وهو عبارة عن مقالات منتقاة من المنار في شؤون النّهضة والتجديد ،لأدونيس ، وكتاب : رحلات الإمام محمد رشيد رضا ، ليوسف أيبش ، والذي جمعها أيضا من مجلة المنار ، وأيضا كسلسلة فتاوى الشيخ محمد رشيد رضا لصلاح المنجد ، حيث قام بجمع كل الفتاوى والأسئلة التي كان محمد رشيد رضا يجيب عنها في مجلته تحت ركن الفتاوى .

الطائفة الثانية :

وتشمل مؤلفات المعاصرين لمحمد رشيد رضا ، الذين راسلهم ، والذين انتقدوه واستدركوا عليه ، أو الذين تتلمذ على يدهم ، ويأتي على رأس هذه المؤلفات أعمال الأستاذين : جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، خاصة رسالتا : الرّدّ على الدّهريين ، وهي للأول منهما ، ورسالة التوحيد وهي للأخير ، وهذه الأخيرة كانت من أهم المصادر التي اعتمدتها في هذه الرسالة نظرا لموضوعها المتطابق مع غرض موضوع الرسالة ، ونظرا كذلك لأنني اعتمدت فيها على النسخة المطبوعة بتحقيق محمد رشيد رضا نفسه ، الذي شرحها وعلّق على حواشيها ، ومنها أيضا كتاب زميله شكيب أرسلان : محمد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة ، والذي لم أحصل إلا على أجزاء منه ، وكذلك كتاب مصطفى صبري : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، الذي انتقد فيه بشدة الآراء العقدية للتيار السّلفي العقلي بشكل عام ، وفي مقدمتهم محمد عبده ومحمد رشيد رضا .

الطائفة الثالثة :

وتشمل المؤلفات والدراسات التي تتعلق بشخصية محمد رشيد رضا وفكره وترجمته ، وهي كثيرة، منها ما ذكرته في ركن الدراسات السابقة ، وكتب أخرى اعتمدت عليها اعتمادا مباشرا .

الطائفة الرابعة :

وتشمل المؤلفات العامة التي تتعلق بموضوع النبوة ، وما يتعلق بها ، وهي في معظمها كتب كلامية ، حاولت أن أعتمد فيها على أمهات المصادر فقط ، وكذا المؤلفات المتعلقة بمسألة التجديد، وهي كلها دراسات حديثة .

مخطط الدراسة :

وخطة البحث في عمومها تتكون من ثلاثة فصول ، وكل فصل يتضمن مبحثين أو ثلاثة ، وذلك حسب طبيعة كل فصل ، وقد قسّمت هذه الفصول إلى ثلاثة أقسام حسب طبيعة الموضوع، قسمين نظريين، وقسم تطبيقي .

فالفصل الأول جعلته خاصّا بشخصيّة محمد رشيد رضا ، وقسّمته إلى مبحثين ، حيث سأقوم في المبحث الأول بالتعريف بشخصية محمد رشيد رضا ، وسأتحدث عن بيئته وتأثيرها على تكوينه وتفكيره ، وسأعرج في المبحث الثاني إلى قضية التجديد في علم العقيدة الإسلامية انطلاقا دائما من منظور رشيد رضا لها .

والفصل الثاني جعلته خاصا بمسألة النبوة ، وقسمته كذلك إلى مبحثين ، سأتحدث في الأول منهما عن النبوة بشكل عام ، وموقعها في المنظومة العقدية ، ثم أحاول معرفة الدواعي التي جعلت محمد رشيد رضا يركز على مسألة النبوة دون غيرها ، كما سأحاول كذلك معرفة المصادر التي كان يعتمد عليها في تعامله مع النبوة ، وهذا في المبحث الثاني من هذا الفصل .

وأما الفصل الثالث الذي جعلته فصلا تطبيقيا مقسّما إلى ثلاثة مباحث ، في كل مبحث سأتناول مسألة واحدة من مسائل النبوة ، وكيف استدل محمد رشيد رضا عليها ، محاولا تبيين أوجه التجديد في عرضها إن كانت ، ونقدها بعد ذلك ، وقد اخترت لهذا الغرض قضايا : الوحي والمعجزات ، وصفات الأنبياء .

الفصل الأول: محمد رشيد رضا ، سيرته ، ودعوته التجديدية وفيه مبحثان:

- المبحث الأول : سيرته وتميز شخصيته.
- المبحث الثاني : منطلقات التجديد في علم العقيدة الإسلامية عند رشيد رضا .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : سيرته و تميز شخصيته .

المطلب الأول : نشأته وبيئته .

إنّ من يطالع سيرة محمد رشيد رضا ، خاصّة المرحلة الأولى من حياته يرى أن البيئة التي كانت محيطة به تؤهّله لأن يصبح مستقبلاً شخصية ذات شأن كبير ، على الأقل في تلك البيئة المحدودة التي كان يحيا فيها .

ولمّا كانت شخصية محمد رشيد رضا مقترنة دائما بالإصلاح ، فإننا سنركّز اهتمامنا في هذا المبحث التمهيدي على محاولة إبراز العوامل التي كانت وراء نجاحه في هذا الجانب ، معرضين عن سرد التفاصيل الأخرى التي تخص حياته – والتي كانت ثرية– ويمكن العثور عليها في الكتب التي اهتمت بالتأريخ لسيرته وحياته .

الفرع الأول : نشأته وتكوينه .

لقد جمع محمد رشيد رضا مجموعة هامّة من الصفات التي لم تتوفر للكثيرين من غيره الذين عاصرهم ، وهذه الصفات التي صقلت شخصيته ، وبصرته بهدفه في وقت مبكر ، ترجع في أساسها إلى شرف النّسب ، وشرف الأسرة ، وشرف التتلمذ والتعلّم ، وأخيرا شرف المحيط والبيئة

فلقد ولد محمد رشيد رضا بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن مَنْلاَ علي خليفة القلموني[1] في 27 جمادى الأولى 1282 هـ الموافق لـ 23 سبتمبر 1865 م [2] بقرية "القلمون" إحدى قرى طرابلس الشّام في لبنان ، ويرتفع نسبه الذي ذكرناه آنفا إلى آل بيت رسول الله ﷺ كما صرّح بنفسه بذلك في مرات عديدة ، وأكّد أنّ أجداده من الأشراف الحسينية، وأن أصلهم من الحجاز ، وانتقلوا إلى العراق فأقاموا بالنجف الأشرف ، ثم نزحوا إلى الشام واستقروا بالقلمون [3] ، ولقد كان هذا النّسب بالنسبة لمحمد رشيد رضا تحديا ، أكثر مما كان محفزا على طلب العلم الذي ورثته أسرته ، وكانت به مرجعا للفتوى والأحكام الشّرعية والإمامة والخطابة [4] ، مما جعله يسعى للحفاظ على هذا المكسب الهام ، وهو ما ينبهنا إلى استعداده الكبير للإصلاح الذي يقوم على الوعظ والإرشاد عن طريق الخطابة والتدريس.

---

[1]– محمد عمارة ، مسلمون ثوار ، ط2 ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان ، 1988 ، ص 449.

[2]– أحمد فهد بركات الشوابكة ، محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية ، د ط ، دار عمار ، الأردن ، 1989 ، ص 13.

[3] – المرجع نفسه ، ص 13.

[4] – عمار الطالبي، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس ، ط1 ، دار اليقظة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1968 ، ج4، ص 195 .

ومن هنا فالحديث عن نسب محمد رشيد رضا الشّريف إذاً، وكونه من بين العوامل التي حفزته للعمل الإصلاحي ، بالنظر إلى المسؤولية العائلية التي كانت منتظرة منه ، يقودنا للحديث عن طبيعة سعيه لتحقيق هذا الطّموح ، وذلك بالحديث عن طبيعة تكوينه ونوعه ، فكيف كان تكوين محمد رشيد رضا ؟

إن ما يمكن تأكيده بنسبة كبيرة ، هو أن تكوين محمد رشيد رضا كان تكوينا تقليديا تراثيا ، أو على حسب تعبير محمد صالح المراكشي : " ثقافته دينية كلاسيكية أصلا ...وأن كثيرا من المؤشرات تدل على أنه كان ذا نصيب وافر من العلوم النقلية القديمة"[1] بينما كان حظّه من العلوم الحديثة قليلا جداً ومحدوداً.

فلقد ابتدأ محمد رشيد رضا تكوينه في كتّاب قريته ، أين قرأ فيها القرآن ، وتعلم الخط كما تعلم الحساب[2]، وانتقل بعدها إلى طرابلس أين دخل مدرسة ابتدائية حكومية هي مدرسة "الرشدية" ، لم يلبث فيها إلاّ سنة واحدة فقط، كان تحصيله منها قليلا ومحدودا، والسّبب في ذلك أن هذه المدرسة كانت تدرّس باللغة التركية بنسبة كبيرة ، لكن هذا لم يكن السّبب الرئيس الذي جعله ينفر منها ، بل كان السبب الرئيس في ذلك كما يقول :"إنها تخرج موظفين حكوميين، وهو لا ينوي العمل في السّلك الوظيفي الحكومي"[3] ، فلماذا هذا الموقف يا ترى ؟

إن لهذا الموقف الذي سلكه محمد رشيد رضا منذ هذه المرحلة المبكرة من حياته العلمية، دلالات عميقة تقودنا للوصول إلى فكرة معينة، وهو أنه كان يسعى من وراء هذا الموقف إلى هدف مرسوم مسبقاً، سيفصح عنه بعد فترة طويلة، ذلك أن العمل الإصلاحي ـــ وهو هدفه المرسوم ـــ يتطلب من الجرأة والصرامة في المواقف ما لا يستطيع الموظّف الحكومي القيام به، لارتباطه بحكومته من جهة المعاش والرزق، الذي تتكفل هذه الحكومة بتوفيره لموظفيها ، أو التضييق عليهم والحيلولة دون بلوغهم هذا المقصد.

انتقل محمد رشيد رضا بعد خروجه من المدرسة الرّشدية إلى المدرسة الوطنية الإسلامية سنة 1300 هـ / 1883م، وكان المشرف على هذه المدرسة الشيخ حسين الجسر(*)، وقد كانت هذه المدرسة أعلى مستوى من المدرسة الرّشدية ، والتعليم فيها كان باللغة العربية إلى جانب

---

[1]- محمد صالح المراكشي، تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار، دط ، الدار التونسية ، تونس،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر ، 1985 ، ص 50.

[2] - محمد رشيد رضا ، المنار والأزهر،نقلا عن شكيب أرسلان،رشيد رضا أو إخاء أربعين عاما ،ط ،مطبعة ابن زيدون ، دمشق ، سوريا 1937 ، ص 35.

[3]- المصدر نفسه ، ص 35.

*- ستأتي ترجمته لاحقا.

التركية والفرنسية، وقد مكث محمد رشيد رضا في هذه المدرسة مدة ثمان سنوات:" درس فيها العلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية" [1] حتى نال منها شهادة العالمية [2]، ثم توقفت هذه المدرسة بسبب مشاكل مع الحكومة العثمانية ، لكن توقف هذه المدرسة لم يثن من عزمه على مواصلة تحصيله العلمي ، حيث عاد إلى انتهاج الطريق التقليدي في تحصيل العلوم ، وذلك بملازمة الشّيوخ، فكان أن تتلمذ على يد شيوخ كبار في علوم متنوعة ، كان تأثير بعضهم فيه كبيرا.

وكان أعظم هؤلاء الشيوخ تأثيرا في محمد رشيد رضا، الشيخ الأزهري حسين الجسر:"الذي تشبع بروحه في ضرورة الجمع بين علوم الدّين وعلوم الكون المادّية والاجتماعية والعمرانية، مع التربية الإسلامية لنهضة الأمّة"[3] ، وكانت هذه الازدواجية النادرة التي لم تكن معروفة بشكل جليّ عند بعض الشيوخ، ومنعدمة تماما عند آخرين، تمثل رؤية تنويرية للأوضاع التي آل إليها العالم الإسلامي، استطاعت أن تجعل رشيد رضا من أهم أقطاب التنوير ليس على الصعيد الإقليمي فقط، بل على الصعيد الواسع من العالم الإسلامي.

وإلى جانب هذا الشيخ الجليل ، الذي أخذ عنه الملامح الأولى للمنهج الإصلاحي ، كما أخذ عنه من جهة أخرى كثيرا من علوم اللّغة العربية، هناك شيوخ آخرون أخذ عنهم علومًا أخرى، فأخذ الحديث وفقه الشافعية على يد الشيخ محمود نشابة[*] ، ثم تضلع في علم الحديث رواية ودراية وتعديلا وجرحا ، على يد الشيخ محمد القاوقجي[4] ، وأخذ دروسًا من كتاب نيل الأوطار للشوكاني ، وبعض آداب التصوف[5] على يد الشيخ عبد الغني الرّافعي.[**]

لقد كانت لهذه العلوم التي تلقاها محمد رشيد رضا على أيدي شيوخه الثلاثة المذكورين آنفا، تأثير كبير في حياته العلمية والدّعوية جعلته ينتهج مناهج عدة، قد تبدو متناقضة – على الأقل اعتمادا على عقلية المسلم في ذلك الزمن – حيث إن ما تلقاه على يد الشيخ حسين الجسر يمكن

---

[1] و 2- عمار الطالبي، مرجع سابق ، ج 4 ، ص 195 ، وشكيب أرسلان ، مصدر سابق ، ص 35

3 - عمار الطالبي، مرجع سابق ج 4 ص 195.

*- محمود نشابة (1228 -1308 هـ / 1813-1890) هو محمود بن محمد بن عبد الله الدائم، فاضل من أهل طرابلس الشام ، تعلم بمصر ، من كتبه حاشية على متن البيقونية في مصطلح الحديث و"نثر الدراري " حاشية على شرح الفناري في المنطق ، وحاشية على همزية البوصيري ، وآل نشابة فرع من بيت الزيلع يقولون أن جدهم كان عداءً فلقب بالنشابة تشبيها له ، يراجع : الزركلي خير الدين، الأعلام، ط، دار العلم للملايين، بيروت ، لبنان ، 1980 ، ج 7 ، ص 185.

[4] - لم أعثر على ترجمة له.

[5] - شكيب أرسلان ، رشيد رضا أو إخاء أربعين عاما ، ص 40.

**- عبد الغني أحمد عبد القادر الرافعي البيساري (1223-1308 هـ / 1818-1891م) قاض من فقهاء الحنفية ، ولد وتعلم في طرابلس الشام، وأخذ الحديث عن علماء دمشق ، وعين نقيبا لطرابلس لثلاث سنوات ، فقاضيا في لواء" تعز" باليمن ، فرئيسا لاستئناف الحقوق والجزاء في ولاية صنعاء ، وقد غلب عليه التصوف في آخر عمره فانقطع للعبادة بمكة وتوفي بها، من كتبه : الجوهر السني شرح بديعية الصفي الحلي، وترصيع الجواهر المكية في تزكية الأخلاق المرضية ، يراجع : الزركلي خير الدين ، الأعلام ، ج 4، ص 32.

ردّه إلى المنهج العقلي الذي يعتمد على استغلال العلوم العصرية الحديثة والاستفادة منها ، وفق ما يخدم صالح الإسلام والمسلمين، في حين أن ما تلقاه على يد الشيخ محمد القاوقجي يمكن رده إلى المنهج السّلفي النّصوصي ، الذي يعتمد على النص ولا يتجاوزه، كما يمثل المنهج الصوفي الذي يعتمد على التجارب السّلوكية والنفسية ، المنهج الثالث الذي تلقاه على يد الشيخ عبد الغني الرافعي ، فكيف جمع محمد رشيد رضا بين هذه المناهج الثلاثة ؟

إن الإجابة على هذا السّؤال يفتح لنا بابا واسعا لفهم أشمل لشخصية محمد رشيد رضا ، وسيأتي تفصيل هذا في مطلب لاحق ، وحسبنا هنا أن نشير إلى أن قد استخدم هذه المناهج والتزم بها في مراحل حياته المختلفة حسب تطور تفكيره ، الذي سعى من خلاله للتأقلم مع الأوضاع المتجددة في العالم الإسلامي آنذاك ، ومعالجتها وتقديم الحلول اللازمة لها.

بقي لنا أن نشير في نهاية حديثنا عن مرحلة التكوين لمحمد رشيد رضا ، إلى أنه إلى جانب اعتماده في تكوينه على الشّيوخ السّالفي الذكر ، كانت له اجتهادات شخصية في عملية التكوين ، تبرز مدى استعداده لتحقيق آماله وطموحاته ، فقد حفظ ألفية ابن مالك في النحو والصرف وهو صغير ، وطالع فيما بعد عددا من شروحها[1] ، كما طالع كثيرا من كتب التراث كان أكثرها تأثيرا فيه كتاب: إحياء علوم الدين ، لأبي حامد الغزالي ، بالإضافة إلى تمكنه الواسع من علم المنطق[2] الذي طالع فيه متن إيساغوجي وبعض شروحه وكذلك شرح القطب على الشمسية ، وهو كتاب في المنطق أيضًا.

ويذكر الشوابكة أيضا أن :" هناك نوع آخر من مطالعات محمد رشيد رضا اهتم بها اهتماما خاصا، وهو قراءته للأناجيل والنقد لها ، مستشهدا بنصوصها والنقل عنها، وكذا مذاكراته مع أدباء النصارى في لبنان ومفكريهم ومبشريهم والإطلاع على كتبهم وجرائدهم ، حيث كان أيام طلبه للعلم في طرابلس الشام يتردد بعد خروجه من المدرسة إلى مكتبة المبشرين الأمريكيين ويقرأ جريدتهم الدينية وبعض كتبهم ورسائلهم"[3] كما أنه كان يطالع أيضا جرائد ومجلات عصره، وداوم على مطالعة مجلة المقتطف منذ أوّل عهده بالدّراسة على يد شيخه حسين الجسر الذي كان من بين مشتركيها[4].

---

[1] - أحمد الشوابكة ، محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية ، ص 17.
[2] - شكيب أرسلان ، مرجع سابق ، ص 44.
[3] - الشوابكة ، مرجع سابق ، ص 19.
[4] - المرجع نفسه ، ص 20.

وهذا الكلام إن دلّنا على شيء فإنما يدلنا على أن محمد رشيد رضا كان ذا شخصية منفتحة على الآخر، الذي قد يملك من الوسائل والإمكانات ما يمكن للمسلمين الاستفادة منه في مسعاهم النهضوي والإصلاحي ، وربما كان عائق اللغة الأجنبية وعدم التمكن منها هو الذي كان يحزّ في نفسيته ، ويمنعه من التعمق في الفكر الغربي ومتابعة المستجدات فيها، ورغم هذا فإنه لم يتوان في مطالعة بعض الكتب القيمة التي كانت تترجم، ككتاب: "مبادئ العلوم العصرية " لقانديك، وكتاب :" التربية الإستقلالية " الذي نشره فيما بعد في مجلة المنار ، كما طالع أيضا كتب المفكر الاجتماعي الفرنسي غوستاف لوبون :" روح الاجتماع " و: " حضارة العرب ".[1]

الفرع الثاني: بيئته وأوضاع عصره.

إن الفترة الزمنية التي عاش فيها محمد رشيد رضا ، كانت فترة جدّ حسّاسة ، تميزت بتطور سريع للأحداث ، كان له أثره البارز والمباشر في أحيان كثيرة على حياته عامّة ، وعلى تفكيره على وجه الخصوص ، والحاصل أنّ هذه الأحداث لم تكن تخص محمد رشيد رضا فقط، بل كانت تخص أيضا أسرته وحتى الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها، فما هو موقف محمد رشيد رضا وأسرته من هذه الأحداث ، وما مدى تأثيرها على مشروعه الفكري الإصلاحي ؟

أولاً: الأسرة .

لقد سبق لنا وأن عرفنا أن محمد رشيد رضا ينتمي إلى أسرة عريقة يمتد نسبها إلى آل بيت رسول الله ﷺ ، ومع مرور الوقت أصبحت هذه الأسرة من الأشراف ، وتنتمي إلى طبقة اجتماعية رفيعة المستوى هي الطبقة الأرستقراطية(*) أو البورجوازية الريفية على حسب تعبير المراكشي[2]، التي تتميز بخصائصها الدينية المحافظة ، وهو ما يفسر لنا طبيعة تكوينه التقليدي ، وقد لعب بعض أفراد أسرته دورا بارزا في ظهوره على السّاحة وبروزه للعمل الإصلاحي، وذلك باعتراف شخصي منه، فنجده يصف بيئته الأسرية قائلا: " وأهل بيتنا ممتازون فيهم بأنهم أهل العلم والرياسة ، ويلقبون بالمشايخ للتمييز"[3]، ويقول في موضع آخر عن نشأته:" نشأت في بيت الكرم والمجد الأثيل منها ، فكنت أرى العلماء والأدباء والحكام والوجهاء تغشى دارنا ، وتغشوا

---

[1] - الشوابكة ، مرجع سابق ، ص 20.

*- الأرستقراطية : مصطلح يوناني يعني سلطة خواص الناس ، وتعود نشأة هذا المصطلح كفكرة إلى الفيلسوف اليوناني أفلاطون في كتابه الجمهورية ، إذ كان يكره الحكم الديموقراطي ، ويرغب أن يحكم البلاد طبقة من الأرستقراطيين أو الطبقة الذهبية كما يسميهم ، وترتكز الأرستقراطية على الأراضي المملوكة وعلى مبدأ الوراثة، وقد ترتكز على الأرض ، وقد تكون دينية كالطائفة البرهمية بالهند، والمبدأ الديموقراطي عدو للأرستقراطية . يراجع : عبد الوهاب الكيلاني وآخرون، الموسوعة السياسية ، ط٥ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، لبنان، 1990 ، ج1، ص148.

[2] - المراكشي ، تفكير رشيد رضا من خلال المنار ، ص 48.

[3] - شكيب أرسلان، رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة ، ص 24.

إلى ضوء نارنا ، بل كنت أرى فيها الضيوف من البلاد المختلفة مكرمين على اختلاف مشربهم ومذاهبهم"[1]، فهذان النّصّان يدلان على المكانة العالية التي كانت تحظى بها الأسرة على صعيد واسع من دون أن ننسى أنها أسرة ريفية ، فقد كان والده يحظى بمكانة مرموقة بين الشخصيات العالية وحتى الأمراء والحكام ، وكان إلى جانب هذا من العلماء ، وكانت استفادة محمد رشيد رضا منه كبيرة علما وأدبًا ،ولم تكن والدته من جهة أخرى أقل أهمية من والده:" فقد كانت متانة خلقه وقوة دينه- محمد رشيد رضا- من أثر أمه التي كانت على جانب عظيم من الدّين ، مع العلم الكافي لمثلها"[2]، وهناك أيضا إلى جانب الوالدين طرف ثالث استفاد منه محمد رشيد رضا ، وهو عمه "أبو عبد الرحمن عاصم" ، الذي كان يقوم بالإمامة والخطابة والتدريس في مسجد القلمون،الذي كان أوّل محطّة ابتدأ فيها محمد رشيد رضا عمله الإصلاحي بتوجيه منه.[3]

ولكن وبالرّغم من هذه المكانة الحسنة التي كانت تحظى بها أسرة محمد رشيد رضا، إلا أنها واجهت صعوبة في الحفاظ على مكاسبها ، التي حصلت عليها من الحكومة العثمانية ، وبخاصة المادية منها، فبمجرد أن توفي والده ، بدأت أولى المشاكل ، إذ حوّل أمر التصرف في مسجد القلمون الذي كان بيد والده والذي انتقل إليه من الجد الثالث ، إلى رجل اسمه "عثمان النصيري" بعدما رشى الحكومة الممثلة للدولة العثمانية في طرابلس، ولم يستطع محمد رشيد رضا أن يرجع حق تصرفه في هذا المسجد باعتباره المؤهّل الشرعي حسب القانون العثماني ، إلا بعد مرافعات طويلة في محكمة طرابلس ، انتهت بطرد القاضي الشّرعي الذي كان متواطئا مع النّصيري ،وقد كان هذا في رحلته السّورية الأولى.[4]

وإلى جانب هذا فقد تعرّضت بعض ممتلكات الأسرة للتخريب ، كالبساتين ، وقطع الأشجار المثمرة ، ونهب البيت ، وقد حدث كل هذا بتواطؤ مع الحكومة العثمانية[5] ، التي يبدو أنها لم تكن راضية تماما على هذه الأسرة ، ففيم يكمن السّبب يا ترى ؟

لن نكون مخطئين إن قلنا إن الإجابة على هذا السؤال هو المفتاح الثاني الذي يفتح لنا الباب عريضا لمعرفة أكثر وضوحاً لشخصية محمد رشيد رضا ، وذلك بمعرفة علاقته وعلاقة أسرته بالحكومة العثمانية ، وموقفها منها ، ولا بد علينا أولاً قبل الخوض في هذا السّؤال أن نعرف الدولة

---

[1] - يوسف أيبش ، رحلات الإمام محمد رشيد رضا (جمع وتحقيق) ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1971 ، ص 237.
[2] - عمار الطالبي، آثار الإمام ابن باديس ، ج4 ، ص 201.
[3] - المرجع نفسه ، ج4، ص 198.
[4] - يوسف أيبش ، رحلات الإمام رشيد رضا ، ص 51.
[5] - المصدر نفسه ، ص 22.

العثمانية في ذلك الزمن ، وأوضاعها السياسية خاصة تجاه الشعوب العربية ومسقط الشام على وجه الخصوص .

ثانيا :أوضاع عصره.

لقد سبق وأن قلنا إن الفترة التي عاش فيها محمد رشيد رضا ، كانت فترة مليئة بالتقلبات والتحولات ، وخاصة من جهة الدولة العثمانية ، التي كانت تمثل دار الخلافة الإسلامية ، وتضم جزءاً كبيرا من الأقطار الإسلامية ممتد الأطراف في آسيا و أوروبا وإفريقيا ، وأهم ما ميز الدولة العثمانية في هذا الوقت ، هو أنها كانت تعيش آخر أيامها الحضارية ، وذلك بعد أن دبّت فيها عوامل الضعف ، كالاستبداد ، وظهور القوميات ، وحركات التحرر ، زيادة على سعي بعض الدول الأوروبية الكبرى للاستيلاء على بعض الأقطار فيما سمي فيما بعد "بالتوسع الاستعماري"[1]،وتقسيم تركة "الرجل المريض" ، وقد سميت هذه الفترة في أدبيات التاريخ الحديث بالمسألة الشّرقية.

وبالرّغم من أنّ المسألة الشرقية (1804-1853م) كانت زمنيا سابقة لحياة محمد رشيد رضا ، إلا أنها تركت آثاراً واضحة على منطقة الشام بدرجة كبيرة ، تمثل ذلك في الرقابة الشديدة التي ضربت على السّكان العرب على اختلاف مللهم وأديانهم ، سواء في ذلك المسلمون الذين يمثلون النسبة الكبرى من السّكان ، أم المسيحيون الذين كانوا هم كذلك نسبة معتبرة ، فإذا كان الشعور العام للسّكان ما يزال مربوطاً ارتباطا دينيا متمثلا في كون الدولة العثمانية لا تزال قائمة مقام دار الخلافة المستحقة للولاء ، إلا أنه بدأت تبرز للوجود حركات تتبنى المنهج القومي ، وبدأت تطرح فكرة الانفصال عن دار الخلافة ، التي لم تعد الدولة العثمانية تمثله على الوجه اللازم، ومن جهتها كان على الدولة العثمانية ، حتى تأمن سيطرتها على العرب ، أن تضمن ولاءهم لها ووقوفهم إلى جانبها ، أن تركز على أمرين اثنين هما :

- الأسرة الشريفة التي كانت تمثل الطبقة الأرستقراطية في المجتمع ، من خلال بعض الامتيازات التي تمنحها لها لتقديم الولاء .
- تبني فكرة سياسية عرفت باسم "الجامعة الإسلامية"، وقد برزت هذه الفكرة في حكم السّلطان عبد الحميد الثاني.(*)

---

1 - جلال يحي ، العالم العربي الحديث ، د ط ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، 1966 ، ص 199.

* - عبد الحميد الثاني (1842-1918 م) سلطان عثماني مارس الحكم من (1876 إلى 1909م) تولى الخلافة بعد موت أبيه عبد المجيد الأول وإزاحة أخيه مراد الخامس المختل عقليا ، وقد كان من وراء إصدار أول دستور عثماني ، كان يتمتع بالذكاء ، ويحب العمل والسهر بنفسه على مجمل قضايا الدولة ، إلا أنه كان شكاكا ، لا يثق بالآخرين ولا يطمئن إليهم ، شملت إنجازاته إيجاد 18 مدرسة مهنية ، وتأسيس دار الفنون 1900 - التي تحولت إلى جامعة استانبول،وبناء خط سكة حديد الحجاز لتسهيل مهمة الحج إلى مكة،وأهم عمل قام به هو موقفه الرافض عن التنازل عن

وسنرجئ الحديث عن الحركة الإسلامية ، لنتحدث عن علاقة الأسر الأرستقراطية العربية بالدولة العثمانية ، فقد كانت المصلحة المتبادلة بين الطرفين تقتضي العمل سويا لتحقيق المطامح التي يحتاجها كل طرف ، فالدولة العثمانية تمنح امتيازات مادية وأدبية لهذه الأسر ، خاصة الأسر الشريفة التي يمتد نسبها لآل البيت[1] ، مقابل التزام هذه الأخيرة بتقديم الولاء والمساعدة المادية والمعنوية متى اقتضى ذلك منها.

ويبدو أن أسرة محمد رشيد رضا ، مع كونها من أسر الأشراف ، ومن آل البيت ، إلا أنها لم تكن على علاقة مريحة مع الدولة العثمانية :" ولم تكن التقارير المرفوعة إلى الإدارة المركزية تخلو من شيء عن طبيعة هذه الأسرة وموقفها غير المطمئن"[2] ، فلماذا يا ترى ؟

السّبب في ذلك يعود إلى الأسرة في حدّ ذاتها ، واتجاهها الفكري ، فهي ترى أنّها بمكانة متميزة علما وتديّنا ونسبا ، فهم إذن بيت المشايخ ، وهذه الصّفات أورثتهم شعورا بالعزّة والأنفة من الخضوع للحكّام فضلا عن التردّد عليهم ، وتقديم الولاء والطّاعة لهم ، فكان هذا الموقف يفسّر لدى الحكومة العثمانية بأنه من مظاهر عدم الولاء ، ودليل على نية الخروج عليها[3] ، ولكننا من جهة أخرى نجد محمد رشيد رضا يرى أنه مسؤول بدرجة كبيرة على تردي العلاقة بين الطرفين[4]، ذلك أنه كان جريئا جدا ، لا يتوانى لحظة عن نقد ما يراه سيئا في الحكومة العثمانية ورجالها متى رأى أيّ خلل منها ، ولعلّ أشهر حادثة له في ذلك ، الخطبة التي انتقد فيها الدّولة العثمانية بحضور متصرف طرابلس " حسن باشا"[5] ، ولكن لما تيقن أنه ليس في إمكانه مواصلة عمله الإصلاحي ، بسبب الضغوطات المتزايدة عليه وعلى أسرته من قبل الدولة العثمانية ، بدأ يفكر في الهجرة كحل يمكنه من مواصلة هذا الإصلاح في حرية ، ودون قيود ، واستقر رأيه في الذهاب إلى مصر ، فما هي حيثيات هذه الهجرة ، ولماذا اختار مصر بالذات ؟

الفرع الثالث: رحلاته .

من الضّروري جداً أن نتحدث عن الرّحلات التي قام بها محمد رشيد رضا ، كونها تحتل مكانة مهمة في حياته الفكرية والإصلاحية معاً، وبقراءة أولية لتلك الرحلات نلاحظ أنها اكتست

=أرض فلسطين لصالح اليهود ، وقد خلع من الحكم بعد الإنقلاب الذي أحدثته جماعة الإتحاد والترقي عام 1908 م . عبد الوهاب الكيالي وآخرون ، الموسوعة السياسية ، ج2، ص 810.

1 - ومن بينها أسرة محمد رشيد رضا حيث يقول :" وقد أنعم عليه – جده الثالث- السلطان العثماني ببراءة سلطانية حبس عليها فيها سبعة قراريط من 24 قيراطا من أموال الدولة الأميرية ، وببراءات أخرى بالإمامة والخطابة في المسجد ، وقد تسلسلت هذه البراءات من السلاطين في ذريته حتى آلت إليّ . فكانت آخر براءة وجهت علي أو إلي، من السلطان محمد وحيد الدين قبل الحرب العالمة . أنظر شكيب أرسلان . رشيد رضا أو ابن أربعين سنة ، ص 24 .

2 - الشوابكة ، محمد رشيد رضا ودوره ، ص 27.

3 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

4 - يوسف أبيش ، رحلات الإمام محمد رشيد رضا ، ص 51.

5 - محمد رشيد رضا ، تاريخ الإمام محمد عبده ، ط1، مطبعة المنار ، القاهرة ، مصر ، 1931 ، ج1، ص 1001.

ميزتين مهمتين امتاز بهما محمد رشيد رضا لم تكن متوفرة لكثير من رجال الفكر والإصلاح الذين عاصروه ، وهاتان الميزتان هما:

1- يبرز من خلال هذه الرّحلات ما كان عليه محمد رشيد رضا من جمع بين المجال الفكري النظري، والمجال العلمي التطبيقي ،فإن كانت المنار– وهي مجلة أصدرها في مصر– مساحة للتنظير،فإن هذه الرّحلات كانت الوجه الثاني من العملة ، إذ كانت مساحة للتطبيق ، وتحقيق ما نظّر له في الواقع.

2- ويبرز ثانيا من خلال هذه الرّحلات مدى السّمعة والشهرة الواسعة التي تبوأها محمد رشيد رضا ، ليس فقط في البلاد العربية ، بل في العالم الإسلامي ، ووصل حتى الشرق الأقصى ، وهو ما يبيّن موقعه المهم في المدرسة الإسلامية التي انتمى إليها.

وكانت نتيجة هاتين الميزتين ، أن حظي باحترام واسع وثقة كبيرة ، جعلته يحتل مكانة المعول عليه والأمل المرجو في تحقيق الكثير من المطامع والمشاريع ، وهذا ما يفسّر لنا وجود اسمه في الوثائق السّياسية وفي الجمعيات المهمة ، والمؤتمرات الحاسمة ، وسوف نتحدث الآن عن هذه الرحلات التي نقسمها إلى نوعين : الرحلة الكبرى ، والرحلات الصغرى.

أولاً : الرّحلة الكبرى.

هي في الحقيقة هجرة أكثر منها رحلة ، ونقصد بها هجرته إلى مصر ، حيث إنه استقر بها إلى أن مات (1935م) ، ولقد كانت هذه الهجرة منعطفا حاسما في حياته ، كونها تمثل المرحلة الثانية لانقلابه الفكري من المنهج الصوفي إلى المنهج العقلي .

لقد سبق وأن قلنا إنّ محمد رشيد رضا اقتنع بأن لا مفر من الهجرة من الاستبداد العثماني الذي كان يعاني منه كل من خضع لحكمهم ، لكن فكرة الهجرة هذه تحولت فيما بعد إلى ضرورة ، بعد اكتشافه لمقالات جريدة العروة الوثقى ومنهجها الإصلاحي ، والتأثير الكبير الذي أحدثته فيه، وقد وصف هذا الاكتشاف العلمي والانقلاب الفكري بقوله : " ...ضفرت يدي بنسخ من جريدة العروة الوثقى في أوراق والدي، فلما قرأت مقالاتها في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وإعادة مجد الإسلام ، وعزته وسلطانه واسترداد ما ذهب من ممالكه ، وتحرير ما استعبد الأجانب من شعوبه ، أثرت في قلبي تأثيراً دخلت به في طور جديد من حياتي ، وأعجبت جدّ الإعجاب

بمنهج تلك المقالات في الاستشهاد والاستدلال على قضاياها لآيات من الكتاب العزيز ، وما تضمّنه تفسيرها مما لم يحم حوله أحد من المفسّرين".[1]

وتحوّل هذا الإعجاب بمقالات العروة الوثقى،إلى إعجاب بمحرّريها السّيد جمال الدين الأفغاني ، والإمام محمد عبده(*) ، فاتصل أول الأمر بالسّيد جمال الدين الأفغاني ، الذي كان آنئذ تحت الإقامة الجبرية بالأستانة عاصمة الدّولة العثمانية ، ذاكرا له شدّة تعلقه به وبمنهجه ، والسّبب في ذلك :" توجهت نفسي بتأثير العروة الوثقى إلى الهجرة إلى السيد جمال الدين الأفغاني والتلقّي عنه ، وكان قد جاء الأستانة ،فكتبت إليه بترجمتي ورغبتي في صحبته ،وأنه لا يصدني عنها إلاّ إقامته في الأستانة ، لاعتقادي أنه لا يستطيع طول المقام فيها،وعللت ذلك بقولي لأن بلاد الشّرق أمست كالمريض الأحمق يأبى الدّواء ويعافه لأنه دواء"[2] ، ولكن الظروف التي كان فيها جمال الدين الأفغاني حالت دون لقائه ولو لمرة واحدة ، حتى إن رده على رسالة محمد رشيد رضا كان شفهيا عن طريق زميله عبد القادر المغربي(**) ، ذلك أن السّلطان عبد الحميد الثاني كان قد منع الأفغاني من الكتابة والتأليف ، وتوفي الأفغاني بعد ذلك بزمن يسير .

وبعد وفاة الأفغاني ، توجهت نفس محمد رشيد رضا إلى الرجل الثاني للعروة الوثقى الإمام محمد عبده ، بعزيمة أكبر من سابقتها إلى لقاء هذا الأخير والاستفادة منه : " لئن فاتني لقاء المعلم الأول، فلن يفوتني لقاء المعلم الثاني ، فأجد عنده من الحكمة والخبرة وخطة الإصلاح"[3] ، وكان قد التقى به قبل ذلك مرات عديدة في طرابلس ، وتناقش معه حول قضايا الإصلاح ، ووضع المسلمين ورغبته في مصاحبته.[4]

وهاجر محمد رشيد رضا من طرابلس قاصدا مصر ، في ظروف من الحيطة والحذر، خوفا من أن تمنعه الحكومة العثمانية ، التي كانت تعرفه بأنه كاتب ومفكّر سياسي[5]، وكان وصوله إلى مصر في (03 جانفي 1898م)، وبقي يتنقل بين بعض المدن إلى أن وصل القاهرة في 18 جانفي 1898 م ، حيث التقى فيها أستاذه الجديد عبده.[6]

---

[1] - محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، ط٢ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، دت ، ج١ ، ص 11.

* - ستأتي ترجمتهما لاحقا .

[2] - محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ج1 ، ص 11.

** - عبد القادر ابن مصطفى المغربي الطرابلسي (1284- 1375 هـ / 1868- 1956 م) من العلماء باللغة والأدب ، ونائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ، أصله من تونس من بيت درغوث ، ولد في اللاذقية ، ونشأ في طرابلس ، وقرأ على أبيه وبعض علماء دمشق والقسطنطينية، اتصل بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ورغبه الثاني في السفر إلى مصر ، فقصدها سنة 1905م قبيل وفاة عبده ، وانصرف إلى الصحافة فكتب كثيرا في كبريات الجرائد ، ولما أعلن الدستور العثماني (1908م) عاد إلى طرابلس ، فأصدر جريدة البرهان ، وأقفلها عند ابتداء الحرب العالمية الأولى . الزركلي ، الأعلام ، ج٤ ، ص47 .

[3] - أحمد الشوابكة ، محمد رشيد رضا ودوره ، ص30 .

[4] - رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، ج١ ، ص 966 .

[5] - المصدر نفسه ، ص 998 .

[6] - المصدر نفسه ، ص 998 .

وبتواجد محمد رشيد رضا في مصر ، فإن حياته الفكرية ستتحول إلى جدّية وعطاء أكثر ، لأن مصر أكثر حرية من طرابلس، فهي ليست خاضعة للحكم العثماني ، كما أن فيها أكبر المراكز العلمية الدينية ، ألا وهو الأزهر ، ناهيك أن النهضة الأدبية والعلمية قد قطعت شوطا كبيرا فاق باقي أقطار العالم الإسلامي .

وقد حدّد محمد رشيد رضا هدفه الأول من هذه الهجرة حيث قال : " لئن كان الغرض الأول الباعث لي على الهجرة إلى مصر هو صحبة الأستاذ الإمام .. فقد اقترن به عند إجالة قداح الفكر باعث آخر ، وهو إنشاء صحيفة إصلاحية أستمد من حكمته واختباره ـــ يقصد محمد عبده ـــ فيما أكتب فيها ، إذ آن لي أن أكون مفيدا كما أكون مستفيداً"[1] ، وقد استطاع فعلا أن يجمع بين الهدفين ، حيث إنه أنشأ مجلة المنار بعد فترة يسيرة من وصوله مصر (مارس 1898 م) ، وبدأ ينشر فيها أفكار أستاذه عبده ، خاصة دروس التفسير التي كان يلقيها في الأزهر .

وخلاصة القول الذي نصل إليه هنا ، أن معرفة فكر محمد رشيد رضا ودراسته يبتدئ من هذه الهجرة، أي من سنة 1898 م ، تاريخ إنشائه لمجلة المنار ، حيث سيصبح قلمه الناطق نيابة عن لسانه ، معلّما ومربيا وناصحا ، وهاديا وكذلك ناقدا .

ثانيا : مرحلاته الصغرى .

لقد قام محمد رشيد رضا بعد رحلته الكبرى إلى مصر ، بمجموعة من الرّحلات الصغرى القصيرة زمنيا ، المتعددة الوجهات ، وتعد هذه الرّحلات من المصادر المهمة ليس فقط في مجال حياته الفكرية ، بل حتى في مجالات أخرى وخاصة المجال التاريخي والسّياسي ، وحتى في المجال الأدبي ، أو ما يسمى بأدب الرحلة ، حيث مزج بين هدف الإصلاح ومتعة السّياحة ، وحب الاكتشاف.[2]

والقراءة التي يمكننا استخلاصها من هذه الرحلات التي تبلغ مجملها ست رحلات بين 1908م إلى غاية سنة 1931 م ، أن لها هدفان: أساسي وثانوي ، أما الأوّل فهو سياسي يختلف باختلاف الرحلة ، وأما الثاني فهو دعوي أو إصلاحي ، في حين نجد باحثا مثل المراكشي يذهب إلى أن رحلات محمد رشيد رضا تتلخص في غرضين هامين اهتم بهما طوال المرحلة الأخيرة من حياته هما :

1-السعي في تحقيق الجامعة الإسلامية وجعلها رابطة سياسية واحدة بين العرب والترك .

---

[1] - محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، ج1، ص 1001 .

[2] - سمير أبو حمدان ، الشيخ محمد رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل ، د ط ، الشركة العالمية للكتاب ، دار الكتاب العلمي ، بيروت ، لبنان، 1992 ، ص 55 .

2-مقاومته الشديدة للاستعمار الأوروبي بكل أشكاله ، والعمل على تحقيق استقلال البلاد العربية من هيمنته.[1]

وهذا الجدول يبين لنا الإطار العام لهذه الرّحلات وأهدافها ، والفترة الزّمنية الواقعة فيها ؛ وبعض المنجزات المحققة في كل رحلة ، ويمكننا ملاحظة ما أكدناه أول كلامنا عن هذه الرّحلات من جمع محمد رشيد رضا بين الفكر والممارسة ، وكذا المناصب المهمة التي تقلدها في بعض النشاطات التي قام بها كالمؤتمرات والجمعيات.(*)

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] - المراكشي ، تفكير محمد رشيد رضا ، ص 46 .

* - يمكن الرجوع إلى هذا بالتفصيل في : يوسف أيبش ، رحلات الإمام محمد رشيد رضا ، و أنيس الأبيض ، (رحلات السيد الإمام محمد رشيد رضا) ، مجلة الموقف ، بيروت ، لبنان ، ع 70 ، جانفي ، 1989 .

اسم الرحلة	تاريخها	هدفها السياسي	هدفها الإصلاحي و الدعوي	منجزاتها
الرحلة السّورية الأولى	سبتمبر 1908	حضّ السّوريين للإخلاص لحكومة الاتحاديين	زيارة الأهل والأصدقاء	تدريسه في الجامع الأموي إنشاء جمعية خيرية إسلامية
الرحلة القسطنطينية	1909	السّعي للتوفيق بين العرب والترك وإزالة الخلاف السّياسي بينهما	السعي لإنشاء دار الدعوة والإرشاد	حصوله على إذن إنشاء دار الدعوة و الإرشاد
الرحلة الهندية	1913	السّعي للتأليف بين عرب الكويت والبحرين وبين العثمانيين	الحصول على إعانة مالية لمدرسة دار الدعوة والإرشاد	رئاسة المؤتمر السنوي لجمعية ندوة العلماء المسلمين في لكنهؤ
الرحلة الحجازية	1916	تأييد ثورة الشريف حسين وتهنئته	أداء فريضة الحج	خطبته السياسية في منى بحضور الشريف حسين
الرحلة السّورية الثانية	1919	المشاركة في حكومة الملك فيصل ابن الحسين	زيارة الأهل والأصدقاء الإطلاع على حالة سوريا ولبنان	خطبته الإصلاحية في جمعية للنساء رئاسة المؤتمر السوري العام
الرحلة الأوروبية -	1921	عرض القضية السورية لدى عصبة الأمم	الإطلاع على حالة أوربا بعد الحرب العالمية الأولى	تعيينه نائبا للمؤتمر السوري الفلسطيني إجراء حوار مع رئيس عصبة الأمم إجراء حوار مع صحيفة سويسرية

المطلب الثاني: مصادره في الفكر و الإصلاح والتجديد .

لقد دخل محمد رشيد رضا ميدان الإصلاح الديني في وقت مبكر من حياته، أي منذ أن كان طالبا في طرابلس ، وقد كانت هذه التجربة الإصلاحية ناجحة جداً كما يؤكد ذلك هو بنفسه، و لم تكن التجربة الإصلاحية في مصر أقل نجاحا من الأولى ، بل كانت ناجحة نجاحا كبيرا، بلغت به آفاق الأرض ، والفضل في ذلك يرجع إلى مجلة المنار التي أصبحت تعرف بأنها مدرسة إصلاحية ، وحتى يكون كلامنا بعيدا عن العموميات ، فإننا نشير إلى أن هذا النجاح في العمل الإصلاحي محكوم طبعاً بمنهج معين متبع ، لا بد من معرفته ، والوقوف عنده ، لكن قبل هذا لا بد من معرفة المصادر التي اعتمدها محمد رشيد رضا وكانت قاعدته في صياغة هذا المنهج ، فما هي هذه المصادر ؟

نجيب عن هذا التساؤل موضحين أن مصادر الإصلاح عند محمد رشيد رضا تنقسم إلى قسمين هما : المنتجات الفكرية ، والشخصيات الإصلاحية ، مع ملاحظة أن له في كل مرحلة من المرحلتين السّالفتي الذكر مصادر خاصة بها ، وطبقا لهذا التقسيم سنتعرف على هذه المصادر.

الفرع الأول : مصادر المرحلة الإصلاحية الأولى (في طرابلس) .

لقد كان لمحمد رشيد رضا في هذه المرحلة التي تمتد من حوالي سنة 1880 إلى غاية سنة 1898م ، مصدران استقى منهما منهجه الإصلاحي ، وهذان المصدران يتمثلان في : كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، و الشيخ حسين الجسر.

أولا : كتاب إحياء علوم الدين .

لقد أشرنا سابقا إلى أن محمد رشيد رضا قد استعان في تكوينه العلمي ببعض الكتب التي طالعها بمفرده ، وقد كان كتاب إحياء علوم الدين واحدا من هذه الكتب وأهمها على الإطلاق، حيث إنه وجد في نفسه استعدادا لقبول أفكاره والسّير على طريقها ، فأكبّ على قراءته مرات عديدة دون ملل محاولا التطبيق العملي ما ستطاع في ذلك[1]، وتجدر الإشارة هنا إلى أن مطالعة رشيد رضا لهذا الكتاب كانت في وقت مبكر جدّا من حياته ، على ما يؤكده ذلك بنفسه إذ يقول : " هديت إلى قراءة إحياء العلوم قبل طلب العلوم ، فأكببت على مطالعته مع مطالبة النفس بالعمل به"[2] ، لقد تمكن كتاب الإحياء فعلا أن يصل إلى أعماق نفسية محمد رشيد رضا ،

[1] - محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، ج1 ، ص 84 .
[2] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

ويؤثر فيه تأثيرا بالغا ، وذلك بالالتزام به على المستوى الشّخصي أولا، وعلى المستوى الجماعي ثانيا ، وذلك بقيامه بإصلاح حالة مجتمعه في القلمون من خلاله ، وقد وصف ابن باديس كلا المستويين المذكورين ، إذ يقول عن المستوى الأول:" حبب إليه كتاب الإحياء مجاهدة نفسه على الطريقة الصوفية ، بترك أطيب الطعام والاكتفاء بقليله والنوم على الأرض وغير ذلك".[1]

ويقول عن الثاني :" كان بعدما قرأ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من كتاب الإحياء ، يأمر وينهى ولا يخاف لومة لائم ، وأول حادثة صدع فيها بالنهي عن المنكر في حفل عظيم من الناس ، كانت يوم شهد حفلة للطريقة المولوية ورأى رقصهم ، وحلقة غلمانهم فصاح بهم بما معناه ، أيها المسلمون ، إن هذا منكر لا يجوز النظر إليه ولا السّكوت عنه ، لأنه إقرار له ، وأنه يصدق على مقترفيه قول الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا﴾ [2] وإنني قد أديت الواجب فاخرجوا رحمكم الله ، وخرج مرافقا لهم".[3]

هكذا كان تأثير كتاب الإحياء في شخص محمد رشيد رضا ، الذي بلغ من حبه وإعجابه به درجة عظيمة ، حتى إنه كان يحفظ منه أجزاء كثيرة.[4]

ثانيا : الشيخ حسين الجسر.(*)

يعد الشّيخ حسين الجسر أهم شيخ تلقى عنه محمد رشيد رضا ، ليس العلوم فقط ، بل حتى منهج توظيفها في الحياة العصرية ، وقد رأينا فيما سبق أن محمد رشيد رضا قد بقي مدة ثماني سنوات في طرابلس يتكون فيها ويحصل العلوم، وقد كانت هذه السنين بصحبة أستاذه حسين الجسر الذي كان يشرف على المدرسة الوطنية الإسلامية، التي جمعت بين التعليم الإسلامي والتعليم العصري ، ورغم أن المصادر لا تمدنا بمعلومات وافية عن هذه الشخصية بله عن علاقة محمد رشيد رضا بها ، إلا أنها تشير أنه إلى جانب كونه عالما في العلوم الإسلامية والعصرية ، كان له حظ وافر في التصوف ، ويذكر ابن باديس أنه : " على علمه بالعلوم الإسلامية وإلمامه بالعلوم،

---

[1] - عمار الطالبي ، آثار ابن باديس ، ج4، ص 197 .
[2] - سورة المائدة ، الآية 57 .
[3] - عمار الطالبي ، مرجع سابق ، ص 197 .
[4] - أحمد الشوابكة ، محمد رشيد رضا و دوره ، ص 17 .
* - حسين بن محمد بن مصطفى الجسر الطرابلسي الحنفي (1261-1327 هـ / 1845-1909 م) عالم ، أديب ، صحافي ، ولد في طرابلس الشام، وتوفي بها في رجب ، تلقى علومه الإبتدائية في طرابلس على الشيوخ : عبد القادر وعبد الرزاق الرفاعي ، والشيخ عرابي ، وانتقل بعدها إلى مصر ، أين دخل الأزهر سنة 1862 م ، وكان من أساتذته هناك الشيخ الرصيفي ، وعاد إلى طرابلس سنة 1867 م فأقام بها وعني بالتعليم والتأليف، سعى لحمل بعض الأغنياء على إنشاء مدرسة دينية نظامية، تعلم فيها بعض الرياضيات والطبيعيات واللغتين التركية والفرنسية ، فأنشئت المدرسة الوطنية وكان هو مديرها ، ثم استدعي للتدريس في المدرسة السلطانية ففعل ذلك لمدة قصيرة ، وبعدها عاد إلى طرابلس الشام حيث عاد إلى العمل في التعليم ، فكان يعلم العلوم الدينية في المدرسة الرجبية ، ومن آثاره : الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية ، والحصون الحميدية في العقائد الإسلامية ، كما أنشأ جريدة طرابلس وكان رئيس تحريرها . أنظر : عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، ط1، مؤسسة الرسالة ، بيروت، لبنان ، 1993 ، ج 1، ص 642 .

العصرية ، كان شيخا في الطريقة الخلوقية "[1]، لكن ورغم كون الشيخ حسين الجسر شيخا في هذه الطريقة ، إلا أن هذا لم يكن ذو تأثير بالنسبة لمحمد رشيد رضا ، إذ لم ينتم إلى هذه الطريقة ، رغم تأثره بشيخه ، وأكثر من هذا فقد كان محمد رشيد رضا ناقدا شديدا لهذه الطريقة وسائر الطرق الأخرى ، رغم أن الشيخ الجسركان يعارض ما يقوم به تلميذه من نقده لهذه الطرق على ما يذكره ابن باديس حيث يقول : " فكان- الشيخ الجسر- ينصح لتلميذه بأن يكفّ عن أهل الطريق ، ولكن لا يأتيه على ما يفعلونه مما يبتدعونه في الإسلام ويشرعونه لأنفسهم مما لم يأذن به الله بدليل ، وكان السّيد — محمد رشيدرضا - يقول له أقنعني بما تقول بالدليل ليصير عقيدة لي أرجع إلى قولك ، فكان الشّيخ يجيبه بقوله أنت أهل علم وصاحب حجة وليس لك عندي غير ما قلته".[2]

ويبقى السّؤال الذي تصعب الإجابة عنه هنا : ما هي درجة تدرّج الشّيخ حسين في ميدان التصوف عموما ، وفي الطريقة الخلوقية خصوصا ، وكيف استطاع أن يجمع بينهما وبين مدرسته العصرية ، على ما في الأولى من جمود وتقليد وممارسات بعيدة عن روح الإسلام الصافي ، مقابل ما في الثانية من استقلال وحرّية في التفكير ، وقرب من صفاء الإسلام ؟ كما نتساءل كذلك عن المغزى من هذه النصيحة التي وجهها الشيخ لتلميذه ، والاكتفاء بالإنكار القلبي فقط ؟

والجواب الذي نراه ملائما لهذا الأخير ، ويبقى مجرد افتراض ، هو أن الشيخ ربما كان يحاول إبعاد تلميذه عن صراع قد لا يقدر عليه ، خصوصا وأن عقلية الجمود والخرافة لا زالت متحكمة في القوم وبشكل قوي ، وما يعزز افتراضنا هذا هو أن محمد رشيد رضا كان له فعلا بعض المشاكل مع أحد أرباب هذه الطرق ، وصل صيتها إلى الآستانة ، وسيأتي الحديث عن هذا لاحقا .

ونتساءل أخيرا فيم كان الشيخ حسينا يمثل مصدرا بالنسبة لمحمد رشيد رضا الذي لم يتأثر به صوفيا ؟ لنجيب بأن الشّيخ حسين كان له مصدرا في المنهج العصري للإصلاح الذي يبتدئ أولا بالإحاطة بالعلوم العصرية — إلى جانب العلوم الإسلامية طبعا- ومعرفة دقيقة لحقيقة المرض الذي يعاني منه المجتمع الإسلامي ، ونحن نحسب أن الشّيخ حسينا كان محيطا بها خاصة وأنه كان يطالع ذلك في جريدة العروة الوثقى التي كانت تعمل في هذا الخط مباشرة ، والتي تعد المصدر الثالث للإصلاح عند محمد رشيد رضا ، الذي ستتحول حياته تحولا عميقا إثر اكتشافه لها .

---

[1] - عمار الطالبي ، مرجع سابق ، ج4، ص 199 .
[2] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

الفرع الثاني : مصادر المرحلة الإصلاحية الثانية.

تعد هذه المرحلة الثانية التي عاشها محمد رشيد رضا ، والتي تمتد زمنيا نحوا من أربعة عقود (1898-1935م) أخصب إنتاجا من النّاحية الفكرية عموما ، وأكثر جدّية من ناحية الممارسة الإصلاحية خصوصا من نظيراتها السّابقة ، ويتحكم في هذا عوامل عدة كاختلاف الظروف – المكانية خاصة – واتساع الهدف باتّساع الأفق ، واكتساب الخبرة أثناء ممارساته الإصلاحية في طرابلس ، ونتيجة لهذا كان منهج الإصلاح في هذه الفترة مختلفا عن سابقه ، لاختلاف المصادر التي اعتمدها محمد رشيد رضا حيث إنه اعتمد في هذه المرحلة على ثلاثة مصادر مرتبطة فيما بينها ارتباطا وثيقا ، وهذه المصادر هي : العروة الوثقى ، والأستاذين جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده.

أولاً : مجلة العروة الوثقى.

إذا كنا ننوي في حديثنا هنا تبيين مدى ما كانت تمثله جريدة العروة الوثقى كمصدر إصلاحي بالنسبة لمحمد رشيد رضا ، فإن هذا يضطرنا للحديث أولا عن طبيعة هذه الجريدة وأثرها في العالم الإسلامي .

أنشئت جريدة العروة الوثقى سنة (1883م) في العاصمة الفرنسية باريس ، من طرف جمعية سرّية تدعى "جمعية العروة الوثقى" ، تحت إدارة السّيد جمال الدين الأفغاني ، ويرأس تحريرها الشيخ محمد عبده [1]، ولقد كانت هذه الجريدة واحدة من بين جرائد ومجلات عديدة متواجدة في السّاحة العربية ، على غرار مجلة المقتطف (1876م) والأهرام (1875م) والجامعة (1898م) وغيرها من الجرائد والمجلات الأخرى التي كان يغلب عليها نشاط المسيحيين ، والمثقفين ثقافة غربية لا دينية ، وعموما فقد لعبت هذه الجرائد والمجلات دورا بارزا ، وكانت معادلة مهمة أدت دورا إيجابيا في حركة النهضة العربية ، وكانت لسانا ناطقا لمختلف التيارات البارزة على سطحها من مسيحية وقومية وتغريبية ، وكانت العروة الوثقى بين هذه المجموعة تمثل الرؤية الإسلامية العصرية ، والاتجاه الثقافي الإسلامي ، وقد استطاعت في مدة وجيزة أن تحتل مركز الصدارة بدون منازع بالرّغم من أنها لم تعمر إلا بثمانية عشر عددا ، لأنها أوقفت وصودرت بسبب خطابها غير المعتاد ، وكان تأثيرها كما يصفها مصطفى عبد الرزاق : " أن أخذت من قلوب الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا ، ما لم يأخذه قبلها وعظ واعظ ولا تنبيه منبه ، وهي

[1] - جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده ، العروة الوثقى ، تقديم مصطفى عبد الرزاق ، ط2 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان 1983 ، ص 24 .

ذات أثر في كل ما جد بعد من حركات الوطنية والحرية في بلاد الشرق"[1] ، وفيما يخص خطابها فقد كانت: " تعمل على إنهاض الدول الإسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام على شؤونها" [2]،مما جعلها العدو اللّدود لكل من الحكومة العثمانية والبريطانية والفرنسية ، بسبب دعوتها المسلمين للتحرر من كل سيطرة أجنبية ، مما جعل الحكومة الفرنسية وبضغط من الحكومة العثمانية ، تسارع إلى إيقافها بدعوى تحريض الشّعوب الإسلامية ضد الحكومة العثمانية .

هذا ما كان من حال العروة الوثقى وأثرها في العالم الإسلامي ، فكيف كان حالها مع محمد رشيد رضا ؟

كان اكتشاف محمد رشيد رضا للعروة الوثقى عن طريق الصدفة ، وهو يقلب أوراق والده ، وكان ما وجده عددين، وما إن قرأ مقالاتها حتى أحدثت في نفسه تحولا عميقا غيّر مجرى حياته، ويصف محمد رشيد رضا هذه اللحظة فيقول : " ظفرت يديّ بنسخ من جريدة العروة الوثقى في أوراق والدي ، فلما قرأت مقالاتها في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وإعادة مجد الإسلام وسلطانه وعزّته ، واسترداد ما ذهب من ممالكه ، وتحرير ما استعبد الأجانب من شعوبه ، أثرت في قلبي تأثيرا دخلت به في طور جديد من حياتي ، وأعجبت جد الإعجاب بمنهج تلك المقالات في الاستشهاد و الاستدلال على قضاياها بآيات من الكتاب العزيز ، وما تضمنه تفسيرها مما لم يحم حوله أحد من المفسرين على اختلاف أساليبهم في الكتابة ، ومداركهم في الفهم".[3]

انبهار محمد رشيد رضا بهذين العددين جعلاه يفتش عن بقيتها – وقد وجدها عند شيخه الجسر – ويستنسخها لنفسه ويقرؤها مرات عديدة ، وكما أن أسلوبه في الكتابة ، أصبح قريبا من أسلوب العروة الوثقى ، ولم يكتف بهذا فحسب بل أعاد نشرها في مجلة المنار التي أصدرها فيما بعد تحت عنوان " المقالات الجمالية "[4] ، ولنا أن نتساءل الآن ما الذي أعجب به محمد رشيد رضا في هذه الجريدة ؟ لنجيب بأنه أعجبه فيها أمران:

1- أعجبه فيها خطابها الذي كان متميزا عن باقي خطابات الجرائد الأخرى ، ليس فقط لأنها تدعو إلى الثورة والتمرد ، بل لأنها كذلك تدعو المسلمين إلى اليقظة والنهوض ، وذلك برد الاعتبار للاجتهاد والتحرر الفكري، وترك الجمود والتقليد والتعصب البغيض ، وكذلك الاستفادة من العلوم والتجارب التي وصل إليها الغرب المتقدم ، وأكثر من ذلك لأن الجريدة استطاعت أن

---

[1] - جمال الدين الأفغاني ، مصدر سابق ، ص 24 .
[2] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
[3] - محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج1 ، ص 11 .
[4] - الشوابكة ، محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية ، ص 21 .

تزيل – وفي وقت مبكر– إشكالية العلم والدين ، والتناقض أو التضاد بينهما ، كل هذا من دون أن ننسى أسلوبها المتقن في طريقة العرض والاستدلال القائمين على الفهم العصري للقرآن الكريم ، وقد أجمل محمد رشيد رضا كل هذه الفضائل بقوله :" ذلك ما كان من إصدارهما – الأستاذان– جريدة العروة الوثقى ، التي لا نعرف في تاريخنا كلاما بشريا أبلغ من مقالاتها في إصابة مواقع الوجدان من النفس ، ومواضع الإقناع من العقل وتجرئة الضعفاء على الثورة على الأقوياء ، والجهاد لتحرير أمتهم ، واستقلال بلادهم".[1]

2- وأعجبه كذلك منهجها الداعي إلى الوحدة بين المسلمين ، والدفاع عن العقيدة الإسلامية ، وتحسين وضع المسلمين ، يقول محمد رشيد رضا :" وأهم ما انفرد به منهج العروة الوثقى في ذلك ثلاثة أمور:

- أحدها: بيان سنن الله تعالى في الخلق ونظام الإجتماع البشري ، وأسباب ترقّي الأمم وتدليها وقوتها وضعفها.
- ثانيا : بيان أن دين الله دين سيادة وسلطان ، وجمع بين سعادة الدّنيا وسعادة الآخرة ، ومقتضى ذلك أنه دين روحاني إجتماعي ، ومدني عسكري ، وأن القوة الحربية فيه لأجل المحافظة على الشريعة العادلة، والهداية العامة وعزّة الملة لا لأجل الإكراه على الدّين بالقوة.
- وثالثها: أن المسلمين ليس لهم جنسية إلاّ دينهم ، فهم إخوة لا يجوز أن يفرّقهم نسب ولا لغة ولا حكومة". [2]

هذه هي الأسباب التي جعلت محمد رشيد رضا يتأثر بالعروة الوثقى ، التي لم تقف عند هذا الحدّ ، إذ إلى جانب كونها مصدره الأول في المرحلة الإصلاحية الثانية ، فقد دلته على المصدرين الآخرين حيث يقول:" تلك المقالات حببت إلي حكيمي الشّرق ومجددي الإسلام ، ومصلحي العصر السّيد جمال الدين الحسيني الأفغاني ، والشيخ محمد عبده المصري"[3] ، فكيف كانا مصدرين لمحمد رشيد رضا ، وكيف كانت علاقته بهما ؟

ثانيا : جمال الدين الأفغاني.

يرتبط اسم جمال الدين الأفغاني في أدبيات الفكر الإسلامي بالنهضة الإسلامية وروادها ، إذ يصنف رائدها والرّجل الأول فيها بلا منازع ، ولا غرو فجمال الدين الأفغاني يملك من المؤهلات

---

[1] - محمد رشيد رضا ، تاريخ الإمام محمد عبده، ص"ي"
[2] - محمد رشيد رضا ، تفسير المنار، ج١، ص 11 .
[3] - المصدر نفسه، ص 11 .

والصفات ما تجعله يتبوأ هذه المكانة باستحقاق ، هذا ما يحسّ به كل من يطالع سيرة هذا الرّجل الذي كرّس حياته كلها من أجل تحقيق هذه النّهضة.

ولد جمال الدين الأفغاني[1] في قرية أسد آباد بأفغانستان سنة 1838م ، وينتهي نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنه ، وكانت عائلته عشيرة كبيرة تحظى بمنزلة علية في قلوب الأفغانيين ، يجلّونها رعاية لحرمة نسبها الشريف، بدأ يتلقى تكوينه العلمي على يد والده منذ السّنة الثامنة من عمره إلى غاية الثامنة عشر ، حصل فيها علوما عديدة ، ليس فقط في العلوم الإسلامية بل حتى العلوم الأخرى كالفلسفة والرياضيات والسّياسة والتشريح والطب ، وسافر بعدها إلى الهند ،ثم قصد الحجاز للحج ، وطاف ببعض المدن هناك قصد معرفة أحوال المسلمين ، ليعود بعدها إلى بلاده أين انظمّ إلى حكومة الأمير دوست محمد خان ، لكن الفتن السّياسية التي نشبت في بلاد الأفغان طمعا في الحكم ، عجّلت في خروجه منها ، وتوجه أول الأمر إلى الهند أين استقبل بحفاوة كبيرة وحذر شديد كذلك ، ولم تأذن له السلطات الهندية بالالتقاء بالعلماء إلا بحضور عون من رجالها، ثم سيرته بعد ذلك إلى مصر على نفقتها ، فزار الأزهر وألقى العديد من الدروس هناك وقد لقي من طلاب الأزهر قبولا حسنا ، والتفافا حوله ، خاصة الطلبة السّوريين ، ثم انتقل بعدها إلى عاصمة الخلافة الإسلامية الأستانة ، فرحب به ترحيبا عظيما ، وبعد مدة عين عضوا في مجلس المعارف، فبدأ يطرح أفكاره الإصلاحية ، وقد كانت جريئة ، مما أوقعه في مشكل مع شيخ الإسلام المفتي الأعلى في الأستانة الذي اتهمه في مسألة اعتقاديه جعلته يخرج من الأستانة مكرها ، وتوجه قاصدا مصر ثانية ، فلقي من الترحاب ما لقي ، كما لقي من التفاف طلبة الأزهر حوله ما أشبعهم من علمه وأنار بصيرتهم ، لكن ومع تولي الخديوي توفيق[*] الحكم بزمن غير قصير ، وبسعاية الإنجليز اضطربت العلاقة بينهما ، فكان أن أخرج من مصر ، في أثناء الثورة العرابية (1884م) متهما بأنه المحرك الأول لها ، فغادر إلى الهند ، فلندن ، فباريس ، وفيها أنشأ العروة الوثقى ، ثم عاد إلى الأستانة أخيرا بعد طلب من السلطان عبد الحميد الثاني ، الذي سجنه فيما بعد إلى أن مات مسموما في 09 مارس 1897م.

---

[1] - للوقوف أكثر على ترجمة الأفغاني يراجع :أحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ط، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، مصر ، 1948 ، ومحسن عبد الحميد ، جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه ،ط، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، 1985 ، ومحمد عبده ، جمال الدين الأفغاني في رسالته في الرد على الدهريين، دط،دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، دت.

* - توفيق باشا الخديوي(1852-1892) خديوي مصر من 1879 إلى 1892 م ، الابن الأكبر لإسماعيل خديوي ، ولد له من جارية قبل أن يصير وليا للعهد ، انحصر تعليمه في المستوى الثانوي ، وقد تقلد في عهد أبيه وزارتي الداخلية والأشغال ،عرف عنه ضعف الرأي والتعدد وقلة الشجاعة، والمخاصمة للنظام الديموقراطي ، خاصمته الثورة العرابية وفرضت عليه تشكيل وزارة وطنية برئاسة محمد شريف ، ولما تصاعد العداء بين العرابيين وبينه لجأ إلى الاستعانة بالإنجليز مما رتب هزيمة العرابيين واحتلال الإنجليز لمصر ، واستمر حاكما لمصر بعد الاحتلال الإنجليزي الذي تغلغل في السلطة المصرية باسمه وبقي كذلك حتى توفي . أنظر عبد الوهاب الكيلاني ، الموسوعة السياسية ، ج ١، ص 810 .

إن هذه الإطلالة الخاطفة على حياة هذا الرجل ، المليئة سعيا وتحركا ، تبين لنا قيمته وعلو شأنه ، ولا غرابة أن يكون ملهما لكثير ممن اقتدوا به ، وساروا على نهجه ومنهم محمد رشيد رضا، فكيف يرى رشيد رضا جمال الدين الأفغاني ؟

ليس من المبالغة إن قلنا إن محمد رشيد رضا كان تلميذ الأفغاني بالرغم من عدم التقائه به ، بسبب الظروف التي حالت دون حدوث ذلك ، فلقد كان تعرف محمد رشيد رضا على جمال الدين الأفغاني عن طريق جريدة العروة الوثقى التي عثر عليها عند والده ، وكان تأثره الكبير بمقالات تلك الجريدة ، دافعا له للاتصال به ، وفي هذا يقول :" توجهت نفسي بتأثير العروة الوثقى إلى الهجرة إلى السّيد جمال الدين والتلقي عنه ، وكان قد جاء الأستانة ، فكتبت إليه بترجمتي ، ورغبتي في صحبته ، وأنه لا يصدني عنها إلا إقامته في الأستانة".[1]

فالأستانة إذن كانت هي العقبة لكلا الطرفين ، فجمال الدين الأفغاني كان محبوسا فيها لا يقدر على شيء، ومحمد رشيد رضا كانت أسرته على علاقة متوترة معها كما سبق ورأينا ، ومع هذا فقد بقي إلى أخريات حياته يشيد بفضل السّيد جمال الدين الذي كان بالنسبة له مجددا وفيلسوفا وحكيما للشرق وللإسلام ، ومقتبسا من مشكاة النبوة كما صوره وهو يقول : " ألا إن الرجل الذي ينبعث إلى نفخ روح حياة شعوب هبطت إلى هذه الدركات من الوهن ، وبعثها إلى مجاهدة أمم عرجت إلى تلك الدرجات من القوة ، يجب أن يكون ذا روح علوية ، أوتيت حظا عظيما من وراثة النبوة في كمال الإيمان،وصحة الإلهام وعلو الهمة...كذلك كان ذلك الروح العلوي الذي تمثل للأفغان في ناسوت بشري".[2]

ثالثا :محمد عبده .

ولد الشيخ محمد عبده حسن خير الله في قرية محلة نصر بمحافظة البحيرة سنة1849 م، في أسرة تعتز بكثرة رجالها ومقاومتهم لظلم الحكام ، وحفظ القرآن الكريم في بلده ثم ذهب إلى طنطا، فجوده في الجامع الأحمدي ، وصد بعد ذلك عن طلب العلم ، فعاد إلى بلده ليشتغل بالزراعة ، ويتزوج وهو حديث سن.

وكان في خؤولة أبيه رجل متصوف يدعى الشيخ درويش خضر ، لزمه عبده فألقى إليه ببعض من حكمة التصوف ، وقاده إلى شيء من سلوك الصوفية ، فعادت إليه الرغبة في طلب العلم ، وعاد إلى الجامع الأحمدي سنة 1865م ، ورحل بعدها إلى الأزهر فحضر هناك دروسا

---

[1] - محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج1، ص 11 .
[2] - محمد رشيد رضا ، تاريخ الإمام ، ج1، ص"و".

لكبار العلماء ، لكنه بقي على تصوفه إلى أن جاء الأفغاني إلى مصر – وكانت زيارته الثانية- فاتصل به عبده ولازمه وحضر دروسه ، فظهرت في وقت قصير آثار انتفاعه بعشرته ومعارفه ، حيث انتقل به الأفغاني من التصوف والتنسك إلى الفلسفة الصوفية ، فكتب مقدمة لرسالة الواردات التي أملاها الأفغاني ، وكانت أول آثاره العلمية ، ثم ألف بعدها حاشية على شرح الدواني على العقائد العضدية – في التوحيد- كما كتب فصولا في الجرائد استرعت إليها الأنظار.

نال شهادة العالمية من الدرجة الثانية سنة 1877م بعد امتحان ما كان لينجح فيه لولا إصرار رئيس لجنة الامتحان – شيخ الأزهر- على نجاحه ، لأن شيوخ الأزهر كانوا ينقمون عليه نزعاته الفكرية المتأثرة بمذهب أستاذه.

عيّن مدرسا للتاريخ في دار العلوم سنة 1878م ، وبعدها مدرسا للعلوم العربية في مدرسة الألسن الخديوية، لينظم بعدها مع الحزب الوطني الحر إلى العرابيين بعد مظاهرة عابدين سنة 1881م ، وظل في مكانه من المسؤولية ، حتى هزيمة الثورة فحكم عليه بالسّجن ثلاثة أشهر ثم بالنفي ثلاث سنوات ، فذهب إلى بيروت ، ثم باريس أين اشترك في إخراج جريدة العروة الوثقى مع الأفغاني، وبعد توقيفها خرج من باريس ، فقصد تونس ، فبيروت أملا في العودة إلى مصر.

ولما عاد إلى مصر توترت العلاقة بينه وبين الخديوي توفيق ، الذي صرفه عن ميدان التربية والتعليم إلى ميدان القضاء ، ولكن سرعان ما تحسّنت العلاقة بينه وبين قصر عابدين بموت توفيق وتولى الخديوي عباس حلمي الثاني(*) السّلطة ، فكان أن دخل عبده للعمل الإصلاحي في مجالات ثلاث هي : الأزهر ، والأوقاف والمحاكم الشرعية ، وكانت أهم خطوة له في هذا المجال ، إصلاح الأزهر والنظام التعليمي فيه ، وهنا كان يلقي فيه دروسا في التفسير كان يقيدها عنه محمد رشيد رضا ، وعين بعد ذلك مفتيا للديار المصرية سنة 1899م .

وكان أهمّ عمل قام به في هذه الفترة من حياته هو كتابته لرسالة التوحيد الفريدة ، التي تعد أول عمل تجديدي في مجال العقيدة الإسلامية ، وفي هذه الفترة الأخيرة من حياته زار تونس والجزائر سنة 1905م ، وعددا من الدول الأخرى الأوربية والإسلامية ، وتوفي بعدها بقليل في 11 جويلية 1905م بالإسكندرية عن سبع وخمسين عاما.[1]

---

* – الخديوي عباس (1291-1363هـ/1874-1944م)عباس حلمي بن توفيق بن إسماعيل حفيد محمد علي ، أحد من حكموا مصر من أسرة محمد علي ، ولد بالقاهرة، وتعلم بمدرسة عابدين ، وولي الخديوية بعد وفاة أبيه ، سنة 1309هـ/ 1892م بإرادة من سلطة الأستانة ، وقصد أوربا مصطافا وتأخرت عودته فاتخذت الحكومة البريطانية تأخره سببا لخلعه وتعيين غيره ، وقد استقر عباس حلمي بعد هذا في لوزان بسويسرا أين توفي بها ، ودفن في القاهرة .الزركلي ، الأعلام ، ج 3 ، ص 260.

[1] – يراجع ترجمة عبده بتفصيل : محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، ج1 ، وكذلك أحمد أمين زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ومحمد عمارة ، الأعمال الكاملة لمحمد عبده ، ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1972، ج 1، ص 17 وما بعدها.

يعد الإمام محمد عبده في نظرنا المصدر الثالث والأخير من مصادر محمد رشيد رضا الفكرية والإصلاحية في مرحلتها الثانية ، فقد كان من أقرب تلامذة الإمام عبده إليه،رغم أن صحبته له لم تدم طويلا(1898-1905م)، إلا أنها كانت غزيرة من حيث العطاء والإنتاج الفكري، لقد ورث محمد رشيد رضا عن الشيخ عبده المنهج الإصلاحي الذي تركه لهما جمال الدين الأفغاني ، فقام كل واحد منهما بدور عظيم من أجل تحقيق ذلك الإصلاح المنشود ، ويذكر محمد رشيد رضا في هذا المطاف أن أحد أصدقاء الشيخ عبده واسمه محمود سامي باشا سأل الإمام عبده قائلا:"إن جمال الدين الأفغاني قد تركك لنا فقمت بالإصلاح بعده خير قيام ، وإني لخائف أن تنقطع السلسلة بعدك فبشرني هل عندك أحد ترجو أن يتصل به سير الإصلاح ؟ قال نعم عندي شاب سوري يقوم بذلك وسأرسله إليك لتتعارفا".[1]

بدأ محمد رشيد رضا يفكر في صحبة الأستاذ الإمام بعد أن تعذر عليه الاتصال بالسّيد جمال الدين الأفغاني ، وقد قال في ذلك :" لئن فاتني لقاء المعلم الأول ، فلن يفوتني لقاء المعلم الثاني"[2] ، فعقد العزم على السّفر إليه في مصر ، حتى قدّر الله له أن يلتقي به ، وكان ذلك في 18 جانفي 1898م ، وقد علق على هذا اللقاء بقوله :" اتصلت بالشيخ في الضحوة الصغرى لليوم الذي وصلت في ليله إلى القاهرة ، فكان اتصالي به من أول يوم كاتصال اللازم بالمعنى الأخص بملزومه"[3]، ومنذ ذلك الحين أصبح محمد رشيد رضا لسان عبده وقلمه الناطق باسمه ، فقد اجتهد أن يكون كما تعهد به مريدا في حضرة الشيخ وكالميت بين يدي مغسّله[4] ، كما حرص كذلك على نشر أفكار أستاذه في مجلة المنار التي كانت منذ بداية حياتها تمثل آراء عبده الفكرية الإصلاحية، وقد ظل محمد رشيد رضا ملتزما بنشر فكر عبده إلى أن توفي (1905م) ، وبهذا فقد كان عبده بالنسبة له مصدرا يستقي منه منهج الإصلاح، وقد وصف محمد رشيد رضا صحبته للأستاذ الإمام فقال :" لم يكن أحد يجهل في عهد الأستاذ الإمام أنني كنت معه في سني جهاده الأخير ، كما كان هو مع السيد جمال الدين في مصر وباريس ، كنت معه كما قال للأستاذ الشيخ شاكر ترجمان أفكاره ، ومستودع أسراره والداعية له والمدافع عنه في كل معركة من معارك جهاده ، أكتب بشأنها في المنار ما يليق بعلاقتي به...وفوق ذلك أننا كنا على اتفاق في العقيدة والرأي في جميع ما ينشره المنار إلا مسائل الدولة العثمانية...لأن عملي في الإصلاح

---

[1] – محمد رشيد رضا ، تاريخ الإمام ، ج1 ، ص995 .

[2] – الشوابكة ، محمد رشيد رضا ودوره ، ص30 .

[3] – محمد رشيد رضا ، تفسير المنار،ج1 ، ص11 .

[4] – محمد رشيد رضا ، تاريخ الإمام ، ج1 ، ص995 .

والتجديد متمم لعمله ، كما كان عمله متمما لعمل السّيد جمال الدّين من الوجهة الدينية والمدنية"[1] ، ومن جهة مقابلة حظي محمد رشيد رضا بمكانة عالية جدا عند الإمام محمد عبده، كيف لا وهو يراه أنه منحة إلهية أرسلت إليه لتعينه فيما لم يقدر على فعله بمفرده ، وليكون وريثا له من بعده ، فيما وصل إليه من إصلاح وتجديد ، فنراه مثلا يصف هذا التلميذ الوفي فيقول :" إن الله بعث إلي بهذا الشاب ليكون مددا لحياتي ، ومزيدا في عمري ، إنّ في نفسي أمورا كثيرة أريد أن أقولها وأكتبها للأمة وقد ابتليت بما شغلني عنها ، وهو يقوم ببيانها الآن كما أعتقد وأريد ، وإذا ذكرت له موضوعا ليكتب فيه فإنه يكتبه كما أحب ، ويقول ما كنت أريد أن أقوله، وإذا قلت له شيئا مجملا بسطه بما أرتضيه من البيان والتفصيل ، فهو يتم ما بدأت ، ويفصل ما أجملت ، وقد رأيت في سفري هذا من آثار عمله وتأثير مناره ما لم أكن أظن ولا أحسب ، فهو قد أنشأ لي أحزابا ، وأوجد لي تلاميذ وأصحابا...وأنا والله في خجل من نفسي أنني لم أعمل له شيئا وهو قد عمل لي ما لم يعمله أحد ممن ربيتهم وعلمتهم ومن التزمت طول حياتي خدمتهم"[2]، هذه هي منزلة محمد رشيد رضا عند الإمام محمد عبده ، وقد قال محمد عبده هذا الكلام بمناسبة ردّه على جماعة من أصحابه ، أرادوا التفريق والسّعي بينهما بسوء، وذلك بدافع الغيرة والحسد لما رأوا من حال محمد عبده مع محمد رشيد رضا ، الذي اتهموه بأنه يطعن في علم الإمام ، ويزعم –رشيد رضا– أنه هو الذي يحضر له درس التفسير الذي كان يلقيه الإمام على طلبة الأزهر ، فكان رده هكذا ، بل وأكثر من ذلك فقد هدد صديقا قديما له ، وهو الشيخ "عبد الكريم سليمان" ، بترك صحبته إن بقي على حياكة دسائسه ، فكتب إليه عبده قائلا:"إما أن تكف عن السّيد رشيد ، وإما أن أستغني أنا عن صحبة أربعين سنة".[3]

ويبدو أن الأمر لم يتوقف هنا فقط ، فقد كانت هذه العلاقة الرّوحية التي ربطت الأستاذ بتلميذه ، مثار غيرة العديد من معارف الإمام عبده ، وصلت حتى ملك مصر الخديوي توفيق الذي سعى بدوره للتفريق بينهما، بل ونفي محمد رشيد رضا عن مصر فكان مما ذكره عبده لأحد رسل الخديوي توفيق :"إذا كنت أنا إنسانا ذا قيمة في الوجود ، فإن ذلك بأخلاقي لا بوظيفة الإفتاء ولا بغيرها ، وأي خلق يكون لي إذا كنت تركت صحبة رشيد رضا لأجل الخديوي؟...أحب أن تعلم وأن يعلم الخديوي أنني أفضل العيش أنا والسّيد رشيد رضا هاهنا في

---

[1] – مصدر سابق ، الصفحة نفسها .

[2] – محمد رشيد رضا ، تاريخ الإمام ، ج1 ص 1018 .

[3] – المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

رمل عين شمس على البقاء في منصب الإفتاء وعضوية مجلس إدارة الأزهر ، لأن هذا الرّجل متحد معي في العقيدة والفكر والرأي والخلق والعمل".[1]

وخلاصة القول فإن ما يمكن أن نفهمه من هذا كله أن محمد عبده ، يبدو أنه كان يهيئ تلميذه لوراثة منهجه الإصلاحي من بعده ، خاصة وأنه وجد فيه من الاستعداد للقيام بهذه المهمة ، ما جعله يثق فيه ويطمئن إليه ، فهل استطاع رشيد رضا أن يكون عند ظن شيخه به ؟ وهل سار من بعده على منهجه الإصلاحي ؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي من الكلام .

[1] – محمد عمارة ، الأعمال الكاملة لمحمد عبده ، ج3 ، ص 131 .

المطلب الثالث : حياته الفكرية ومنهجه في الفكر والإصلاح .

لا شكّ أنّ الأمر الذي نسلّم به ونحن نتحدث عن محمد رشيد رضا ، هو أن حياته الفكرية كانت سخيّة من حيث العطاء والإنتاج الفكري ، الذي كان متنوعا ، ويرجع هذا في نظرنا إلى أمرين : أما الأول فيرجع إلى شخصية محمد رشيد رضا ونفسيته الشغوفة بحب العلم ، وأما الثاني فيرجع إلى الانتماء الفكري الذي مرّ به ، حيث مرّ بتقلبات فكرية كانت كل واحدة منها بمثابة انقلاب منهجي ترك بصمات واضحة ليس فقط على مستوى الفكر بل وكذلك على مستوى الممارسة ، وهذان السّببان يمكّناننا من الوقوف على محطات فكرية اعتمد فيها محمد رشيد رضا على مناهج متنوعة مثلت خلاصة رؤيته الإصلاحية ، التي سعى لها مدّة طويلة من حياته ، وهذا ما سنتعرف عليه في هذا المطلب .

الفرع الأول : حياته الفكرية .

من الضروري لنا قبل أن نخوض في استعراض مجمل فكر محمد رشيد رضا في شتى الميادين التي تناولها طيلة حياته ، أن نتعرف أولا على المدارس الفكرية التي انتمى إليها ، حيث إن محمد رشيد رضا قد مرّ في حياته بثلاثة مدارس فكرية اعتمدها كأرضية لعمله الإصلاحي ، وهذه المدارس هي : المدرسة الصوفية ، والمدرسة العقلانية ، وأخيرا المدرسة السّلفية .

أولاً : المرحلة الصوفية .

لقد سبق لنا وأن رأينا أن محمد رشيد رضا قد تلقى بعض مبادئ التصوف ، أيام تكوينه العلمي على يد شيخه عبد الغني الرافعي ، لكن في واقع الأمر فإنه لم يقتصر فقط على تلقيه لتلك المبادئ فحسب بل تعدى الأمر إلى الانتماء إلى بعض الطرق الصوفية التي كانت متواجدة في موطنه ، وهي طريقة النقشبندية (*)،ولكن بالرغم من كون محمد رشيد رضا منخرطا في هذه الطريقة إلا أنه لم يصل إلى حد ممارسة بعض الأفعال التي كان يقوم بها أهل الطرق عامة ، والتي تعرف بمخالفتها للشريعة الإسلامية ، بل كان تصوفه لا يتعدى الممارسة الشخصية التي تعتمد على الزهد ومجاهدة النفس خاصة ، وهذا ما صرّح به إذ يقول :"نشأ مؤلف هذا الكتاب – محمد رشيد رضا– نشأة دينية صوفية ، فحبب إليه هذا النّسك والتحنث منذ سنّ المراهقة بل التمييز ،

* - النقشبندية : أصحاب بهاء الدين شاه نقشبند المتوفي سنة 791 هـ وقيل معنى نقشبند لو نقش بندر أنه ربط النقش والمقصود بالنقش انطباع القلب بالذكر وربطه أي بقاؤه من غير محو ، والنقشبندية طريقة صوفية تقوم أساسا على الذكر ، وتسمى أيضا بأسماء عدة بحسب اسم إمام الوقت فهي صديقية نسبة لأبي بكر الصديق وطيفورية نسبة لأبي يزيد طيفور البسطامي ، وخوجكانية في عهد رئيس الخوجكان نقشبند وأحرارية نسبة لعبد الله أحرار وهكذا ... ويقولون إنها طريقة الصحابة لذلك تنسب لأبي بكر الصديق ، وقد كان رواجها الأول بين المتحدثين باللغة الفارسية ، أنظر عبد المنعم حنفي ، الموسوعة الصوفية ، ط1 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، مصر ، 2003 ، ص 985 .

وكنت لا يلذ لي شيء كقراءة أخبار الصالحين، والذكر والصلاة ،وهديت إلى قراءة إحياء العلوم قبل طلب العلوم ...ثم اشتغلت بطلب العلوم و لم أترك التّصوف بل سلكت معه طريقة النقشبندية" [1] ، والجدير بالذكر هنا هو أن تصوف محمد رشيد رضا مع كونه ليس مغاليا من جهة، فإنه من جهة أخرى كان موجها له في عمله الإصلاحي، حيث أخذ على عاتقه إصلاح حال المجتمع استنادا إلى التصوف الذي هو في الأساس موضوع لغرض الإصلاح – إصلاح الذات خاصة- يقول محمد رشيد رضا في هذا الصدد خاصة :"كنت من قبل اشتغالي بطلب العلم في طرابلس الشام مشتغلا بالعبادة ، ميّالا إلى التصوف، وكنت أنوي بقراءة القرآن ، الاتعاظ بمواعظه لأجل الرّغبة في الآخرة ، والزّهد في الدنيا ، ولما رأيت نفسي أهلا لنفع الناس بما حصلت من العلم على قلّته ، صرت أجلس إلى العوام في بلدنا أعظهم بالقرآن مغلبا الترهيب على الترغيب ،والخوف على الرجاء والإنذار على التبشير ، والزهد في الدنيا على القصد والاعتدال فيها "[2] ، و لم يقتصر محمد رشيد رضا على هذا ، فإضافة إلى وجهة إصلاح المجتمع ، كانت له وجهة أخرى لا تقل أهمية عن الأولى وهي إصلاح الطرق الصوفية ، فلقد كان شديد النقد والاعتراض على المخالفات الشرعية التي تأتيها هذه الطرق ، ويبدو أن هذه المهمة لم تكن بالسّهلة عليه – وقد كانت كذلك – لأنها تحتاج إلى جهد أكثر من واحد ، حيث إنها ترسخت في ذهنيات يصعب إقناعها ببطلان ذلك لجهلها وأميتها ، وفعلا فقد تلقى بعض الصعوبات والمشاكل جرّاء تعرضه لهذه الطرق ، وقد رأينا من قبل نصيحة شيخه حسين الجسر له بالكف عن هذا النقد والاكتفاء بالإنكار القلبي فقط ، إلا أن رشيد رضا لم يلتزم بهذه النصيحة إذ أقبل على عمل آخر ، فألف كتابا ينتقد فيه بعض هذه الطرق وسماه " الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية" ، وذلك ردا على أبي الهدي الصيادي(*) الذي كان يمثل الطريقة الرفاعية ، وكان له نفوذ واسع في الحكومة العثمانية ، فكان هذا الكتاب وبالا على محمد رشيد رضا ، وعلى أسرته كذلك ، التي انتقم منها أبو الهدي الصيادي بعدما عجز عن التنكيل بمحمد رشيد رضا. [3]

وعلى العموم يبدو أن محمد رشيد رضا كان راضيا عما قدمه في المرحلة الصوفية من حياته ، لكن هذا لم يمنعه من الاعتراف ببعض السّلبيات التي سببها له التصوف إذ يقول :" نفعني التصوف في طلب العلم من جهة وأضر بي من جهة أخرى ، فإنني رغبت عن دخول المدرسة

---

[1] - محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، ج1 ، ص 84 .

[2] - محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج1 ، ص10 .

* - أبو الهدي الصيادي (1849-1909م) شيخ الطريقة الصوفية الرفاعية بسورية ، ولي نقابة الأشراف فيها ، ثم قلده السلطان عبد الحميد مشيخة الإسلام بالأستانة ، واستمر أبو الهدي الصيادي في خدمته ما يزيد عن ثلاثين سنة ، توفي منفيا مع عبد الحميد بعد خلعه عن السلطنة ، من تآليفه : قلادة الجواهر في ذكر الرفاعي وأتباعه الأكابر : الزركلي ، الأعلام ، ج6 ، ص 324 .

[3] - محمدرشيد رضا ، مجلة المنار ، دط، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، المنصورة ، مصر ، دت ، مج 21 ، ج 1 ، ص 4.

الوطنية وعن درس اللغتين التركية والفرنسية لاعتقادي يومئذ أن ليس في دراستهما فائدة دينية ، ولا هما مما يطلب لوجه الله ﷻ".[1]

ولم يستقر رشيد على حاله من التصوف ، رغم التأثر الكبير به ، إذ تعرف على مدرسة فكرية كانت بالنسبة له أحسن من المدرسة الصوفية بالإضافة إلى الاستعداد النّفسي الذي وجده مهيأ لقبول هذه المدرسة والعمل تحت لوائها ، فكانت هذه المدرسة محطة ومرحلة ثانية في حياته الفكرية.

ثانيا : المرحلة العقلانية :

لقد كانت المرحلة الإصلاحية الثانية هذه لمحمد رشيد رضا تختلف كلّيا عن المرحلة الأولى ، وذلك أن هذه الأخيرة ما كانت تعتمد على القدرات الذاتية والعلمية نظرا لارتباط المريد بشيخه ارتباطا يمحي وجود الأول ويسلب حريته كليا أمام شيخه كما هو معروف في أبجديات التصوف ، ومن الطبيعي جدا أن يتخلى محمد رشيد رضا عن التصوف – مع ما عرفناه في نفسه من حب للتحرر الفكري- بمجرد عثوره على العروة الوثقى التي يمثل منشئاها الأفغاني وعبده ، مدرسة متحررة من كل أشكال التقليد والجمود حتى أصبحت تعرف بالمدرسة العقلية ، لذلك لم يتوان لحظة في تبني خطاب هذه المدرسة ومنهجها .

وبانتماء محمد رشيد رضا إلى هذه المدرسة ، حصلت منفعة متبادلة بينه وبينها ، فبالنسبة له لم يعد الإصلاح عنده يعني العزلة والهروب من الدنيا وتغليب الترهيب على الترغيب، والاكتفاء بالالتزام الشخصي ، بل صار الإصلاح كما تعلمه من أستاذيه الأفغاني وعبده، ضرورة حضارية وواجب ديني محكوم بسنن وقوانين ثابتة ، شامل لكل مجالات الحياة السّياسية والاجتماعية والثقافية ، محكوم بمرجعية دينية أساسها القرآن الذي لا يعارض العلم بل العلم شاهد على صدقه وحقيقته ، والاثنان معا – القرآن والعلم – هما الركيزتان اللتان يعتمد عليهما في أي إصلاح منشود .

هذه هي الرّؤية الجديدة للإصلاح التي نفخها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في روع محمد رشيد رضا الذي بدوره أفاد مدرسته الفكرية الجديدة بجده وجهده وإخلاصه ، بفضل مجلة المنار ، التي كانت لسان حالها والناشر لهذا المنهج الفكري والإصلاحي ، بعد أن تراجعت العروة الوثقى عن القيام بهذا الدور .

---

[1] - محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، ج1 ، ص 84 .

ولا بد أن نشير هنا إلى أن محمد رشيد رضا التزم في هذه المرحلة أن يكون ناشـــرا لفكـــر أستاذه عبده ومنهجه ، وهو ما قام به فعلا منذ وصوله مصر ، حيث أدّى هذه المهمة بامتيـــاز ، باعتراف محمد عبده نفسه الذي رأينا قوله سابقا:"إن في نفسي أمورا كثيرة أريـــد أن أقولهـــا أو أكتبها للأمة ، وقد ابتليت بما شغلني عنها ، وهو يقوم ببيانها الآن كما أعتقد وأريد وإذا ذكرت له موضوعا ليكتب فيه ، فإنه يكتبه كما أحب ، ويقول ما كنت أريد أن أقول"[1] ، ومع هذا فـــإن محمد رشيد رضا لم يبق ملتزما السّير على هذا الخط إذ عرفت حياته الفكرية مرحلة ثالثة ، كانت بعد وفاة أستاذه عبده ، ويمكن اعتبار هذه آخر تطور حدث له في منهجه الفكري والإصـــلاحي وهذه المرحلة هي :

ثالثا : المرحلة السّلفية .

بدأت ملامح التّسلف تظهر في فكر محمد رشيد رضا بعد وفاة أستاذه محمد عبـــده ، أي في العقد الأول من القرن الماضي ، حيث يلاحظ تغير نوعي في خطابه الإصلاحي ، بإدراج بعـــض الأفكار والمصطلحات المتداولة عند أهل هذا المذهب ، وقد كانت هذه المرحلة السّلفية التي عاشها آخر المراحل الفكرية التي مر بها وأطولها (1908-1935م) ويمكننا أن نلمح تجليات هـــذه النزعـــة السلفية بوضوح في تفسير المنار الذي استقل بكتابته ابتداء من المجلد الرابع – أواخر سورة النساء- وكان يعتبر مكملا لعمل أستاذه عبده ، حيث نرى توسعا كبيرا في استعمال الأثـــر والحـــديث النبوي استعمالا وافيا بما في ذلك مناقشـــة الأسانيد ونقـــد الـــرواة ، كـــما نرى أيضـــا نقـــلا مطولا لنصـــوص بعض من أعـــلام هـــذه المدرسة كـــابن تيمية وابن القيم ، وقد كان هـــذا منهجه العام في بقية الأجزاء التي واصل إنشاءها ، وقد بين في مقدمة تفسيره هذا التغيير المنـــهجي بقوله :"ولما استقللت بالعمل بعد وفاة – عبده- خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السّنة الصحيحة ، سواء كان تفسيرا لها أو في حكمها ، وفي تحقيق بعض المفـــردات أو الجمل اللغـــوية والمســـائل الخلافية بين العلـــماء ، وفي الإكثار من شواهد الآيـــات في السّـــور المختلفة ، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها بمـــا يثبتـــهم بهداية دينهم في هذا العصر ، أو يقوي حجتهم على خصومه من الكفار والمبتدعة أو يحل بعـــض المشكلات التي أعيى حلها بما يطمئن به القلب وتسكن إليه النفس ، وأستحسن للقارئ أن يقـــرأ

[1] - محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، ج1 ، ص 1018 .

الفصول الاستطرادية الطويلة وحدها في غير الوقت الذي يقرأ فيه التفسير لتدبر القرآن والاهتـــداء به في نفسه".[1]

وبالـــرّغم من كون محمد رشيد رضا قد التـــزم المنهج السّلفي بقية عمره ، إلا أن عزيمته على الإصلاح بقيت ثابتة، فمن إصلاح المجتمع والطرق الصوفية علـــى النهـــــج الصـــوفي ، إلى إصلاح التعليم والمراكز العلمية على النهج العقلي، تأتي المرحلة الثالثة من حياته الفكريـــة لتتميـــز بالإصلاح السياسي على النهج السلفي ، حيث كانت آثار السلفية واضحة جدا في مشروع رشيد رضا السياسي ، وذلك بسعيه وتأييده لكل من الشريف حسين(*)ومن بعده الملك عبد العزيز بن سعود(**)لإقامة دولة سنية في العاصمة الروحية للإسلام مكة المكرمة والمدينة المنورة .

وفي كل الأحوال فإن الحديث عن سلفية محمد رشيد رضا يقودنا إلى الحديث عن نقطـــة مهمة تحتاج لضبط دقيق،ويتعلق الأمر بموقع الحقيقي بين هذه المراحل الثلاث الـــتي رأيناهـــا ، أو بصيغة أشمل: موقع محمد رشيد رضا في الفكر الإسلامي الحديث،فأين يمكن تصنيفه ؟

رابعا : موقع محمد رشيد رضا في الفكر الإسلامي الحديث.

نرى لزاما علينا بعدما رأينا الأطوار التي مر بها محمد رشيد رضا في حياته الفكرية ، أن نبين ولو في العموم الزاوية التي يُنْظَرُ إليها من قبل المفكرين العرب والمسلمين ، وكذا المكانة التي يحتلها تفكيره وجهده الإصلاحي بين أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي.

وأول ما نشير إليه هنا أن أكثر ما يتناوله الباحثون في شخصية محمد رشيد رضا هو الجانـــب الإصلاحي ، في حين تبقى جوانب أخرى في تفكيره محدودة التناول على غرار جـــانبي التفســـير والسياسة ، وقد يدمج هذين الجانبين عند بعض الباحثين فيتناولان هما أيضا من جانب إصلاحي ، وفي هذا السّياق نرى الباحثين يجمعون على أن محمد رشيد رضا يمثل خاتمة التيار الإصلاحي الذي تزعمه جمال الدين الأفغاني والذي يعرف أيضا – التيار– بأنه مدرسة إصلاحية ، لكن الذي قـــد يبدو غريبا بالنسبة لهذه المدرسة أنها تنعت بالسلفية ، وحتى لا تختلط المفاهيم ، فإننا نجـــد لـــدى

---

[1] - محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج1 ، ص16.

* حسين بن علي الشريف (1854-1931م) ملك الحجاز ومؤسس الأسرة الهاشمية في العراق سابقا وفي الأردن ، وآخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين ، وهو والد الملك فيصل والملك عبد الله والملك علي ، ولد في استانبول منفى والده ، وانتقل إلى مكة وهو طفل ، أبعد عن الحجاز إلى استانبول ، وعين عضوا في مجلس الشورى العثماني ، وعين أميرا لمكة بعد وفاة عمه ، توترت العلاقة بينه وبين الاتحاديين ، فأعلن الثورة العربية الكبرى عام 1916 ، ووجه ابنه الأمير فيصل إلى سورية قصد إنشاء دولة عربية هناك ، لكن الإنجليز الذين تحالف معهم خذلوه ، فضاعت منه سورية لصالح فرنسا ، كما ضاعت فلسطين لصالح الإنجليز ونفي بعدها إلى جزيرة قبرص ، ثم عاد إلى عمان أين توفي فيها . عبد الوهاب الكيلاني وآخرون ، الموسوعة السياسية ، ج2 ص 542.

** - عبد العزيز بن سعود (1880-1953م) المؤسس الأكبر للدولة السعودية الوهابية في الجزيرة العربية ، ولد في الرياض بنجد ، واستقر في الكويت ، وقاوم آل الرشيد في الرياض واستولى عليها وأسس إمارة السعوديين سنة 1902م ، وتوسع في الغزو حتى شمل الأحساء والقطيف وبلاد عسير ، وأزال إمارة آل الرشيد ، ثم الملك حسين بن علي صاحب الحجاز سنة 1924 م، وأعلن توحيد المقاطعات التابعة له في مملكة واحدة باسم المملكة العربية السعودية سنة 1932م ، قام بكثير من المشاريع العمرانية ، طورت الحياة في الجزيرة العربية ، الزركلي ،الأعلام ، ج4 ، ص 27.

الباحثين تحديدات أخرى ، حيث يطلق عليها بعضهم اسم السّلفية الجديدة ، كما هو الحال بالنسبة للمراكشي[1] ، وزكي بدوي ، كما نجد آخرين يطلقون اسم السلفية العقلانية ، كما هو الحال عند محمد عمارة [2]، ويفرق هؤلاء الباحثين بين السلفيتين فيما لا مجال للخوض فيه هنا[*]، ويعتبر محمد رشيد رضا من هذا المنطلق الأكثر سلفية من أستاذيه ، فزكي بدوي مثلا يرى بأنه :" إذا كان الأفغاني ملهم المدرسة التجديدية السلفية ، ومحمد عبده هو العقل المفكر لها ، فإن محمد رشيد رضا هو المتحدث باسمها"[3] ، ومن جهته يذهب فتحي عثمان إلى القول :"إن محمد رشيد رضا كان أعلم بمنهج السلف وأحرص على الالتزام به من شيخه عبده".[4]

ومن هنا فإن أهم إشكالية يتوقف عندها الباحثون فيما يخص محمد رشيد رضا هي إشكالية المنهج السلفي الذي اختاره في المرحلة الأخيرة من حياته ، حيث إن سلفيته تختلف عن سلفية أستاذيه ، ذلك أن سلفية هذين الأخيرين تعطي للعقل مساحة واسعة ، واستقلالية كبيرة على حساب النص ، زيادة على استراتيجية التفتح والاستفادة من منتجات الآخر الحضارية خاصة في مجال العلم والفكر ، في حين أن سلفية محمد رشيد رضا على عكس الأولى ، حيث تجعل العقل تابعا وشارحا للنص كما أن مجال الاستفادة من الآخر محدودة وقليلة ، وانطلاقا من هذه النقطة يذهب معظم الباحثين إلى أن محمد رشيد رضا يمثل تحولا هاما وانعطافا كبيرا للحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي :"من الانحياز إلى الفكر الإصلاحي الذي ينشغل بقضية النهضة والتقدم والتمدن ، وبالشأن العام في إطار الأمة ، إلى الانحياز للفكر السلفي الذي ينشغل بقضية العقيدة والشؤون الخاصة في إطار الطائفة"[5] ، هذا التحول الذي عبر عنه ماهر الشريف بانقلاب الشيخ على أستاذه ، حيث كان :"الافتراق واضحا بين "المريد" و"الأستاذ" ، ولا سيما بعد أن كون الأول شخصيته الفكرية المستقلة ، وأخذ يشيع فكرا إسلاميا متسما بالانغلاق والمحافظة والتزمت، وبعيدا عن الانفتاح والتسامح والعقلانية ، والقبول بشرعية الاختلاف"[6] ،ومن جهة أخرى نجد زكي الميلاد يذهب إلى أشمل من ذلك ، حين يضع محمد رشيد رضا نقطة فاصلة بين مرحلتين من مراحل الفكر الإسلامي ، فهو بالنسبة إليه :" يمثل خاتمة لمرحلة بارزة في تطور الفكر الإسلامي ، وهي مرحلة الحركات الإصلاحية التي يؤرخ لها منذ انطلاقة السيد جمال الدين الأفغاني

---

[1] - المراكشي ، تفكير محمد رشيد رضا ، ص 83 .
[2] - محمد عمارة ، تيارات الفكر الإسلامي ، ط2 ،دار الشروق ، بيروت ، لبنان ، 1997 ، ص 285.
[*] - يراجع المراكشي ، مرجع سابق ص80 وما بعدها ، ومحمد عمارة ، مرجع سابق ، ص 285 وما بعدها .
[3] - زكي بدوي : (المصلحون المصريون) نقلا عن زكي الميلاد،الشيخ محمد رشيد رضا وتحولات الفكر الإسلامي المعاصر، مجلة الكلمة ، ع 24، السنة 6 ، منتدى الكلمة للدراسات الإسلامية ، بيروت ، لبنان ، 1999، ص 8.
[4] - محمد فتحي عثمان ، السلفية في المجتمعات المعاصرة ، د م ن، دار آفاق الغد ، ص 75.
[5] - زكي الميلاد ، مرجع سابق ، ص 12.
[6] - ماهر الشريف ، رهانات النهضة في الفكر العربي ، ط1 ، دار المدى للثقافة ، دمشق ، سوريا ، 2000 ، ص 113.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ، ويطلق عليها تاريخيا مرحلة الفكر الإسلامي الحديث ، كما يمثل رشيد رضا من جهة أخرى اتصالا زمنيا بمرحلة أخرى في تطور الفكر الإسلامي ، وهي المرحلة التي تشكلت موضوعيا بعد نهاية الدولة العثمانية (1924)م ، ويطلق عليها تاريخيا بمرحلة الفكر الإسلامي المعاصر".[1]

ومن جانب آخر يركز الباحثون على تقديم تفسيرات وأسباب لهذا التحول المنهجي في فكر محمد رشيد رضا ، والملاحظ أن هذه التبريرات تركز معظمها على جعل الوضع السياسي هو السبب المباشر لهذا التحول ، فماهر الشريف يرى بأن :" الظروف السّياسية التي أحاطت بحياة رشيد رضا والتي تميزت بتصاعد الهجمة الاستعمارية الغربية على البلدان العربية والإسلامية ، وتفكك الإمبراطورية العثمانية ، واختفاء الخلافة الإسلامية وقيام دولة علمانية حديثة في تركيا"[2]،أهم عامل ساهم في بلورة تفكيره واتجاهه إلى هذا الخط ، ونجد في نفس الرّواق أيضا وجيه كوثراني الذي ربط بين مجموعة كبيرة من الأحداث السّياسية التي ساهمت في نظره في هذا التحول ، حين رأى بأن :"مرحلة محمد رشيد رضا كانت مرحلة تاريخية عاصفة بالأحداث والانعطافات والتحولات الكبرى المصيرية ...فمنذ الانقلاب الدستوري (1908م) وحتى إلغاء الخلافة الإسلامية ، ومؤتمر لوزان (1933م) شهدت المرحلة انفجار الحرب العالمية الأولى ، وسلسلة المعاهدات السّرية بين الدول الكبرى من سايكس- بيكو إلى وعد بلفور ...وقيام الثورة العربية ومشروع المملكة العربية السعودية ، وقيام الثورة الكمالية التحريرية في تركيا ...وبروز المشروع السعودي الثاني ...هذه الظروف والتحولات لعلها كانت حاسمة في دفع رشيد رضا نحو مزيد من السلفية على حساب الإصلاحية القديمة".[3]

إضافة إلى هذه العينة من المفكرين الذين يرون في الجانب السياسي العامل الأول في تحول رشيد رضا الفكري ، نجد آخرين يركزون على الجانب الفكري في تبرير هذا التحول ، كما هو الحال مع الباحث التونسي هشام جعيط ، الذي يذهب إلى أن رشيد رضا :"عاش في مجتمع أكثر علمنة وتنوعا فراح يشدد على الإرث الإسلامي المحض لعبده ، وأذاع أفكاره عبر المنار ، وأظهر السلفي في صورة المثقف الإسلامي الملتزم بمسار الحياة السياسية والاجتماعية ، المعادي للممارسات الطرقية الشعبية ، القاطع جذريا مع طبقة العلماء والممثل أخيرا لبرجوازية مدينية

---

[1] - زكي الميلاد ، الشيخ محمد رشيد رضا و تحولات الفكر ، ص 8.
[2] - ماهر الشريف ، مرجع سابق ، ص 18.
[3] - وجيه كوثراني ، مشروع للنهوض العربي ، نقلا عن زكي الميلاد ، مرجع سابق، ص 12.

صغيرة بعيدة عن الأوساط السّائدة"[1] ،وأما محمد عمارة ، فإنه يعتبر أن هذا التحوّل لم يكن إلا عملا استراديا ، حيث إن رشيد رضا كان تكوينه الأول سلفي نصوصي ، يهتم بالمنقول أكثر مما يهتم بالمعقول :"وهذا التكوين السّلفي النّصوصي القديم عاد فبرز في فكر الشيخ رشيد عندما تحررت أفكاره من تأثير الأستاذ الإمام".[2]

وبالنسبة للكثير من المفكرين فإن التحول الفكري لرشيد رضا من العقلانية المتفتحة إلى السّلفية النصوصية، يعد انهيارا مسبقا للفكر الإسلامي المستنير ، الذي ترك السّاحة لما يسمى بالحركات الإسلامية ، التي انطلقت من أين توقفت فيه مدرسة الأفغاني ، أي من المنار التي كان يصدرها رشيد رضا ، هذا ما يراه زكي الميلاد من أن :"الفكر الإسلامي المعاصر الذي تشكل بعد سقوط الدولة العثمانية ، وبعد قيام الدولة الغربية الحديثة ، كان أقرب لخطاب رشيد رضا منه إلى خطاب الأفغاني وعبده، وهو الخطاب الذي عزز المنحى السّلفي في منظومة هذا الفكر ، وانطلقت منه الاتجاهات الإسلامية ذات النزعة السّلفية فقد عبر رشيد رضا عن صور وأنماط الفكر الإسلامي في تحولاته ، حيث بدأ متصوفا في القسم الأول من حياته ، وإصلاحيا في وسطها ، وانتهى سلفيا في آخر حياته".[3]

وما نقوله نحن بدورنا في الأخير، إنه بعيدا عن محاولة تنسيب محمد رشيد رضا لطائفة معينة أو لتيار معين على حساب آخر، فإنه يبقى ذلك المفكر الذي تبقى الغاية عنده هي التي تحدد الوسيلة والمنهج ، كما يبقى ذلك المفكر الذي له أفكاره الخاصة به ، النابعة من رؤيته الشخصية ، ومن خبرته الذاتية في العمل الإصلاحي ، فما هو هذا الفكر يا ترى ، وما هي المناهج التي وظفها لتنزيله في ميدان الإصلاح الإسلامي ؟

الفرع الثاني : منهجه في الفكر والإصلاح .

إن المقولة التي كنا نسمعها من قبل ونقرؤها من أن رشيد رضا لم يكن سوى مدون لفكر، أستاذه محمد عبده ، قد أصبحت أو كادت تصبح في سلة مهملات الفكر العربي المعاصر ، وفي الحقيقة فإن كل من لا يزال يعتقد هذا الرأي فإن حاله يدل على قلة إطلاعه لفكر هذه الشخصية، وعلى الرغم من أن رشيد رضا قد كان فعلا في مرحلة معينة من حياته مدونا لفكر شيخه ، إلا أنه لم يبق كذلك وفيا لهذا المبدأ ، كما لم يتخل في الوقت نفسه عنه نهائيا ، وما يقال عن محمد

---

[1] - هشام جعيط ، أزمة الثقافة الإسلامية ، ط1، دار الطليعة ، بيروت ، لبنان ، 2000، ص 58.
[2] - محمد عمارة ، مسلمون ثوار ، ص 455.
[3] - زكي الميلاد ، محمد رشيد رضا وتحولات الفكر ، ص 17.

عبده ينطبق كذلك على جمال الدين الأفغاني ، حيث يمكننا أن نلاحظ بصمات الرجلين بوضوح في منهج رشيد رضا الإصلاحي ، وبدرجة أقل في المنهج الفكري ، ولكن قبل الحديث عن المنهج الفكري والإصلاحي لرشيد رضا ، نرى أنه من الأولى أن نتحدث عن تفكيره ليتسنى لنا فيما بعد فهم منهجه بأوضح صورة .

أولا : تفكير محمد رشيد رضا .

لا نرى أن بإمكاننا أن نأتي على تفكير رشيد رضا كاملا ، خصوصا وأنه قد حاول إبراز فكرة الإسلام الشمولي الذي يصلح تطبيقه في كافة ميادين الحياة ، وهناك سبب آخر يتمثل في أننا نريد تناول زاوية معينة في فكر هذا الرجل ، ولهذا كان حديثنا عن مجمل حياته مختصرا منذ البداية لأنه ليس هدفنا وإنما تتطلبه منهجية البحث ، ولهذا أيضا فإننا لن نتكلم عن تفكيره العقدي هنا لأننا سنخصص له مساحة وافرة ، بل إن ما تبقى من البحث كله في هذا المجال ، أما فيما يخص الجوانب الأخرى التي سنتكلم فيها فهي :

1 / تفكيره السّياسي.

يمكننا أن نلحظ بسهولة الحضور الكثيف للسياسة في فكر رشيد رضا ، رغم أنه لم يكن رجل سياسة ، أي لم يتقلد مناصب سياسية ، وبرجوعنا إلى تقسيم المراحل التي ذكرناها من قبل فإن بروز السياسة كمحور كبير في فكره لم يكن إلا في المرحلة الثالثة من حياته الفكرية، حيث خلف فيها أستاذه عبده ، ومع أنّ هذا الأخير لم يكن يريد الاهتمام بالسياسة و لم يحبذ حتى الخوض فيها ، وكان هذا أحد الشروط التي اشترطها على تلميذه رشيد رضا ، إلا أن رشيد رضا لم يلتزم به ، فقد كتب بعض المقالات في إصلاح الدولة العثمانية ، ويبدو أنه كان مقتنعا بضرورة الإصلاح السياسي لا سيما وأن هذا كان نهج معلمه الأول – كما يلقّبه- السّيد جمال الدين الأفغاني ، وقد كان رشيد رضا مدركا لهذا إذ يقول وهو يقارن بين أستاذيه :"السّيد جمال الدين رجل دين وإن غلبت عليه السياسة ، والشيخ محمد عبده رجل سياسة وإن غلب عليه الدّين،بل هو أقرب من أستاذه إلى الموقف الوسط بين رجال الدين والدنيا المرتقين فيها"[1]،وما يلفت الانتباه هنا هو أن هناك أوجه التقاء كثيرة بين منهج الإصلاح السياسي لرشيد رضا بمنهج الأفغاني، بل إن هناك بعضا من مشاريع الأفغاني التي لم يستطع تحقيقها في حياته ، حاول رشيد رضا إكمالها وتحقيقها ، وسنبرزها ونشير إليها ، ونحن نتحدث عن فكره السّياسي فقط دون عمله

[1] - رشيد رضا ، مجلة المنار ، مج 32 ، ج1 ، ص 55

ومساعيه ، التي نعدها داخلة ضمن المنهج الإصلاحي الذي سنراه لا حقا ، فما هو الإطار العـــام لفكر رشيد السّياسي؟

لقد كان جل تفكير رشيد رضا السياسي منصبا على قضيتين هما : إصلاح الحكم العثماني ، وتأسيس دولة عربية ، فالنسبة للأولى ، فلقد شاءت الأقدار أن يشهد رشيد رضا آخر أيام الدولة العثمانية التي كانت تمثل دار الخلافة الإسلامية ، وملتقى آمـــال المسلمين ، والسبيل الوحيد الذي يجمعهم ، مع تزايد أطماع الدول الأوربية في الإستلاء عليها ، وعلى الأقطار التابعـــة لهـــا ، و لم يستطع رشيد رضا الذي يدرك هذا تمام الإدراك ، أن يبقى صامتا على الوضع السياسي المتـــردي الذي آلت إليه الدولة العثمانية ، فقد كانت له جهود إصلاحية عديدة سنبرزها باختصار.

أ / سعيه لتحقيق الجامعة الإسلامية .

يعد مشروع الجامعة الإسلامية الذي سعى رشيد رضا لتحقيقه من أهم المشاريع التي ورثها عن أستاذه جمـــال الدين الأفغـــاني الذي سعى بدوره لتحقيقها أيام السلطان عبد الحميد الثاني ، وتعني الجامعة الإسلامية في مفهوم الأفغاني :"إيجـــاد رابطة اجتماعية سياسية بين كافة أهل الشرق تتجاوز معطيات اللغة والجنس والوطن الضيّق ، وتقوم أساسا على عصبية العقيدة الإسلامية."[1] ويذهب عدد من الباحثين على غرار أنور الجندي إلى القول إن أساسها لا ديني وأنها تعني :"تجمع المسلمين في جبهة واحدة لمواجهة النفوذ الاستعماري الزاحف"[2] وقد كانت دعوة جمال الـــدين الأفغاني للجامعة الإسلامية تقوم على ثلاثة أهداف : أولها السّعي لبناء دولة إسلامية نموذجيـــة في كبرى الدول الإسلامية التي لم تكن خضعت بعد للاستعمار في ذلك الوقت ، وثانيها حشد وتعبئة المسلمين ضد الاستعمـــار الغربي ، وثالثها دعوة الدول الإسلامية المستقلة إلى الاتحـــاد لحمايـــة استقلالها والمساعدة في تحرير البلاد الإسلامية المستعمرة.[3]

لكنّ لم تتحقق أيٌّ من هذه الأهداف ، وبالتّالي فشل مشروع الأفغاني في تحقيـــق الجامعـــة الإسلامية بسبب الوضع السّياسي المتردّي الذي كان سائدا آنذاك ، وعدم ثقة الحكـــام بجمـــال الدين الأفغاني ، وخوفهم منه ، خصوصا عبد الحميد الثاني الذي كان أوّل الأمـــر مـــن أكـــبر المتشجعين لهذا المشروع [4]، الذي كان في صالحه ، ولكن الدسائس والوشايات أفضت في آخـــر

---

[1] - المراكشي ، تفكير رشيد رضا ، ص 115.
[2] - أنور الجندي ، الموسوعة العربية الإسلامية ، ط، ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، 1979،ج،،ص 175.
[3] - أحمد علي سالم ، (الإصلاح السياسي عند الشيخ رشيد رضا ، بين بناء دولة نموذجية وإقامة جامعة إسلامية) ، مجلة الكلمة ،ع24، ص 57.
[4] - علي محمد الصلابي ، الدولة العثمانية ، عوامل النهوض وأسباب السقوط ، ط، ، دار البيارق ، بيروت ، لبنان ، 1999 ، ص 659.

الأمر إلى النهاية المأساوية التي تلقاها الأفغاني على يد عبد الحميد الثـــاني ، بالإضافة إلى وقـــوف الدول الاستعمارية في وجـــهه ، وتفـــطنهم لخطر هذا المشروع عليهم وعلى مصالحهم.

وبالنسبة لرشيد رضا،فإن تعرفه على فكرة الجامعة الإسلامية، كان عن طريق العروة الوثقى [1]، وبعض المصلحين الذين تلقوا الفكرة من جمال الدين الأفغاني ، وأهمهم عبد الرحمن الكـــواكبي(*) ومع أن فكرة الجامعة الإسلامية فكرة أفغانية نظّر لها جمال الدين ، وحـــطّ لها أهـــدافها ، إلا أن رشيد رضا لم يأخذها كما هي ، حيث كانت هناك اختلافات جوهرية بينهما كما يشير إلى ذلك أحمد علي سالم[2] ، ولعل أهمها تلك التي تتعلق بالممثل الرسمي لهذا المشروع ، حيث لا يشـــترط الأفغاني لتحقيقها –الجامعة الإسلامية– الخضوع لخليفة واحد ، أو سلطة مركزية واحدة ، عكس رشيد رضا الذي كان يرى أن السلطان عبد الحميد هو الرجل المناسب لهذا المشروع ، وهذا مـــا جعله يؤيده ويدافع عنه بحماس في بداية الأمر ، وليس هذا فقط ، فلقد ذهب رشيد رضا إلى أبعد من هذا حيث كان يرى أن الدولة العثمانية هي الوحيدة المؤهلة للخلافة الإسلامية، ولا بـــد أن تبقى كذلك ، ولكن الذي كان يدور في الواقع عكس ما يتمناه ، وبذلك كان لمشروع رشـــيد رضا نفس مصير مشروع الأفغاني ، ليتنقل بعدها إلى مشروع آخر هو :

ب / الجامعة العثمانية :

ونبتدئ كلامنا عن الجامعة العثمانية من حيث انتهينا سابقا ، ذلك أن السّلطان عبد الحميد الذي كان رشيد رضا يدافع عنه ويرى أحقيته لتمثيل الجـــامعة الإسلامية ،بدأت تظهر منه مـــع مـــرور الوقت ملامح الاستبداد والانفراد بالحكم ، بالاعتماد على سياسة القمع والعنف وبـــث الجوسسة لا سيما في الأقاليم العربية ، كما سبق ورأينا ، فكانت هذه السياسة مدعـــاة تذمر كل المنضوين تحت حكـــمه وفي مقدمتهم الأتراك أنفسهم ، الذين كوّنوا جمعية سرية عملـــت علـــى الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني وسميت جمعية الاتحاد والترقي (1902م) ، وبالنسبة لرشـــيد رضا فإن موقفه من عبد الحميد الثاني قد تغير من مساند إلى معارض ناقم ، وقـــد تجلـــت هـــذه المعارضة في انظمامه إلى جمعية الشورى العثمانية (1898م) وقد كـــان في الحقيقة من مؤسسيها ، وهدفها الرئيسي " العمل بشكل غير علني على تقويض حكم السلطان عبد الحميد".[3]

---

[1] ـ أحمد علي سالم ، مرجع سابق ص 62.

*ـ عبد الرحمن بن أحمد مسعود الكواكبي (1849 – 1902 م) من الكتاب الأدباء ومن رجال الإصلاح الإسلامي ، ولد وتعلم في حلب ، ونشأ فيها جريدة الشهباء والاعتدال ، وصادرتهما الحكومة العثمانية ، وأسندت إليه مناصب عديدة ، ثم حنق عليه أعداء الإصلاح ، فسجنوه ، وخسر جميع ماله ، فرحل إلى مصر وساح سياحتين عظيمتين في بلاد العرب وشرقي إفريقية والهند ، واستقر في القاهرة ، إلى أن توفي من كتبه أم القـــرى ، وطبائع الاستبداد أنظر : الزركلي ، الأعلام ، ج3 ، ص 298

[2] ـ احمد علي سالم ، مرجع سابق، ص 65.

[3] ـ سمير أبو حمدان ، رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل ، ص 44.

وقد نجح أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في الإطاحة بالسّلطان عبد الحميد ، وتكوين حكومة جديدة يرأسها "حقّي كامل باشا" وقد كان هذا النجاح بالنسبة لرشيد رضا نصرا كبيرا ، خصوصا وأن أعضاء الجمعية نخبة من المثقفين المتفتحين ، يرجى فيهم أمل الإصلاح ، فبدأ رشيد رضا بالسعي لتحقيق الجامعة العثمانية ، فما هي هذه الجامعة العثمانية يا ترى ، وفيما تختلف عن سابقتها ؟

تعني الجامعة العثمانية في فكر رشيد رضا :" أن تصبح الدولة العثمانية وطنا لجميع الشعوب المنضوية تحت لوائها ، بغض النظر عن أعراقها ودينها ، ومن ثمّ يصبح لدى رعاياها هوية وطنية عثمانية لا تتعلق بشخص حاكمها ، وأن تتمتع جميع شعوبها بحقوق وواجبات متساوية"[1]، وبمفهوم آخر فإن رشيد رضا كان يسعى من وراء هذا المشروع أن تصبح الشعوب غير العثمانية ، والتي تخضع لسلطتها متمتعة بحق المواطنة، لا أن تبقى مجرد رعايا ليس لها أدنى حق في التدخل في سياسة الدولة العثمانية ، ويتفق جل الباحثين هنا على غرار المراكشي وكوثراني وعلي سالم على أن هدف رشيد رضا من هذا كله هو محاولة التقريب بين العنصرين ، التركي والعربي وزرع الوفاق بينهما ، وأن لا أحد يمكنه الاستغناء عن الآخر ،وقد كانت رحلته إلى القسطنطينية تصب في هذا القالب .

وقد لقي هذا المشروع المصير نفسه الذي لقيه المشروع الأول ، وذلك لسبب رئيسي يعود إلى أعضاء الاتحاد والترقي الذين بدأت حقيقتهم تتجلى بالتعصب القومي لجنسهم الطوراني ، فحصلت بذلك خيبة أمل كبيرة لدى رشيد رضا الذي انقلب يهاجمهم وينعتهم بالملحدين بعد أن كان يمتدحهم ويثني عليهم ، وأكثر من هذا ، فقد أصبح ينادي بفكرة اللامركزية بعد أن انظم إلى جمعيتها المسماة " حزب اللامركزية العثماني "(1912م) والذي يطالب بنوع من الاستقلال الداخلي للأقاليم التابعة للدولة العثمانية ، قصد اهتمامها بشؤونها بنفسها ، بعد أن ظهر تهاون الاتحاديين مع بقاء التبعية السياسية والولاء للدولة العلية ، وقد كان هذا المطلب أشبه بالحكم الفدرالي الذي تقوم عليه الولايات المتحدة الأمريكية.[2]

لكن لا شيء من هذا تحقق، بل الذي تحقق كان أسوأ في نظر رشيد رضا ، حيث تطورت الأوضاع السياسية بسرعة كبيرة بانهزام الاتحاديين في الحرب العالمية الأولى ، وأعقب ذلك إعلان

---

[1] - أحمد علي سالم ، رشيد رضا والإصلاح السياسي ، ص 71.
[2] - المراكشي ، تفكير رشيد رضا ، ص 132.

سقوط الخلافة الإسلامية على يد مصطفى كمال أتاتورك(*)،وبعدها وقوع الدول العربية تحت سيطرة الاستعمار الأوربي ، هذه المظاهر والتغيرات الجديدة دفعت رشيد رضا إلى تبني مشروع جديد هو:

ج / الجامعة العربية .

لم يكن سعي رشيد رضا المكثف لتحقيق المشروعين السابقين المرتكزين أساسا على الدولة العثمانية، حبا فيها ولا في العثمانيين أنفسهم ، بل كانت رؤيته في هذا منطلقة من كون الدولة العثمانية الوحيدة من بين الدول الإسلامية التي تملك من المؤهلات التي تجعلها قادرة على تمثيل ذنك المشروعان ، وأنها ما زالت تحافظ على أهم مقوم روحي معنوي للمسلمين ، وهو الخلافة الإسلامية ، رغم أن هذه الأخيرة غدت شكلا صوريا وغطاء يستتر به الحكام العثمانيون لبسط نفوذهم وسيطرتهم على باقي الأقاليم ، ومن جهة أخرى أكثر أهمية فإن مشروعا الجامعة الإسلامية والجامعة العثمانية اللذان اهتم بهما رشيد رضا ، كانا عبارة عن محاولة جادة لإنقاذ منصب الخلافة الإسلامية نفسه ، والإطالة من عمره ، أمام الضعف المتزايد الذي تعاني منه الدول الإسلامية.

لكن إقدام كمال أتاتورك بعد الحرب العالمية الأولى على إلغاء الخلافة الإسلامية (مارس 1924م) كان له وقع الكارثة التي لم يكن ينتظرها كثير من المسلمين ، وفي مقدمتهم محمد رشيد رضا ، الذي تحول من مؤيد له أول الأمر ، إلى ناقم وساخط عليه إلى درجة أنه كفّره ، ووصفه بالملحد[1] ، ولا شك أن إلغاء الخلافة الإسلامية كان صدمة كبيرة لرشيد رضا الذي كان قبلها قد ألّف كتاب الخلافة أو الإمامة العظمى (1923م) والذي قدم فيه برنامجا عمليا لإحياء الخلافة ، وكان بحق يمثل تنظيرا جديدا في هذا الميدان.[2]

وبالنسبة لمشروع "الجامعة العربية" الذي نود الحديث عنه ، فإنه زمنيا كان سابقا لقرار إلغاء الخلافة الإسلامية، وبتعبير آخر ، فبينما كان الاتحاديون يسعون لإلغاء الخلافة الإسلامية ، كان رشيد رضا من جهته يسعى لإقامة جامعة عربية ، وسبب سعيه في هذا المشروع هو سياسي محض يدفعه ذلك الشعور بعدم قدرة الاتحاديين على الدّفاع عن الأقاليم التابعة لها خصوصا العربية منها ،

---

* - أتاتورك مصطفى كمال (1881-1938م) مؤسس تركيا الحديثة ، ولد في سالونيك ، قاد حركة المقاومة العسكرية والسياسية ضد معاهدة سيفر 1902 م والتي تضمنت بنودا سلخت بموجبها تركيا أراض واسعة،ووضعت قيودا شديدة على سيادتها،وتمكن مصطفى كمال من طرد القوات اليونانية من الأراضي التركية التي كانت قد احتلتها في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، كما ألغى الخلافة العثمانية ، وأصبح رئيسا لجمهورية تركيا، أسس حزب تركيا الفتاه ، وأدخل الحروف اللاتينية في اللغة التركية ، لقب بأتاتورك أي أبو الأتراك ، أنظر الكيلاني وآخرون ، الموسوعة السياسية، ج1 ص 27.

1- المراكشي ، تفكير رشيد رضا ، ص 132.

2- المرجع نفسه ، ص 139.

خاصة وأن المرحلة كانت مرحلة حرب عالمية أولى (1914 – 1919م) والأتراك كانوا طرفا فيها ، فكانت هزيمتهم تعني دخول الحلفاء (فرنسا وبريطانيا) واحتلالهم الولايات العربية لتبعتها للعثمانيين – وهو ما تم – وأما انتصارهم فكان يعني خضوعها لألمانيا المتحالفة مع الأتراك[1] ، وكانت أولى خطوات رشيد رضا في هذا الميدان هو تأسيسه لجمعية إسلامية سرية سميت : "جمعية الجامعة العربية" (1912م) ضمّت معظم أمراء الجزيرة العربية ، وكان هدف رشيد رضا الرئيسي منها هو حثهم على إقامة تحالف عسكري فيما بينهم للدفاع عن جزيرتهم العربية.[2]

وثاني خطوة قام بها رشيد رضا للتحقيق مشروع الجامعة العربية ، كان تأييده لثورة الشريف حسين، والي مكة ضد الحكومة العثمانية (1916م) وقد علّق رشيد رضا على هذه الثورة آمالا كبيرة ، وكان يرى فيها نجاة الحجاز من الاحتلال والقمع ، وأملا في إقامة دولة عربية إسلامية ، تحل محل الدولة العثمانية ، وتحمل راية الخلافة خصوصا وأنها قريبة من المركز الرّوحي للمسلمين " مكّة والمدينة " فكان أن حجّ رشيد رضا إلى مكة والتقى بالشريف حسين وألقى بين يديه خطبة سياسية دعا فيها المسلمين إلى دعم الثورة وقائدها .

وقد لقي هذا المشروع بدوره ما لقيه المشروعان السّابقان ، لأسباب عديدة ، لعل أهمها يعود إلى انقلاب الشريف حسين نفسه على مشروع رشيد رضا ، وذلك باستعانته ببريطانيا التي دخلت الأراضي العربية إثر معاهدة معه ، وكذلك صراعه فيما بعد مع الملك عبد العزيز بن سعود ، الذي انتهى بانتصار الأخير عليه ، وإعلان المملكة العربية السّعودية ، ورغم تأييد رشيد رضا لعبد العزيز وتخليه عن الشّريف حسين إلا أن مشروع الجامعة العربية كان قد مات ، وبذلك لم يشهد تحقيق أيٍّ مشروع من مشاريعه ، بل كان الفشل هو مصيرها المحتوم.

وما نشير إليه في نهاية حديثنا هنا أن الباحثين يهتمون كثيرا بتقلّبات رشيد رضا السياسية ، وتسرعه في إبداء الآراء ، ويصفونها بأوصاف مختلفة ، ويبّررونها كذلك بتبريرات مختلفة ،و أدقّ تبرير لها في نظرنا هو قول وجيه كوثراني الذي ذهب إلى أنها:" مواقف ارتبطت بمعاناة مثقف مسلم تمثل دور الفقيه الرّسمي في التاريخ الإسلامي ، وبحث عن الصيغة المناسبة لمشروع دولة إسلامية بديلة في مرحلة تاريخية انتقالية اتّسمت بانهيار الدّولة العثمانية ، وقيام الدّول المحلية التابعة للغرب والخاضعة لسيطرة الإمبريالية". [3]

---

[1]- أحمد علي سالم ، الإصلاح السياسي عند رشيد رضا ، ص 74.
[2]- الشوابكة ، رشيد رضا ودوره ، ص 251.
[3]- وجيه كوثراني ، مختارات سياسية من مجلة المنار ، ط١ ، دار الطليعة ، بيروت ، لبنان ، 1980 ، ص 60.

2 / تفكيره الاجتماعي و التربوي.

. يعد هذان الجانبان – الاجتماعي والتربوي- الجانبان الأكثر حضورا في فكر رشيد رضا ، بعد الجانب السّياسي ، لذا فإننا سنتوقف في الحديث عندهما لأن باقي الجوانب الأخرى – الثقافية والأدبية والاقتصادية- لا تبلغ حجم الجوانب الثلاثة الأولى ، من حيث الإنتاج الفكري أو التنظيري.

أ / تفكيره الاجتماعي .

لقد حاول رشيد رضا منذ بداية حياته الإصلاحية التركيز على إصلاح المجتمع ، لذا فقد كان يسعى دوما لأن يكون منهم يحثهم ويعظهم ... ولعل الفترة الإصلاحية التي قضاها في طرابلس ، كانت أكثر تجسيدا لهذا النهج من باقي الفترات الأخرى ، حيث كان التعامل مع المجتمع يتم مباشرة ، وهذا طبعا لتوفر عامل مهمّ في هذا الوضع وهو محدودية البيئة التي كان يحيى فيها رشيد رضا وصغرها ، لكن هذه النظرة تغيرت فيما بعد بتأثير مقالات العروة الوثقى التي كانت بدورها تعمل في هذا الخط وبرؤية أكثر دقّة وأوسع مجالا من رؤية رشيد رضا الصوفية ، والذي لم يتردد في تبني هذه النظرة الجديدة لطريقة إصلاح المجتمع .

فلقد كانت نظرة العروة الوثقى تتجسد في دعوة المسلمين إلى اكتشاف السّنن التي تتحكم في رقيّ المجتمعات ودنوّها ، وهي سنن تشترك فيها كل المجتمعات ، بدون استثناء ، وإذا كان الغربيون قد توصّلوا إلى معرفة هذه السّنن عن طريق العلم ، فإن المسلمين مطالبون باكتشافها من القرآن أولا،الذي بين لهم بعض هذه السنن ولكنهم غفلوا عنها ، تقول العروة الوثقى :" أرشدنا سبحانه في محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عزّ عرشها ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود إلا بعد نكوبها عن تلك السّنن التي سنّها الله على أساس الحكمة البالغة ، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ، ورفاهية وخفض عيش وأمن وراحة ، حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم، من نور العقل وصحة الفكر ، وإشراق البصيرة ، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السّابقة، والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحلّ بهم الدمار"[1]، هذه النظرة القرآنية الجديدة نجد لها مكانا واسعا في فكر رشيد رضا ، الذي ما فتئ يدعو المسلمين إلى معرفة سنن الله في الأنفس والمجتمعات ، ويبين – خصوصا في تفسيره- أن القرآن إلى جانب دعوته لاكتشاف هذه السنن ، فإنه أعطى نماذج عديدة لها، ويتعجب كيف عجز المسلمون عن معرفة هذه السنن

[1]- جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده ، العروة الوثقى ، ص 173.

المبثوثة في القرآن والانتفاع بها ، في حين استطاع غير المسلمين معرفتها والأخذ بها ، والحال أنهم لا يملكون القرآن ، يقول رشيد رضا :" أما لو أنهم فعلوا – المسلمين- فبدءوا بالسّير في الأرض لمعرفة أحوال الأمم البائدة ، وأسباب هلاكها ، ثم اعتبروا بحال الأمم القائمة ، وبحثوا عن أسباب عزها وثباتها، لعلموا أنهم أمسوا من أجهل الناس بسنن الله ، وأبعدهم عن معرفة أحوال خلق الله، ولرأوا أن غيرهم أكثر منهم سيرا في الأرض ، وأشد منهم استنباطا لسنن الاجتماع ، وأعرق منهم في الاعتبار بما أصاب الأولين والاتعاظ بجهل المعاصرين ، فهل يليق بمن هذا كتابهم ، بأن يكون من يسمّونه بسمة العداوة له أقرب إلى هدايته منهم".[1]

وهناك قضية أخرى شغلت تفكير محمد رشد رضا الاجتماعي ، وإن كانت في أصلها قضية آنية ، ويتعلق الأمر بقضية تحرير المرأة ، حيث إنه قد شارك في النّقاش الحادّ الذي دار حول هذه المسألة التي أثارها في بداية الأمر قاسم أمين(*)، من خلال كتابيه " تحرير المرأة" (1899م) و "المرأة الجديدة" (1900م) ، وقد كان موقف رشيد رضا من هذين الكتابين متباينا كتباين الكتابين في طرح موضوع المرأة ، ففي البداية اتخذ موقف الرّاضي والمرحب بأفكار كتاب " تحرير المرأة" الذي كان يدعو فيه أمين إلى تحرير المرأة خصوصا من ذهنية التخلف التي تماشت والنظرة السلبية إليها، وقد كانت هذه الدعوة تسير في نفس الخط الذي كان يسير فيه رشيد رضا في عمله الإصلاحي ، لذلك فقد تجسد قبوله لهذا الكتاب بمدحه في المنار وعرض أفكاره، والتعليق عليها، ويرى المراكشي[2] أن رشيد رضا ما اتخذ هذا الموقف إلا بعد تأكده أن الأفكار الموجودة في تحرير المرأة لم تكن إلا أفكار أستاذه – وأستاذ قاسم أمين أيضا- محمد عبده ، إذ جاء كتاب " المرأة الجديدة" الذي كُتِب سنة واحدة بعد الكتاب الأول بأفكار أكثر جرأة مما كانت عليه في السّابق ، وقد كان موقف رشيد رضا هذه المرة معاكسا لموقفه السّابق بالرّغم من ثنائه المحدود على الجهد الذي بذله أمين في هذا المجال ، فلم يكن رشيد رضا إذن موافقا على بعض الأفكار المطروحة، خصوصا دعوة قاسم أمين إلى تربية المرأة على نفس نمط التربية الأوربية ، مما يعني صرف النظر كليًّا على التربية الدينية التي يعدها رشيد رضا الدعامة الأكثر أهمية ولزوما[3].

---

[1]- محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج4، ص 144.

* قاسم بن محمد أمين المصري (1863 – 1908م) كاتب باحث اشتهر بمناصرته للمرأة ودفاعه عن حريتها ، كردي الأصل ، ولد ببلدة طرة بمصر ، وانتقل مع أبيه الضابط أمير آلاي محمد بك أمين إلى الإسكندرية ، فنشأ وتعلم بها ، ثم بالقاهرة ، وأكمل دراسة الحقوق في مونيولييه بفرنسا، وعاد إلى مصر سنة 1885م فكان وكيلا للنائب العمومي بالمحكمة المختلطة ، فمستشارا بمحكمة الاستئناف ، وتوفي بالقاهرة ، من كتبه : تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ، وكلمات قاسم أمين ، أنظر الزركلي، الأعلام ، ج5، ص 184.

[2] - المراكشي ، تفكير رشيد رضا ، ص 242.

[3] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

ب / تفكيره التربوي والتعليمي .

. يمكننا العثور على مادة وفيرة في مظان رشيد رضا فيما يخص مجال التربية والتعليم ، تدل على اهتمامه الكبير بهذا المجال ، فحسب أنور الجندي فإن مجيء رشيد رضا إلى مصر كان دافعا لـــبروز الاتجاه التربوي الذي أصبح منطلق الإصلاح الإسلامي[1] ، وذلك عن طريق المنار: "التي تعد المجلة الإسلامية التي عنيت بهذه الوجهة ، وكانت المجلات الإسلامية من قبل قاصرة على تفسير القـــرآن وشرح الأحاديث النبوية".[2] ، وقد زاد تشجيع رشيد رضا على المضي قدما في هذا النهج أستاذه الإمام محمد عبده ، الذي كان مذهبه الإصلاحي يعطي الأولوية للمجال التربـــوي علـــى ســـائر المجالات خصوصا السياسي ، ومن دون أن ننسى كذلك العامل الأكثر أهمية ، وهو بروز دعوات المثقفين إلى تربية النشء وتعليمه وفق المناهج الحديثة التي توصل إليها الغرب ، وهذا مـــا عارضـــه رشيد رضا معارضة شديدة من خلال المنار ، وهو ما سنقف عليه لاحقا لنبتدئ بمعرفة معنى التربية عنده ، فقد عرفها بأنها :" القيام بشؤون الطفل الصغير حتى يميز ويقدر على العمل وإرشـــاده إلى وجه الصواب في العمل حتى يتم له رشده ويكمل له عقله ، وهذا لا يحصل إلا بالعلم النافع".[3]

وواضح من هذا التعريف أن رشيد رضا يركز على مرحـــلة الطفولة ، حيث يكـــون الطفـــل مستعدا لتقبل الأفكار وتجسيدها ، وبالتـــالي فلا بد من تربية الطفل تربية تشمل جمـــيع النواحي الجسدية والنفسية والعقلية[4] ، لينشأ بشخصية متوازنة مؤهّلة للقيام بالوظائف المتعددة التي تقوي الأمة وترقيها بين سائر الأمم ، وهي الغاية التي ينشدها رشيد رضا ، وتبقى النقطة الأكثر أهمية في فكره التربوي ، هي تلك المتعلقة بالفتيات وطريقة تربيتهن ، فهو في البداية :"يحرص كل الحـــرص على الإشـــارة دائما إلى أن طبيعة كل من الذكـــر والأنثى تقتضي تربية خاصة، لاختلافهمـــا في المواهب والغـــرض المخـــلوقين من أجله ، وأن يجري تربية شطري النوع الإنساني منعزلين".[5]

وتبعا لهذا فهو يرى أنّ أحسن تربية للمرأة هي تلك التي تقوم على حفظ آداب دينها ولغتـــه وتاريخ وطنها ، وكل المعارف اللازمة للحياة المترلية[6] ، التي يركّز عليها رشيد رضا باعتبـــار أن المترل هو المكان الطبيعي لها ، حيث تهتم بتدبير شؤونه وتربية الأولاد ، في حين يرى أن خـــروج

1- أنور الجندي ، من أعلام التربية العربية الإسلامية ، دط ، مكتبة التربية العربية لدول الخليج ، د ت ، ج4، ص 336.
2 - المرجع نفسه ، ص 338.
3- المراكشي ، مرجع سابق ،ص 401.
4- المرجع نفسه ، ص 403.
5- الجندي ، مرجع سابق ، ص 344.
6- رشيد رضا ، مجلة المنار ، مج 15 ، ج8 ، ص 573.

المرأة للعمل ليس ضروريا بل هو من الكماليات التي تعود على المرأة بالكثير من المساوئ والأخطار.[1]

ويحاول رشيد رضا أن يعطي برنامجا عمليا لطريقة تربية البنات فيقول :"إن أفضل طريقة لتربية البنات هي أن يرين قبل البلوغ كل شيء تصحّ مشاهدته ، بمعنى أن البنت في سنّ العاشرة والثانية عشر يجب أن يريها والدها الصور المتحركة والتمثيل والألعاب المختلفة والحوانيت الكبيرة والمتنّزهات والآثار ، حتى تلمّ بقدر الإمكان بكل شيء حسن أو محبب ، فتستنير من جهة ولا تظلّ بلهاء ، وحتى تكون امتلأت نفسها من الصغر ، فلا تجد فيها فراغا فيما بعد لطلب المزيد من المشاهدات".[2]

ولما كانت التربية تقترن دائما بالتعليم ، كان من الضروري على رشيد رضاوهو يدّعي الإصلاح أن يدلي بدلوه في هذا الموضوع وهو ما فعله ، فقد لاحظ أن الأوربيين أو الإفرنج كما يسميهم ، لم يمتلكوا زمام الحضارة إلا بعد أن أخذوا بأهم أسبابها ألا وهو العلم ، وفي المقابل رأى ما تعانيه الأمة الإسلامية من أميّة وجهل كانا أهم سبب للتخلف والانحطاط ، فكان أول ما دعا إليه ، أن يعمّم التعليم ، وذلك بزيادة عدد المدارس الموجودة آنذاك سواء التقليدية أو العصرية ، فدعا دعوة ملحة إلى إصلاح هذه المدارس وإصلاح مناهجها التعليمية ، فبالنسبة للمدارس الدينية التي يغلب عليها التعليم الديني ، كان الأزهر المؤسّسة التي اهتم بها رشيد رضا أيما اهتمام، وهو في هذا قد اتبع خطى أستاذه محمد عبده الذي يحكي عنه قوله :"يستحيل بقاء الأزهر على حاله فإما أن يصلح وإما أن يسقط "[3] ، وقد كانت دعوة رشيد رضا لإصلاح الأزهر تركز على :

1-إصلاح مشايخ الأزهر : الذين كان يراهم أشد الناس تعصبا وجمودا لمذاهبهم الفقهية والعقدية، ورفضهم لكل تجديد نافع يعود عليهم وعلى أزهرهم بالخير ، وقد كان رشيد رضا دائما شديد اللهجة عليهم ، ولنأخذ مثلا عن ذلك قوله:" لولا أن اليأس من روح الله مقصور على القوم الكافرين ، لقلنا كيف يرجى إصلاح حال أمة يعتقد علماؤها ، أن الإصلاح محال ، وأن العلوم العصرية حتى الحساب والتاريخ مضلة للأمة".[4]

2-إصلاح حال طلبة الأزهر : حيث اقترح أن يحصر طلاب الأزهر بنظام جديد يسهل معه متابعة أحوال الطلبة وتفقد شؤونهم ، يجعل فيهم لكل مئة منهم نقيبا ، ولكل عشرة عريفا

---

[1]- رشيد رضا ، مصدر سابق ، مج 5 ، ج 23 ، ص 881.
[2]- أنور الجندي ، من أعلام التربية العربية الإسلامية ، ص 344.
[3]- محمد أحمد درنيقة،السيد محمد رشيد رضا إصلاحاته الاجتماعية والدينية،ط1،مؤسسة الرسالة،دار الإيمان،بيروت ، لبنان ، 1986 ، ص 123.
[4]- الشوابكة ، محمد رشيد رضا ودوره ، ص 112.

ليسهل معرفة سيرهم ، وأحوالهم عند مشايخ الأروقة ، ومجلس الإدارة ، بعدما كان الطلبة أحرارا في حضور الحلقات أو عدم الحضور ، لهذا فهو انتقد خلوّ أنظمة الأزهر من قوانين تنظم انتساب الطالب لمعاهده ، فليس هناك نظام ينص على المدة المحددة التي يجب أن يقضيها ، وكيفية توزيع المواد الدراسية في هذه المدة وكيفية عقد الامتحانات.[1]

3-إصلاح برامج التعليم : حيث إن العلوم الشّرعية ، وهي المواد الأساسية لهذه المعاهد يعتمد في تدريسها على حفظ المتون وما عليها من حواشي وتعليقات[2] ، وصرف النظر عن العلوم العصرية المختلفة التي تجعل من طالب الأزهر أشبه بالدرويش منه إلى طالب علم .

4-إصلاح أقسام الأزهر : وهي نقطة أخيرة لفتت انتباه رشيد رضا ، فالمباني المعدة لإلقاء الدروس لا تتوفر فيها الشروط الصحية اللازمة كما أن الطلبة يضطرون للجلوس متربعين طوال يومهم ، ولا يحول بينهم وبين الأرض سوى حصير بال ، هذا إلى جانب تجاور الحلقات العلمية ، واختلاط أصوات المدرسين بعضها مع بعض مما يحدث جوا من الفوضى تنعدم فيه الفائدة ويقل فيه التحصيل.[3]

أما بالنسبة للمدارس الحكومية العصرية ، فإن رشيد رضا لم ينكر ما تقدمه من مواد علمية صحيحة ، وضرورية لأهل العصر[4] ، لكن انتقاده كان موجها بالأساس للحجم القليل الذي تحظى به العلوم الإسلامية فيها، مع أنها هي الأساس التي ينبغي التركيز عليها حسبه ، أضف إلى ذلك الدور المحدود الذي أسند لمدرسيها بالمقارنة مع المواد الأخرى ، فقد خصصت مادة التربية الإسلامية بحصة واحدة طيلة البرنامج الأسبوعي ، وغالبا ما تعطى لغير أهلها ، في حين حرمت المدارس الفنية العالية من هذه الحصة ، ويرى رشيد رضا أن كل هذا مفتعل من الحكومة ، كي لا يرسخ في نفوس متخرجيها إمكانية الجمع بين العلوم العصرية والتربية الإسلامية[5]، وهو ما يؤدي إلى بروز نخبة مثقفة تجعل الدين آخر اهتماماتها ، وربما لا تهتم به إطلاقا.

هذه أهم المحاور الفكرية الكبرى التي اهتم بها رشيد رضا في حياته ، باعتباره عالما دينيا ومصلحا كذلك ، وقد ذكرنا هذه النماذج مختصرة لأن المقام يطول إذا أتينا عليها بتفاصيلها ، ويبقى علينا أخيرا بعدما عرفنا فكره ، أن نعرف منهجه في الفكر ، وكذا منهجه في الإصلاح ، فما هي حقيقة هذين المنهجين ؟

---

[1]- الشوابكة ، مرجع سابق ، ص 111.
[2]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها
[3]- المرجع نفسه ، ص 112.
[4]- المراكشي ، تفكير رشيد رضا ، ص424.
[5]- الشوابكة ، مرجع سابق ص 110.

ثانيا : منهجه في الفكر .

نرى أنه من الضروري لنا بعد أن عرفنا فكر رشيد رضا ، أن نعرف طريقة تفكيره ، والمبادئ التي اتخذها واعتمدها في هذا التفكير ، وهل كانت واحـــدة في كل مراحل حياته أم أنها اختلفت باختلاف انتماءاته الفكرية التي مررنا بها؟

نقول إنه من السهل جدا تحديد الأسس والمبـــادئ التي اتخذها رشـــيد رضا كمنـــهج لـــه في التفكير ، خصوصا وأنه كثيرا ما كان يتحدث عنـــها ، وهذه المبادئ في نظرنا هي :

1- الاجتهاد .

فكثيرا ما دعا رشيد رضا إلى إعادة الاعتبار لهذا المبدأ الذي به يتبين مدى استطاعة الـــدين الإسلامي مواكبة متغيرات الزمن وأحوال الناس ، فضلا عن كونه مطلبا شرعيا واجبا لمن امتلـــك وسائله ، وكان أهلا لهذا ، يقول رشيد رضا :" إن كان الله قد حضّ المـــؤمنين علـــى تعـــاطي الاجتهاد والتفكير فإن غاية ذلك هو اضطلاع الإنسان بشرف تقرير مصالحه الدنيوية"[1]،ويمكننا القول بيقين إن محمد رشيد رضا كان من أبرز المجتهدين في عصره ، وهو في هذا قد اتبع خطـــى أستاذيه جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، ويشير المراكشي إلى أن محمد رشيد رضـــا لم يكـــن مجتهدا إلا في جانب المعاملات الدنيوية فقط ، في حين يطرح ميدان العقيدة والعبـــادات جانبـــا مستشهدا بقول المستشرق الفرنسي جومياي أن العقيدة :"مساحة مقدسة وحرام لا يمكن إعمال الرأي فيها لأن حيزها سلطة الله مطلقا"[2] ، وهذا القول لا يمكن التسليم به دون مناقشة لأن مـــا سنتناوله فيما يأتي من البحث سيثبت عدم دقة هذا الكلام ، ويكفي أن نقول هنا إن من يطـــالع فتاوى رشيد رضا التي كان يناقشها في المنار- وقد جمعت في عدة مجلدات منفردة-[*] فســـيرى بوضوح اهتمامه بهذا الركن – الاجتهاد-والجدة في طرح المسائل الدينية المختلفة بما فيها مســـائل الاعتقاد ، ولما كان الاجتهاد من أهم مبادئ منهج رشيد رضا الفكري ، فإن مبدأه الثاني لا يقل أهمية عن الأول ، بل هو متمم له وهو:

2- رفض التعصب والتقليد .

يرى رشيد رضا أن أهم أسباب ضعف الإسلام وتدني المسلمين هو تحكم هاتين الآفتين فـــيهم منذ قرون عديدة ، وبالتحديد منذ عصر أبي حامد الغـــزالي ، ويرى كذلك أن الذين يتصـــفون

---

[1]- رشيد رضا ، تفسير المنار، ج3 ،ص 328.

[2]- محمد صالح المراكشي ، قراءات في الفكر العربي الحديث والمعاصر ، ط1 ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، د ت ، ص 68.

*- يراجع : صلاح الدين المنجد وآخرون ، فتاوى الإمام محمد رشيد رضا ، جمع وتحقيق ، ط1 ،دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، 1971.

بهاتين الصفتين في عصره هم أكثر علماء الأزهر ، الذين بلغ تعصبهم حدا بعيدا ، ومما يحكيه عنهم قوله :"...أقول ومما سمعه – الأستاذ الإمام- وهو العجب العجاب ، قول شيخ من أكبر الشيوخ سنًّا وشهرة في العلم ، في مجلس إدارة الأزهر على مسمع من الملأ العلماء ، من قال إنني أعمل بالكتاب والسّنة فهو زنديق ، يعني أنه لا يجوز العمل إلا بكتب الفقهاء ، فقال له الأستاذ رحمه الله :من قال إنني أعمل في ديني بغير الكتاب و السنة فهو الزنديق"[1] ، ولقد كان رشيد رضا في كثير من الحالات شديدا في نقده لشيوخ الأزهر ، وهو عكس ما كان عليه أستاذه محمد عبده ، الذي كان لينا بعض الشيء معهم ، ونتيجة لهذه الحملة العنيفة التي حملها رشيد رضا على الأزهريين ، لقي منهم عداء متبادلا ، وذلك بالسعي للتفريق بينه وبين شيخه أولا ، ثم بالسعي لإيقاف المنار ثانيا.

3- الاستقلال الفكري .

عبارة كثيرا ما رددها رشيد رضا في مقالاته وخطبه ، ويمكن لأيّ قارئ أن يفهم أن مقصوده من هذه العبارة ، إنما هو نفس مقصود العبارة السّابقة أي عدم الخضوع لأي مذهب فقهي أو عقدي والتعصب له ، ولكن رشيد رضا يذهب بهذا المبدأ إلى أبعد من ذلك ، فالاستقلال الفكري لا يعني اللامذهبية ، بقدر ما يعني التحرر الفكري ولو داخل المذهب وذلك لا يتم إلا بأمرين ، أولهما : اتباع الدليل الموثوق من صحته والاحتكام إليه بدل الاحتكام لأقوال الأئمة والفقهاء ، وثانيهما : هو احترام الرأي الآخر ولو كان خاطئا يقول رشيد رضا :"يجب علينا أن نحترم رأي من يخالفنا كما نحترم رأي من يوافقنا ، لأن الفلاح متوقف على ظهور الحقائق ، وظهورها يتوقف على استقلال الأفكار وحرية البحث والكتابة والخطابة، ولا يخاف على دينه من حرية البحث إلا من لا ثقة له بدينه،ومن كان واثقا بأنه على الحق ، فإنه يعلم أن مخالفته فيه لا تزيده إلا قوة وظهورا"[2]فهنا يظهر لنا أن رشيد رضا يدعو المسلمين الواثقين من إسلامهم إلى البحث بكل حرية من دون خوف مستشهدا في ذلك بقوله تعالى:﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [3] ويتساءل في هذا الصدد هل نحن نحترم استقلال الفكر وحرية القول والعمل؟ وهل قمنا بحق هذا الشرط الذي يتوقف عليه كل مقومات الحياة الاجتماعية

---

[1]- رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج4 ، ص49.
[2]- رشيد رضا ، مجلة المنار ، مج12 ، ج2 ، ص 113.
[3]- سورة الأنبياء، الآية 18.

والسياسية وأسبابها ؟ ليجيب بأن: " الأفكار لا تزال مضغوطة محجورا عليها أن تبرز من مضيق الدماغ إلى فضاء الوجود الخارجي والحرية الشخصية مهددة لا من الحكومة بل من أنفسنا".[1]

هذه النقاط التي رأيناها هي- في نظرنا- أهم مبادئ المنهج الفكري لرشيد رضا ، وليس هناك شك في أنها نفس المنطلقات والمبادئ التي اتخذها سلفه من قبل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وتبعا لهذا فإن اعتماد رشيد رضا على هذه المنطلقات أفرزت لديه فكرا يتميز بسمات أهمها:

- الاهتمام المتزايد بالنص الديني " القرآن والسنة " والاعتناء بهما .
- الاعتناء بالتراث الإسلامي بمختلف تشعباته ، والاستفادة منه قدر الإمكان.
- الاستعانة بمنتجات العلوم العصرية- الفكرية والنظرية-وتوظيفها في الفكر الإسلامي.

ثالثا : منهجه في الإصلاح .

لقد كان سعي رشيد رضا منصبا منذ وقت مبكر من حياته نحو الجهد الإصلاحي ، ولقد اكتسب في خلال تلك المدة الطويلة -حوالي 50 سنة- خبرة وتجربة كبيرتين ، جعلته يكون من أبرز زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى منهجه الإصلاحي ، والذي نود معرفته في هذه الأخيرة هو الوسائل التي اعتمدها رشيد رضا في هذا الإصلاح ، فما هي هذه الوسائل يا ترى؟ .

لقد كانت الوسائل التي اعتمدها رشيد رضا في عمله الإصلاحي على نوعين : نظرية فكرية ، وعملية تطبيقية .

1 – الوسائل النظرية :نقصد بالوسائل النظرية الإنتاج الفكري الذي كان رشيد رضا يمارس من خلاله الإصلاح ، والتي تمثلت بشكل عام في المؤلفات ، وأهمها :

أ- مجلة المنار: يقول رشيد رضا :" لئن كان الغرض الأوّل الباعث لي على الهجرة إلىمصر هو صحبة الأستاذ الإمام ، فقد اقترن به عند إجالة قداح الفكر فيه باعث آخر، وهو إنشاء صحيفة إصلاحية أستمد من حكمته واختباره فيما أكتبه فيها ، إذ آن لي أن أكون مفيدا كما أكون مستفيدا "[2] ، هذه المقولة تترجم لنا ما كانت تمثله مجلة المنار بالنسبة لرشيد رضا ، فبمجرد وصوله إلى مصر ، والتقائه بأستاذه عبده ، اقترح عليه إنشاء جريدة تهتم بالإصلاح الإسلامي، وقد تردد محمد عبده في قبول فكرة تلميذه بادئ الأمر، لكنه وافق عليها فيما بعد ، بشروط ثلاثة :" أن لا نتحيز لحزب من الأحزاب ، وألا نرد على جريدة من الجرائد التي تتعرض

---

[1]- رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص 113.
[2]- رشيد رضا ، تاريخ الإمام ، ج1، ص 1000.

لنا بذم وانتقاد ، وألا نخدم أفكار أحد من الكبراء "[1]،وبدأت الجريدة بالصدور فكان العدد الأول منها في 28شوال1315هـ/17مارس1898م[2]،ولم تتوقف إلا بعد وفاة رشيد رضا ،وكانت المنـــار طيلة هذه المدة هي المرجع الفكري والناطقة بلســـان حـــال المدرسة السلفية الإصلاحية والناشرة لمبادئها وتعاليمها ،لهذا فلا غرابة أن نجد لها تأثيرا بارزا في كل أقطار العـــالم الإســـلامي،والمغرب العربي على وجه الخصوص[3]،ومن دون أن ننسى أنها كانت الوريثة الحقيقية للعروة الوثقى ،وقد عقد أحمد علي سالم مقارنة بين العروة الوثقى والمنار فخلص إلى أنه:"بينما عبرت العروة الـــوثقى عن أفكار الأفغاني بكلمات عبده ،عبرت المنار في سنواتها الأولى عن أفكـــار عبـــده بكلمـــات رضا،وكما كان من المحتمل أن يغير عبده من وجهة العروة الوثقى نحو التركيز علـــى الإصـــلاح الديني والتربوي دون السياسي ، لو أنه واصل إصدار المجلة بعد فراق الأفغاني ...فإن رشيد رضـــا قد غير بالفعل من وجهة المنار بعد وفاة عبده لكي تصبح أكثر اهتماما بالإصلاح السّياسي".[4]

وجملة ما يمكن قوله في المنار أنها تعد مدرسة وموسوعة ، وهي أهم ما خلفه رشيد رضـــا في حياته الفكرية ، كما كانت أهم إنتاج فكري في تلك الفترة التي عاشها رشيد رضا ، وقد وصفها عبد الجليل عيسى بقوله :"فحقا إن السيد محمد رشيد رضا ، كان أمة ، ولعلك تدهش إذا علمت أن كل هذه الأشياء ومواضيع المنار ، من إخراج المنار بإتقان ، ومثابرة بضع وثلاثين عاما ، وغير ذلك مما تقدم من وضع رجل واحد ، فإنه عندما جاور ربه ، حاولت هيئات كـــبيرة وجماعـــات محترمة أن تخرج للناس مجلة تسد فراغ المنار ، فلم يستطع أحد منهم على كثرتهم".[5]

وتجدر الإشارة في الأخير أن المنار في عامها الأخير قد وجدت من يتبنى خطهـــا الإصـــلاحي ، ليس بشخصية فكرية كالمعتاد بل بجماعة إسلامية كبرى هي "جماعة الإخوان المسلمون" فقد قال رشيد رضا :"سيصبح المنار منذ هذا العام (1935م) لسان جماعة الدعوة إلى الإسلام ، وجمع كلمة المسلمين".[6]

ب / تفسير المنار .

يعد تفسير المنار ثاني أهم الأعمال التي تركها رشيد رضا بعد مجلة المنار ، حيث نجد أنه لاقى على غرار مجلة المنار قبولا واسعا لدى القارئ المسلم ، كما كان مرجعا مهمـــا لـــرواد النهضـــة الإسلامية شرقها وغربها ، فنجد مثلا محمود أبو رية يصفه بأنه معجزة العصر حين يقول :"وخلف

---

[1]- مصدر سابق ، ص 1003.
[2]- المراكشي،تفكير رشيد رضا،ص57.
[3]- أبو القاسم سعد الله ، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي الحديث،ط1،دار الغرب ،بيروت ،لبنان ،2001،ص106.
[4]- احمد علي سالم،الإصلاح السياسي عند الشيخ رشيد رضا ،ص61.
[5]- عبد الجليل عيسى :(محمد رشيد رضا) ، مجلة الرسالة ، القاهرة ، مصر، 1948، ع 899 ، مج 28، ج2، ص 1079
[6]- رشيد رضا ، مجلة المنار ، مج35، ج1، ص 3.

— رشيد رضا– آثارا خالدة في دراسة الدين، وفسر كتاب الله تفسيرا هو معجزته في هذا العصر ، إذ لكل عصر تفسير يكشف لأهله عمّا فيه من أسرار رائعة وآيات بينة ، حتى تظل حجة الله قائمة ومعجزة رسوله دائمة "[1] ، ويصفه أحمد حمّاني من جهته بأنه :" لم يأت تفسير قبله ولا بعده على مثاله ، وقد كان له الأثر الكبير في النهضة الإسلامية واليقظة الشرقية والحركة القومية السياسية ، المبنية على الدين الصحيح السليم من البدع والخرافات ، ومن الجحود والجمود"[2] ، والحاصل أن تفسير المنار كان تفسيرا إصلاحيا ، ووسيلة من أهم الوسائل التي اعتمد عليها رشيد رضا في عمله الإصلاحي ، ورغم أنه قد عدل عن منهج أستاذه في التفسير بعد أن استقل بتحريره بعد وفاته ، بأن أصبح يميل أكثر إلى الاتجاه السّلفي النصوصي[*] ، إلا أنه لم يفقد مكانته بالمرة حيث بقي مرجعا أساسيا في الفهم العصري للقرآن الكريم على الرغم من أن رشيد رضا لم يقدر له إكمال التفسير كله ، حيث توفي وهو لم ينه بعد تفسير سورة يوسف عليه السلام .

لقد عدّ معظم الباحثين الذين تناولوا رشيد رضا من جانب التفسير ، المنار بأنه نقلة نوعية في ميدانه ، سواء من ناحية الغرض الذي كان يتمثل في الإصلاح الإسلامي ، وهو ما عبر عنه رشيد رضا في مقدمة تفسيره بعد أن انتقد مناهج التفسير السّابقة :" والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين ، يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة ، فإن هذا هو المقصد الأعلى وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله "[3]، ويعلق زياد الدغامين على هذا القول :"وهذا تحديد منهجي واضح للغاية التي أنشئ التفسير من أجلها ، وتتمثل في تحقيق المقصد الأسنى للقرآن الكريم ".[4]

أو من ناحية المنهج ، حيث يذهب الدغامين دائما إلى أن رشيد رضا قد استقى منهجه هذا في التفسير من عند أستاذه جمال الدين الأفغاني[5] ، الذي كان منهجه في التفسير واضحا ومبثوثا في العروة الوثقى ، وفق المبادئ الثلاثة التي قررها وهي :

- بيان سنن الله في الخلق ونظام الإجتماع البشري ، وأسباب ترقي الأمم وتدليها ، وقوتها وضعفها .

---

[1]- محمود أبو رية ، (الشيخ محمد رشيد رضا ، بمناسبة مرور خمسة أعوام على وفاته) مجلة الرسالة ، ع 373،القاهرة ، مصر ، 1940 مج28، ص 1355.

[2]- دراجي محمد (ركائز الفكر السلفي عند الشيخ أحمد حماني) الجزائر ، جريدة البصائر ، جويلية 2003، ع 153، ص 09 ، العمود 2.

[*]- وقد بين رشيد رضا سبب ذلك ودوافعه ، راجع : تفسير المنار ، ج1 ص 11.

[3]- رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج1 ، ص 17.

[4]- زياد خليل محمد الدغامين (منهج التعامل مع القرآن الكريم في فكر الشيخ رشيد رضا) مجلة الشريعة ، الكويت ، عدد 50 ، السنة 17 ، سبتمبر2002، ص23.

[5]- زياد خليل محمد الدغامين (ملامح التجديد في فكر الأفغاني في التعامل مع القرآن الكريم وأثره في منهج التفسير في العصر الحديث) مجلة الشريعة ،ع46 ،سنة1 ، ديسمبر 2001،ص 55.

- بيان أن الإسلام دين سيادة وسلطان ، وجمع بين سعادة الدنيا والآخرة ...
- بيان أن المسلمين ليس لهم جنسية إلا دينهم[1]...

ومن هنا راح كل من الأفغاني ورشيد رضا يتحدثان عن مقاصد القرآن بشكل لم يسق إليه ، رغم أن رشيد رضا قد توسع في هذا الموضوع أكثر من أستاذه الذي لم يكن له تفسير مستقل يدوّن فيه هذه المنهجية الحديثة.

ويمكننا أن نتبين الأسس العامة التي اعتمد عليها رشيد رضا في تفسيره والتي يحددها محمد الزغلول في النقاط الآتية:"الوحدة الموضوعية ، تجلية الهداية القرآنية ، يسر العبادة وسهولة الأسلوب ، شمول القرآن وعمومه، الاهتمام باللغة وآدابها كوجه من وجوه الإعجاز ، القرآن هو المصدر الأول للتشريع مع بيانه لحكمة التشريع ، عدم تجاوز النص فيما ورد مبهما في القرآن ، حملته على البدع والخرافات ، والتحذير من الإسرائيليات ، ومحاربة التقليد ، وبيان سنن الله في الكون والإنسان والحياة ، والاعتماد على العقل وتحكيمه في فهم النصوص القرآنية.[2]

وجملة القول فقد كان تفسير المنار نموذجا حاول فيه صاحبه أن يبرز مدى استطاعة القرآن التأقلم مع المتغيرات الزمنية والمكانية ، وتوجيه الإنسان الوجهة الصحيحة التي تجعل منه نموذجا فاعلا في حياته بمختلف جوانبها .

وإلى جانب هذين المنارين –المجلة والتفسير–نجد أن باقي مؤلفات رشيد رضا الفكرية ، كانت كلها متجهة نحو هدف إصلاح المجتمع والأمة الإسلامية عموما ، كما هو الحال في كتب : الخلافة، نداء للجنس اللطيف ، السّنة والشيعة ، الربا والمعاملات في الإسلام ، الوحدة الإسلامية[3] ، وغيرها من مؤلفاته التي نؤكد أنها الوسيلة الأكثر أهمية للإصلاح عند رشيد رضا.

2 / الوسائل العملية .

ونقصد بالوسائل العملية ، المجالات التي كانت تعتمد على الحركية في ممارسة العمل الإصلاحي ، والتي كان رشيد رضا يتحرك من خلالها ، ونشير إلى أنها كانت على نوعين : إنشاء المدارس ، والجمعيات.

أ – المدارس : فلقد كان رشيد رضا كثير الاهتمام بفكرة إنشاء المدارس ، ذلك أن :" إنشاء المدارس خير من إنشاء المساجد ، لأن صلاة الجاهل في مسجد لا خير فيها ، ولكن فتح المدارس

---

[1]- رشيد رضا ، مصدر سابق ج1، ص11.
[2]- محمد الزغلول ، الخصائص المميزة لتفسير المنار ، مجلة للكلمة ، ص153.
[3]- يراجع ، المراكشي ، تفكير رشيد رضا ص 63 وما بعدها .

يقضي على الجهل ، فتؤدى الفرائض الدينية والأعمال الدنيوية على وجهها الصحيح "[1] ، وكان أكثر ما شجع رشيد رضا على هذا هو رؤيته لمدارس المبشرين التي كان يقصدها أثناء طلبه للعلم في طرابلس[2]، وما يحذوها من أثر ونتائج جليلة في خدمة الدين المسيحي ، ولذلك فإنه بمجرد ما تم الإعلان عن إعادة العمل بالدستور العثماني من قبل جماعة الاتحاد والترقي ، قام رشيد رضا بزيارة إلى عاصمة الخلافة الإسلامية بالأستانة ، من أجل هذا الغرض [3]، وهو إنشاء معهد ديني علمي في العاصمة ، وقد رد أسباب اختياره الأستانة عن غيرها بقوله:"من منافع المعهد الإسلامي ، تعزيز دولة الخلافة وتأييدها بجعل عاصمتها ينبوعا للإسلام ، وكعبة معنوية لطلاب علومه وآدابه ، ومنها تخريج علماء دين يقدرون على الدفاع على النحو الذي كان يدافع به الأستاذ الإمام مثل رينان وهانوتو... ومنها تخريج الدعاة إلى الخير والمرشدين للأمة الذين يقومون بما فرضه الله تعالى على المسلمين من الدعوة والإرشاد ".[4]

ولم يستطع رشيد رضا أن ينشئ هذه المدرسة المرجوة ، رغم أنه مكث هناك حولا كاملا ، يراجع أعضاء الحكومة في أمرها ، لكنّ تصدي بعض من لا يريد لهذا المشروع أن يتحقق[5] ، جعله يترك الأستانة ، ويعود إلى مصر ، أين استطاع – بعد جهد كذلك- إنشاء مدرسة سمّاها "دار الدعوة والإرشاد" ، والتي أشرف عليها شخصيا ، وعلّق عليها آمالا كبيرة :"إنها منتهى رجائي في خدمة الإسلام وغاية سعيي في إصلاح التربية والتعليم "[6]، وكان رشيد رضا يهدف من خلال المدرسة أن ينشئ دعاة ذووا كفاءة عالية ، حسب ما يلاحظ من البرنامج الذي وضعه[7] ، ثم توزيعهم على أرجاء العالم لنشر الدعوة إلى الإسلام ، والدفاع عنه [8] ، ولكن لم يُقدَّر لهذه المدرسة أن تعيش سوى ست سنوات ، بسبب ضيق الموارد المالية وذلك أثناء الحرب العالمية الأولى[9] ، لتتوقف آمال رشيد رضا عند هذا الحد.

ب / الجمعيّات.

يرى رشيد رضا أن للجمعيات فضل كبير ، ودور بارز في ترقية البشر في العلوم والأعمال الدينية والدنيوية[10] ،وكثيرا ما كان يستشهد على ذلك بالجمعيات الموجودة في أوربا ، ولذلك

---

[1]- رشيد رضا ، مجلة المنار ، مج6 ، ج6 ، ص 152.
[2]- الشوابكة ، محمد رشيد رضا ودوره ، ص19.
[3]- يوسف أبيش ، رحلات الإمام محمد رشيد رضا ، ص56.
[4]- المصدر نفسه ، ص 56.
[5]- محمد أحمد درنيقة ، السيد محمد رشيد رضا إصلاحاته الاجتماعية والدينية ، ص144.
[6]- الشوابكة ، مرجع سابق ، هامش ص 127.
[7]- رشيد رضا ، مصدر سابق ، مج14، ج11، ص800 وما بعدها .
[8]- محمد درنيقة ، مرجع سابق ، ص144.
[9]- المراكشي ، تفكير رشيد رضا ، ص43.
[10]- الشوابكة ، رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية ، ص225.

فقد كان حريصا في كل رحلاته على التنويه بضرورة إنشاء الجمعيات الخيرية والدينية على حد سواء ، وقد استطاع بالفعل إنشاء العديد منها ، خصوصا في رحلتيه السوريتين الأولى والثانية ، حيث أنشأ رفقة أهالي طرابلس الشّام جمعية خيرية إسلامية في 16 شوال 1326هـ (1909م) ، في رحلته السّورية الأولى ، كما سعى في رحلته السورية الثانية (1919م) إلى إحياء جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية.

لكننا نود الحديث على نوع مهم من أنواع الجمعيات التي أنشأها رشيد رضا أو انخرط فيها ، وهي الجمعيات السياسية ، فلقد نشط في هذا المجال نشاطا مكثفا علنا تارة وسرا تارة أخرى ، وسنورد نماذج ثلاثة لهذه الجمعيات التي سعى فيها رشيد رضا بكل ما أوتي من قوة فكر وخبرة لإصلاح الوضع السياسي المتردي في زمنه.

وأولى هذه الجمعيات هي "جمعية الشورى العثمانية" ، وقد تأسست في القاهرة سنة 1898م، وكان رشيد رضا هو رئيس مجلس إدارتها ، وقد كانت بداية عمل هذه الجمعية سرية ، كما كانت أهدافها متماشية مع مواقف رشيد رضا في سياسته من الدولة العثمانية في مرحلتها الأولى ، فكانت تدور حول نقد الحكم الفردي ، وإبراز مزايا الحكم الشوري والدعوة لإعلان الدستور ، وقد توقف نشاط هذه الجمعية بعد ذلك بسبب انخراط أغلب أعضائها في جمعية الاتحاد والترقي ، إثر الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني.[1]

وثاني هذه الجمعيات التي برز فيها نشاط رشيد رضا السّياسي هي الجمعية المعروفة "بحزب اللامركزية الإدارية العثماني" ، فقد تأسس هذا الحزب في القاهرة في سنة 1912م ، وكان رشيد رضا من أبرز الداعين له ، وعضوا في لجنته التنفيذية ، وقد كان عمل هذا الحزب علنيا عكس سابقه، وكانت ولادته في مرحلة تميزت بأوضاع سياسية مضطربة في الدولة العثمانية ، بسبب اجتياح إيطاليا لليبيا سنة 1911م ، وكذلك الحروب البلقانية التي فقدت فيها الدولة العثمانية معظم أراضيها في أوربا.[2]

وقد كان لهذا الحزب مطلب أساسي واحد ، وهو الاستقلال الداخلي للأقاليم التابعة للدولة العثمانية ، قصد اهتمامها بشؤونها بنفسها ، خاصة بعدما ظهر تهاون الاتحاديين مع بقاء التبعية السياسية والولاء للدولة العثمانية ، وقد كان هذا المطلب كما يقول المراكشي أشبه بالحكم الفدرالي الذي تقوم عليه الولايات المتحدة الأمريكية.[3]

---

[1]- الشوابكة مرجع سابق ، ص234.
[2]- المرجع نفسه ، ص236.
[3]- المراكشي ، تفكير رشيد رضا ، ص132.

وأما نموذجنا الثالث ، فيتمثل في جمعية "الجامعة العربية" ، وقد أنشأها محمد رشيد رضا بنفسه، ووضع أهدافها وحدد أساليبها بما يتفق مع أفكاره الإصلاحية[1] ، وقد أنشئت هذه الجمعية سنة 1912م، وبشكل سرّي للغاية نظرا لأوضاع الحرب العالمية الأولى التي كانت سائدة آنذاك ، ودخول الدولة العثمانية طرفا فيها .

ويبدو أن رشيد رضا أنشأ هذه الجمعية بدافع قلقه على مصير العرب من هذه الحرب ، وخوفه من تدخل الدول الأوربية المتنازعة لاحتلال الأراضي العربية — وهو ما كان - ومن جهة أخرى فقد حاول رشيد رضا من خلال هذه الجمعية استغلال فرصة انشغال الدولة العثمانية بالحرب ، لتحقيق ما كان يأمل به من إقامة دولة عربية سنية بقيادة ابن سعود ، لذلك فقد كان من أهم ما سعى إليه في هذه الجمعية إيجاد فرع عسكري سماه اللجنة العسكرية العربية ، جعل مهمتها الإشراف على إعداد وتنظيم قوة عسكرية تكون نواتها في الجزيرة العربية.[2]

لكن هزيمة الاتحاديين في الحرب ، واحتلال الحلفاء (فرنسا وبريطانيا) للأقاليم العربية حال دون تحقيق هذا المقصد.

إن هذه النماذج الثلاثة من الجمعيات التي رأيناها ، تدل على ما كان يتمتع به رشيد رضا من قدرة على الجمع بين الدعوة النظرية إلى الإسلام والسّعي الواقعي لتحقيقه ، وهي ميزة قلما نجدها عند كثير من المصلحين، لكن ومن دون شك فإن هذه الميزة التي وجدناها عند رشيد رضا ، نجدها كذلك عند أستاذيه الأفغاني ، وعبده، ولا نقول إن رشيد رضا قد تأثر بأستاذيه وأخذ عنهما هذه الميزة ، بل نقول إن الهمّ الذي كان يحمله كل هؤلاء المصلحين الثلاثة ، هو الذي دفعهم لأن يكونوا عمليين أكثر ما يكونون نظريين ، وكانت ثمرة هذا العمل أن حققوا أو استطاعوا أن يحققوا نهضة عربية وإسلامية كان لها أثر إيجابي من دون شك على المجتمعات العربية في العصر الحديث .

هذا ما أردت قوله مجملا في هذا المبحث التمهيدي ، حول حياة محمد رشيد رضا ، وفكره الإصلاحي ، فلقد كان على امتداد ثمانين سنة من حياته إلى أن توفي في (11سبتمبرسنة 1935م) مدركا لما يعانيه المسلم من تخلف وضعف، أبعداه عن المسيرة الحضارية والدور الحضاري الذي كان لا بد له أن يقوم به، وهي قيادة الناس إلى حسن تعمير هذه الأرض ، بما هو مناسب وموافق لما أمر به من قبل الله تعالى.

---

[1]- الشوابكة ، مرجع سابق ، ص251.
[2]- المرجع نفسه ، ص259.

المبحث الثاني:منطلقات التجديد في علم العقيدة عند رشيد رضا.

المطلب الأول:موقفه من التراث العقدي.

لقد تحدثنا فيما سبق عن فكر رشيد رضا في مختلف الجوانب التي حظيت باهتمام كبير لديه على غرار الجانب السّياسي والاجتماعي والتربوي ، واتفقنا على إرجاء الجانب العقدي ، الذي يمثل لب البحث ، والذي سنبدأ الحديث عنه من هنا ، وقبل أن نخوض في الإجابة على الإشكالية الرئيسية لهذا البحث-تجديد علم العقيدة الإسلامية عند رشيد رضا-بودنا أن نمهد الطريق أولا بتبيين بعض القضايا المفتاحية التي تساعدنا حتما للوصول إلى مبتغانا ، وذلك بمعرفة رأيه حول التراث العقدي الإسلامي ، فكيف نظر محمد رشيد رضا إلى التراث العقدي الإسلامي وكيف تعامل معه؟

أول ما نشير إليه في بداية حديثنا هنا ، أن الجانب العقدي كان له حيز واسع في منتجات رشيد رضا الفكرية ، خصوصا في المنارين - المجلة والتفسير- ويعود اهتمامه بهذا الجانب إلى وقت مبكر جدا ، وذلك أيام كان يدّرس في مسجد قريته بالقلمون تحت إشراف عمّه ، فقد كان يلقي على الرجال دروسا في التوحيد بالسنوسية(*)،ولما رأى صعوبتها عليهم ، وضع لهم كتابا بسط لهم فيه العقيدة الإسلامية[1]، ولم يقتصر عمله هذا على الرّجال فقط ، بل كان للنساء نصيب من دروس العقائد وغيرها التي كان يلقيها عليهن في دار أسرته[2] ،ومن خلال هذه الإشارة يمكننا أن نستنبط أمرا مهما جدا ، وهي أن العقيدة الإسلامية كانت هي الأخرى داخلة ضمن مجال الإصلاح الذي اهتم به رشيد رضا منذ هذه الفترة ، وبمعنى آخر أكثر دقة ، فإن رشيد رضا قد اقتنع بضرورة إصلاح العقيدة الإسلامية ، ولن يكون ذلك إلا بإعادة النظر في الموروث العقدي الذي يمكن به إصلاح اعتقاد الناس على الوجه المطلوب شرعا ، وقد كان رشيد رضا من المبادرين لهذا العمل كما سنراه لاحقا ، لكن يتوجب علينا أولا أن نعرف الأسباب التي دعته لأن يسلك هذا المسلك ، ولن يتأتّى لنا هذا إلا بمعرفة رأيه حول بعض المسائل العقدية التراثية وهي :

---

*- يقصد به كتاب أم البراهين ،للسنوسي.

[1]- عمار الطالبي،آثار ابن باديس،ج4 ، ص198.

[2]- المرجع نفسه ، ص199.

الفرع الأول : موقفه من الاختلاف العقدي والفرق الإسلامية .

ارتأينا أن نبدأ حديثنا حول فكر رشيد رضا العقدي ، بمعرفة موقفه من الفرق الإسلامية ، ذلك أن معرفتنا لموقفه من الفرق الإسلامية يفتح لنا الطريق واسعا لمعرفة موقفه من القضايا الأخرى ، التي شكلت محور اهتمام لديه في مجال إصلاح العقيدة الإسلامية ، فما هو موقفه من الفرق الإسلامية ، ومن اختلافها ، ومن هي الفرقة الناجية في منظوره ؟

ليس من الغريب أن نجد رشيد رضا يخصص مساحة معتبرة للإجابة على هذه الإشكالات كلما توفرت له الفرصة لذلك ، ولا غرو فالمنهج الإصلاحي الذي اختاره يحتم عليه الاجتهاد بغية الفصل فيها ، ويمكن القول إن أهم ما كان يحرص عليه رشيد رضا وهو يتناول قضية افتراق الأمة الإسلامية إلى فرق متعددة هو محاولة إزالة هذا الافتراق أو على الأقل الحدّ منه والتقليل من توسعه وانتشاره ، وقد دفعه هذا المقصد في بداية الأمر إلى تبني فكرة التقريب بين المذاهب التي اعتنقها أستاذه محمد عبده ، الذي أنشأ جمعية لهذا الغرض هي جمعية التقريب بين المذاهب[1] ، ثم محاولته الشخصية للتقريب بين مذهبي السّنة والشيعة ، بوصفهما المذهبان الأكثر انتشارا في العالم الإسلامي في وقته ، وبوجه عام فإن رشيد رضا يرى بأن أهمّ سبب لافتراق المسلمين هو اختلافهم في فهم النّصوص الدّينية ، وهذا الاختلاف كان يمكن التحكم فيه لو التزم المسلمون بمبدأين جليلين هما : احترام الآراء المخالفة ، وتجنب التكفير ، يقول رشيد رضا :"أما افتراق الأمة الإسلامية ، فهو واقع بالفعل ، ولكن لا يوجد دليل من القرآن ولا من الحديث يدل على اليأس من اتفاقهم في الأمور العامة ، والأخوة الإسلامية ، والتعاون على مقاومة من يعاديهم كلهم، وعلى ما ينفعهم كلهم ، وإن ظلوا مختلفين في كثير من المسائل بأن يكونوا في اختلافهم على هدي السّلف الصالح في عذر بعضهم لبعض واتقاء التكفير والعدوان"[2] ، فالاختلاف إذن ليس شيئا مذموما حسب رشيد رضا ما لم يصل حد التكفير الذي هو شرّ ما ابتليت به الأمة الإسلامية .

وتبقى المسألة الأكثر حساسية في مجال الفرق الإسلامية، هي إشكالية تعيين الفرقة الناجية كما اصطلح عليها الحديث النبوي الشريف، فما هو موقف رشيد رضا من هذه المسألة؟

لقد كانت مسألة الفرقة الناجية من أكثر القضايا العقدية التي دار حولها نقاش حاد بين مختلف المنتسبين للفرق الإسلامية ، وكان الأصل المحرك لهذه القضية حديث مروي عن النبي ﷺ

---

[1]- الشوابكة ، رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية ،ص43.
[2]- رشيد رضا ، مجلة المنار ، م13،ج12 ص818.

يبين فيه حتمية افتراق الأمة الإسلامية إلى فرق عدة بتعيين فرقة واحدة ناجية وهلاك البقيـــة(*) ، ومع أن النبي ﷺ قد حدّد صفة هذه الفرقة الناجية بقوله:"ما أنا عليـــه وأصـــحابي" إلا أن هـــذا التحديد لم يكن كافيا ، حيث إن كل فرقة ادّعت أنهـــا على ذلك التحديد المشار إليـــه فهـــي النـــاجية وغيرها هـــالك ، وسارت الأمور هكذا عند جلّ الفرق الإسلامية ، والمنتمـــي إلى أي فرقة يرى أنها الناجية ، فمن هي الفرقة الناجية عند رشيد رضا ؟

يؤكد رشيد رضا أن الحديث الذي يعتمد عليه في هذا المجـــال حديث ضعيف مـــن حيـــث السند[1] ، ورغم أن الحديث مروي عند غير واحـــد من الحفاظ إلا أن أسانيدها ضعيفة وبعضها موضوعة[2] ، ومع أن رشيد رضا يرجع إلى قاعدة المحدثين في أن تعدد الطرق يقوي الحديث ، إلا أنه ينبه أنه رغم هذا فإن الحديث يبقى مشكلا(**) ، يقول رشيد رضا :" وجملة القول إن تعدد طرق هذا الحديث يقوي بعضها بعضا على طريقتهم- المحـــدثين-المتبعة في ذلك ، وأظن أنـــه لا تسلم رواية منها عن طعان أو مقال كما قال ابن شهاب ، خلافا لمن اعتمد تصـــحيح الحـــاكم لبعضها ، وكلها مشكلة مخالفة للأحاديث الصحيحة"[3] ، وعلى هذا فالمسألة إذن محسومة بالنسبة لرشيد رضا من جانب التأصيل ، وليس هناك نص صحيح يعوّل عليه في هذا الباب ، ومن جهـــة أخرى يبين أنه لابد من فهم الحديث فهما واقعيا دقيقا - في حالة صرف النظر عن سنده- فالفرقة الناجية المذكورة في نص الحديث :"هي الفرقة التي تتبع السّنة التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه ، أي سنّة السّلف الصالح قبل ظهور البدع ، وهؤلاء هم الجماعة قلوا أم كثروا ، وهم لا ينحصرون في هذا الزمـــان بأهل مذهب معين من المذاهب المعروفة...ثم إن المنتمين إلى هذه المـــذاهب ليسوا متبعين لأئمتها حق الاتباع ، فيكون أتباع المصيب هم الفرقة الناجية".[4]

وبالتالي فالفرقة النّاجية في كل زمان حسب رشيد رضا :" هم أهل الأتبـــاع الـــذين يتقـــون الابتداع ، ولا يخلوا المنتسبون إلى مذهب من المذاهب المعتد بها في الإسلام عن طائفة أو أفـــراد

---

*- الحديث رواه أبو داود في السنن الكبرى ، كتاب السنة ، باب شرح السنة ، رقم (4569-4597) د ط ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ،مصر ، 1952 ، ج4 ص 77 ، والترمذي ،سنن الترمذي ،(تحقيق أحمد محمد شاكر) ، كتاب الإيمان ، باب افتراق هذه الأمة (رقم 2778-2779) د ط ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان، 1995، ج5،ص25 ، وابن ماجه ، السنن ، كتاب الفتن ،باب افتراق الأمم ، د ط ، دار الفكر ، د م ن ، ج2 ص 1321. وابن حبان ، كتاب التاريخ ، باب بدأ الخلق ، رقم 6247 ،د م ن ج 4، ص 55. ونص الحديث كما هو عند أبي داود :"عن معاوية ابن أبي سفيان أنه قام فينا فقال :ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال :" ألا إن قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة وهي الجماعة ".

[1] - مجلة المنار ، مج13، ج12 ، ص898.

[2] - المصدر نفسه ، ص899.

**- الحديث المشكل : هو أن يوجد حديثان متضادان في المعنى بحسب الظاهر ،وقد يسمى مختلف الحديث، منّاع القطّان . مباحث في علوم الحديث، ط4، مكتبة وهبة ، مصر ، 2004، ص 88، وما بعدها .

[3] - مجلة المنار ، مصدر سابق ، ص900.

[4] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

منهم يؤثرون السّنة على كل بدعة ، ومجموعهم طائفة واحـــدة يجمعهـــم الاعتصـــام بالكتـــاب والسّنة".[1]

ويتبين لنا من خلال نظرة رشيد رضا هذه للفرقة الناجية ، مدى ما كان يتمتع به من التحـــرر الفكري ، وعدم التعصب اللذان كانا من أهمّ معالم منهجه الفكري ، فالإصلاح الذي التزمه هدفا له في حياته ، لن يكون إلا بمعالجة مثل هذه المسائل التي كانت سببا في وصول المسلمين إلى مـــا وصلوا إليه من ضعف وتكالب الأمم عليهم، بسبب تماديهم في تفرقهم بل والتنظير له ومن هنا نجد رشيد رضا يدعو إلى الاشتغال بما يوحد المسلمين ، ويمكنهم من تجاوز عقبـــة هـــذا التفـــرق ، خصوصا وأن الظروف الواقعية مهيأة لذلك لأن :" التفرق في المذاهب قد ضعف بقلة المـــذاهب وجهل المنتسبين إليها ، وقلة انتفاعهم بعصبيتها ...فلم يبق أمامنا فـــرق كبيرة يذكرون بلقـــب مذهبي إلا الإمامية والزيدية من الشيعة ، والإباضية من فرق الخوارج ، والوهابية من فـــرق أهـــل السّنة ، ومعظم النزاع بينهم وبين الأشعرية".[2]

الفرع الثاني : مذهبه العقدي .

يمكن القول إننا إن استطعنا الوصول إلى تحديد دقيق لمذهب رشيد رضا في العقيدة ، فإننـــا سنكون قد اجتزنا أخطر مرحلة في هذا البحث ، نقول هذا الكلام معتقدين أن الكثيرين ممن عني بتناول فكر محمد رشيد رضا ، لم يقدموا رؤية كلية واضحة لهذا الجانب المهمّ في فكره ، وهـــذا طبعا له أسبابه ومبرراته ، التي نرى أن في مقدمتها الأحكام المسبقة أو الكلية التي يتزلـــق هـــؤلاء الباحثين في استصدارها ، دون التمعّن وتدقيق البحث في هذه المسألة .

لقد رفض رشيد رضا نسبة الفرقة النّاجية إلى أي من الفرق الإسلامية ، وهذا مؤشر له أهميته الخاصة ، فهو يعني فيما يعنيه أنه ليس هناك ضرورة ملـــزمة للانتماء العقدي المدرسي أو المذهبي ، فالتحديات الزمنية وطبيعة المرحلة المعاشة ، تفرض على المسلم تغيير نمط تفكيره ، وأهم من ذلك، إعادة ترتيب أولوياته ، وهذان الأمران لا يتيسر حصولهما إلا بالاجتهاد ، وقد كان رشـــيد رضا – كما رأينا سابقا – مجتهدا فعلا ، وكانت العقيدة الإسلامية من بين المجالات التي اجتهد فيها .

إن تأكيدنا بأن رشيد رضا قد اجتهد في مجـــال العقيدة كما اجتهد في باقي المجالات ، يجعل نظرتنا هذه مخالفة لبعض الباحثين الذين أقصوا الجانب العقدي من مجالات اجتهاده ، وقد نقلنـــا

---

[1]- رشيد رضا ، مجلة المنار ، مج13 ، ج12 ، ص905.
[2]- المصدر نفسه ،الصفحة نفسها .

سابقا قول الباحث الفرنسي جوميـــاي حـــين ذهب إلى أن الاجتهاد في العقيدة بالنسبة لرشـــيد رضا :" مساحة مقدسة ، وحرام لا يمكن إعمال الرأي فيها لأن حيزها سلطة الله تعالى مطلقا."[1]

وقول جومياي هذا يشير في الحقيقة إلى مسألة عدّها الباحثون من المسلمات التي تخص تفكـــير رشيد رضا العقـــدي وهي السّلفية(*)، وحتى وإن كان هنـــاك اختلاف في مفهوم السّلفية لدى هؤلاء الباحثين بوجهها العام ، إلا أن الذين تناولوا مسألة التفكير العقدي لرشيد رضا يؤكـــدون التزامه الإيديولوجي المدرسي للسلفية والتي تعـــني المدرسة الحنبلية القديمـــة ووريثتـــها الوهابيـــة الحديثة ، ويذهب أصحاب هذا الرّأي ويتقدمهم محمد صالح المراكشي إلى أن رشيد رضا لم يحافظ – بسبب مذهبه الحنبلي– عـــلى الرّوح التقدمية التي كـــانت عند سلفيه الأفغـــاني وعبـــده ، الـــتي ترى أن :" للعقيدة الإسلامية من المـــرونة وشمـــول النظرة ما يجعلها تتلاءم بسهولة مـــع مقتضيات العصر الجديد إن أحسن أصحابها الاجتهاد في مبادئها العليا"[2] ، ويصـــل المراكشـــي بكلامه إلى أبعد من هذا حين يقرر بأن رشيد رضا:" لم يكن إلاّ تابعا لمنهج الحنابلة ، وخاصة منهم ابن تيمية في دراسة بعض العقائد دون إضافة تذكر"[3] ، مما يعني أنه لم يضف أيّ شـــيء للفكـــر السّلفي ، وإزاء هذا الموقف الذي رأينـــاه ، يستوقفنا تســـاؤل منهجي ملح مفاده:هل كان رشيد رضا سلفيا حنبليا بالفعل ؟ وما هي درجة تأثّره بهذا المذهب ؟

إذا حدّدنا الإجابة على التساؤل الأول بالإيجاب ، وقررنا بأن رشيدا رضا كان سلفيا حنبليا ، فإننا بهذا سنكون انضممنا إلى رأي المراكشي وغيره الذين يقرون بسلفية رشيد رضا وحنبليتـــه ، ويبقى لنا البرهنة عـــلى صحة هذا القول،فما هي المعايير التي استند إليها هؤلاء في الاستدلال على رأيهم ؟

نقول : لقد كان مستندهم في هذه القضية ثلاثة أمور:

أولها: أن توسّع رشيد رضا في استعمال النصوص خاصة السنة النبوية ، والاهتمام بتمحيصها وفق منهج المحدثين ، كمناقشة الأسانيد ونقد الرواة – وهو ما يهتم به السّلفيون أنفسهم – من أهـــم القرائن الدّالة على انتمائه للمذهب السّلفي .

ثانيها: إن تركيزه على النقل الحرفي المطول لأقوال بعض أعلام المدرسة السلفية ، كابن تيمية وابن القيم، وكثرة إشادته بهم إشارة ثانية ، ودليل آخر على سلفيته.

---

[1]- المراكشي ، قراءات في الفكر العربي الحديث والمعاصر ، ص70.

*- كنا قد أشرنا إلى قضية التسلف عند رشيد رضا سابقا ، لكن من وجهها العام ، بينما نطرحها هنا من جانب فكره العقدي ، فهو ليس من باب التكرار كما قد يتوهم .

[2]- المراكشي ، تفكير رشيد رضا ، ص477.

[3]- المرجع نفسه ، ص473.

وثالثها: إن دفاعه عن المذهب السّلفي وإشادته به ، لا يمكن أن يفهم إلا تعبيرا عن تـــأثره بهـــذا المذهب وتبنيه له.

والحقيقة أن هذه المستندات موجودة فعلا ، وهي مبثوثة في مؤلفات رشيد رضا ، إلا أنه يمكن تبريرها وإخراجها من مخارج أخرى غير هذه التي استعملت فيها.

فلقد سبق وأن رأينا بأن رشيد رضا قد تلقى تكوينا جيّدا في علوم الحديث على يد مشايخ لهم حظ وافر في هذا العلم ، كالشيخ الرافعي والشيخ محمد القاوقجي ، ومحمود نشابة ، وهذا ما أهله لاستخدام هذا العلم بإتقان وحسن تمكن(*)منذ المراحل الأولى من حيـــاته الفكرية ، أي لما كان صوفيا[1] ، ومن جهة أخرى وبوجه عام ، فإنه من الطبيعي الاتفاق على أنه ليس كل متضـــلع في علم الحديث سلفيا ، والنماذج على ذلك كثيرة في تاريخ السير ، ولعل أبرز من يمكن الامتثال به "ابن حزم الظاهري" ، فقد كان إماما في الحديث لا يضاهيه كثير من أهل هذا الفن ، ومع هـــذا فلم يكن سلفيا حنبليا في العقيدة،ومن هذا فإنه لا يمـــكن الاعتمـــاد - حسب رأيي - علـــى هذا الدليل وجعله قرينة ملزمة على أن رشيد رضا لم يكن إلا سلفيا حنبليا .

وفيما يخص المستند الثاني ، فلا يمكن الجزم بأن رشـــيد رضا لم يكن ينقل إلا نصوص أعـــلام مدرسة السلفية الحنبلية، ولعل من يطـــالع تفســـير المنار يلاحظ ذلك ، فلقد نقل رشيد رضـــا نصوصا لابن تيمية وابن القيم ، كما نقل نصوصا لفخـــر الدين الـــرازي(**)،وأبـــو حامـــد الغزالي وهـــما من أعلام المدرسة الأشـــعرية

ونشـــير هنا إلى أن تفسير الرازي المسمى مفـــاتيح الغيب ، كان من أهـــم المصـــادر الـــتي اعتمدها رشيد رضا في تفسيره ، حيث كان كثيرا ما يرجع إليه في تحقيق بعض المسائل خاصـــة العقدية.

---

*- لكننا وجدنا بعض الدارسين الأكاديميين يذهبون إلى نقيض هذا الرأي تماما،وبأن رشيد رضا باعه محدود في علم الحديث ، إضافة إلى أنه غير خبير ، وغير محقق في هذا الفن ..راجع : شفيق عبد الله شقير ، موقف المدرسة العقلية الحديثة من الحديث النبوي الشريف ، ط 1، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1998 ، ص191.

[1]- شكيب أرسلان : الأستاذ الأكبر السيد محمد رشيد رضا ، نقلا عن : لوثروب ستوارت ، حاضر العالم الإسلامي،ترجمة عجاج نويهض،ط 4 ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1973، ج1 ص285

**- فخر الدين الرازي، (543-606 هـ/1149 – 1210م) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي التيمي البكري الطبرستاني الرازي، مفسر ، متكلم ، فقيه، أصولي ، حكيم ، شاعر ، وطبيب ، ولد في إقليم الري بفارس ، ورحل إلى خوارزم ، وخراسان ، وأخذ عنه خلق كثير ، وكان ذا ثروة ومال ، ومكانة لدى الملوك ، توفي بهراة ،وخلف تركة ضخمة من تصانيفه: مفاتيح الغيب ، الأربعين في أصول الدين ، المنطق الكبير ، المطالب العالية وغيرها . راجع عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، ج3 ، ص558.

والحال نفسه كان مع تفسير الكشاف للزمخشري(*) ،وهو من أعـــلام المدرسة الاعتزاليـــة، وغيرهم ممن قد تطول القائمة لو أردنا ذكرهم، وبهـــذا فإن هذا الدليل أيضا ينظم إلى سابقه مـــن حيث إنه قرينة ضعيفة على سلفية رشيد رضا الحنبلية .

وأما المستند الأخير ، وهو في نظرنا أهم مستند يعتمد عليه هؤلاء في طرحهم ، فـــلا يمكـــن التسليم به كذلك دون مناقشة ، والحقيقة أنه رغم أن هناك نصوصا كثيرة ، يصرح فيها رشـــيد رضا بأنه يلتزم منهج السلفية الحنبلية في فهم العقيدة الإسلامية ، إلا أننا نعثـــر علـــى نصـــوص أخـــرى توهمنا بأنها تعارض سابقتها ، مما يجعلنا أحيـــانا محتارين، وكأننا في مفترق طرق يمكننـــا أن نجعل رشيد رضا منحازا إلى الجهة التي نريد بسهولة .

فلنأخذ مثلا هذا النص الذي هو من أهم النصوص التي ينصر فيها رشيد رضا الفهم السّـــلفي للعقيدة حين يقول :" وكنا نظن في أوائل الطلب أن مذهب السّلف ضعيف ، وأنهم لم يؤولوا كما أول الخلف لأنهم لم يبلغوا مبلغهم من العلم والفهم، ولما تغلغلنا في علم الكلام ، وظفرنا بعد النظر في الكتب التي هي منتهى فلسفة الأشـــاعرة في الكـــلام ، بالكتب التي تبين مذهب حق البيـــان لا سيما كتب ابن تيمية ، علمنا علم اليقين أن مذهب السّلف هو الحق الذي ليس وراءه غاية ولا مطلب وأن كل ما خالفه فهو ظنون وأوهام لا تغني من الحق شيئا"[1] ، فهذا النص يشـــير إلى أن رشيد رضا قد اقتنع أخيرا بأن المذهب السلفي في العقيدة هو أسلم فهم من غيره مـــن المـــذاهب الأخرى، وذلك لاعتبارات معينة هي جملة الانتقادات التي وجهـــا لمنـــاهج الفـــرق الأخـــرى، وسنتحدث عنها لاحقا ، وحسبنا هنا أن نشير إلى أن هذا النص رغم قيمته وأهميتـــه إلا أنـــه لا يكفي إذا ما قارناه بنصوص أخرى عثرنا عليها تدفعنا إلى التريث وتعميق البحث قصد فهم دقيق لمذهب رشيد رضا العقدي ، فبالرغم من أنه يلمح في هذا النص الذي ذكرنـــاه إلى أن المـــذاهب المخـــالفة لمذهب السلف ليست على الحق [2]، إلا أن نظرته إلى هـــذه المـــذاهب تبـــدو مميـــزة جـــدّا ، فهو أولا يقـــر بأنه ليس فقط المذهب السّلفي وحده الذي ينسب إلى السّنة ، بل هناك مذاهب أخـــرى هي سنية بلا شك [3]، كالأشـــاعرة والماتريدية ، وهذه نظرة لا نجـــدها عنـــد

---

*- الزمخشري (746-838هـ / 1075-1144م) هو محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي ، أبو القاسم جار الله ، مفسر ، محدث ، متكلم ، نحوي ، أديب ، لغوي ، ناظر ، ولد بزمخشر من قرى خوارزم ، في رجب ، وقدم بغداد ، وسمع الحديث وتفقه ، ورحل إلى مكة فجاور بها وسمي جار الله ، توفي بجرجانية خوارزم ، ليلة عرفة بعد رجوعه من مكة ، له من التصانيف ، الكشاف في حقائق التنزيل ، الفائق في غريب الحديث ، المحاجات بالمسائل النحوية ، أساس البلاغة . راجع :عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين ، ج3 ، ص822.

1- تفسير المنار ، ج3 ، ص 197.

2- كونها على غير الحق لا يقتضي بالضرورة أنها على باطل .

3- رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج 7 ، ص 552، حيث يقول :" إنما مذهب أهل السنة والجماعة ، ما كان عليه السواد الأعظم من الصحابة وعلماء التابعين وأئمة الحديث والفقه ممن تبعهم في الاعتصام بنصوص الكتاب والسنة من غير تحريف ولا تكلف لإرجاع ظواهرها إلى ما ابتدع من البدع والآراء التي أحدثها أهل الأهواء، ومنهم – أهل السنة – فقهاء الأمصار المشهورون كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وسفيان الثوري والأوزاعي وداود وغيرهم ، وقد انتسب إلى بعض مذاهب هؤلاء كثير من أهل الكلام فخالفوهم في بعض الأصول ، كبعض المعتزلة من الشافعية وكثير من

المتمذهبين بمذهب السلفية الحنبلية ، الذين يتمسكون تمسكا شديدا بحديث الفرقة الناجية المذكور سابقا ، هذه الروح المتفتحة على سائر المذاهب الأخرى تتجسد أكثر ما تتجسد عند مناقشة بعض مسائل العقيدة ، حيث نجد أن رشيد رضا لا يتوانى في إعطاء الحق لأي فرقة تكون حجتها أقوى من الأخرى لأن :" المسائل التي اختلف فيها أهل المذاهب ، لا ينحصر الحق فيها في مذهب دون غيره ، فتارة يكون الصواب مع الأشعرية ، وتارة مع الماتريدية فيما يختلفان فيه ، وقل مثل هذا في خلاف المعتزلة مع الشيعة وغيرهم".[1]

وستتضح لنا هذه الرؤية أكثر عندما نستعرض موقفه من بعض مسائل العقيدة كمسألة الرؤية، والكلام وغيرها من المسائل التي تؤكد أن رشيد رضا لم يكن سلفيا حنبليا في العقيدة ، وهذا نظرا لكثير من مواقفه التي تعاكس أبجديات هذه المدرسة ، كالموقف السّلبي من علم الكلام، ومن المتكلمين أيضا ، والوقوف عند المفهوم الظاهر للنص ، وتضييق مساحة العقل في فهم العقيدة الإسلامية وغيرها .

وبعد هذا كله ، بقي لنا الآن أن نتساءل السؤال الآتي :إذا كان رشيد رضا ليس سلفيا حنبليا ، فما هو مذهبه العقدي إذن؟ لنجيب على هذا بأن رشيد رضا ينتمي إلى تيار السّلفية العقلية الذي تزعمه جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، ويبدو تأثره بمنهج هذين الإمامين وفكرهما إلى آخر حياته واضحا ، خاصة في مجال العقيدة، وأقوى شاهد لدينا على كلامنا هنا هو قول الإمام محمد عبده عن تلميذه رشيد رضا :" إن هذا الرجل متحد معي في العقيدة والفكر والرّأي والخلق والعمل"[2] ، وهذا ما يذهب إليه محمد عمارة من جهته حيث يرى بأنه : "بعد محمد عبده بعض الناس يتصور أنه – رشيد رضا – عاد إلى لون من السّلفية ، أنا أشعر غير هذا ، محمد عبده لم يكن يهتم بتوثيق ما يقول بالمأثورات ، كان يطرح رؤاه ، ورشيد رضا كان يقدم هذه الرؤى ويضيف المأثورات ، ومن هنا فهم على أنه ارتد إلى السّلفية بينما ظل في كتاباته فيما بعد على ولائه لهذه الأفكار"[3] ، وكلام عمارة هذا دقيق إلى حدّ بعيد ، فالمسألة إذن :" لم تكن قضية تراجع عن المنهج ، إنما قضية تغير في موازين التحديات "[4] ،لأن رشيد رضا – يضيف عمارة- :" له نصوص حتى في تلك المرحلة السّلفيون يعيبونها عليه – فهو مثلا تكلم في موضوع

المعتزلة والمرجئة من الحنفية ، وأقرب المتكلمين إليهم الأشاعرة وأكثرهم من المالكية والشافعية والماتريدية من الحنفية ... فهم على انتسابهم كلهم إلى السنة لا يصح أن يجعل كل ما قرره واحد أو آحاد منهم مذهبا لأهل السنة والجماعة . وإن تقلد ذلك الكثيرون من الناس ".

[1]- مصدر سابق ، الصفحة نفسها .

[2]- رشيد رضا ، تاريخ الإمام ، ج1 ، ص995.

[3]- عبد الجبار الرفاعي ، الاجتهاد الكلامي ، ط 1 ، دار الهادي ، بيروت ، لبنان ، 2002، ص148.

[4]- المرجع نفسه ، ص149.

المعجزات كلاما لا يعجب السّلفيين في تلك المرحلة "[1] ، وهو ما سنراه في موضعه بعد أن نتحدث عن موقفه من بعض المسائل العقدية التي تناولها ، والتي توضح لنا ما قلناه هنا .

الفرع الثالث : آراؤه العقدية .

يمكننا الآن بعد أن عرفنا مذهب رشيد رضا العقدي ، أن نتعمق في بحثنا أكثر ، قصد الوصول إلى مرادنا ، وهو موقفه من قضية تحديد علم العقيدة الإسلامية ، التي سنتناولها من خلال نموذج النبوة الذي هو ركن من أركان العقيدة الإسلامية ، وقبل أن نخوض في هذا نود معرفة موقف رشيد رضا من بعض القضايا العقدية الأخرى التي تدخل ضمن أبواب العقيدة الإسلامية غير باب النبوات ، فلقد أبدى رشيد رضا رأيه في كثير من مسائل العقيدة الإسلامية، خصوصا تلك التي كانت محل اختلاف وأخذ ورد بين المذاهب الإسلامية ، وهذه المسائل هي :

أولا : التوحيد .

اختلفت تقاسيم علماء العقيدة الإسلامية لمسألة التوحيد ، دون أن يختلف موقفهم من أن التوحيد هو المبدأ الأول والأسمى للإسلام ، والركن الركين في العقيدة الإسلامية ، ولهذا جعلت بعض الفرق الإسلامية من التوحيد المبدأ الأول لأصولها المذهبية ، كما هو الحال مع المعتزلة والشيعة .

وفيما يخص تناول هذه القضية من جانبها العقدي ، فيمكننا أن نعثر في تراثنا الكلامي على التقسيمات الآتية:

أ / تقسيم يجعل التوحيد صفة من صفات الله تعالى تسمّى صفة الوحدانية ، وهي تدخل تحت نوع من أحد الأنواع الثلاثة للصفات، وهذا النوع يسمى بالصفات السّلبية ، ويسمى الآخران بالصفات النفسية وصفات المعاني ، وقد اشتهر هذا التقسيم عند المدرسة الأشعرية وكذا الماتريدية.[2]

ب / تقسيم ثاني يجعل التوحيد أنواعا ثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد أسماء وصفات ، ويشتهر بهذا التقسيم المدرسة السّلفية الحنبلية ، ويعد شيخ الإسلام ابن تيمية أشهر من قال بهذا. [3]

---

[1]- عبد الجبار الرفاعي مرجع سابق ، ص 150.

[2]- أبو عبد الله السنوسي : شرح أم البراهين في علم الكلام ، تحقيق وتعليق مصطفى محمد الغماري ، دط، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الرغاية ، الجزائر ، 1989، ص29

[3]- تقي الدين ابن تيميه : مجموع الفتاوي ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، د ط، مكتبة المعارف ، الرباط ، المغرب ، د ت ، ج1و2.

ج / تقسيم ثالث يجعل التوحيد نوعين : توحيد علمي ، وتوحيد قصدي إرادي ، أو توحيد معرفة وإثبات ، وتوحيد طلب وقصد ، وقد اشتهر هذا التقسيم عند ابن قيم الجوزية.[1]

د / تقسيم أخير يجعل التوحيد أقساما أربعة هي : توحيد الذات ، وتوحيد الصفات ، وتوحيد الأفعال ، وتوحيد العبادة ، وهو تقسيم عرف به بعض الشيعة. [2]

وبالنسبة لمحمد رشيد رضا ، فإننا نجده يلتزم بالتقسيم الثاني الذي ذكرناه ، وهو أن التوحيد يتفرع إلى توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية[3] ، ويعبر عن كلا النوعين بتفسيره لمعنى الإله والرب ، :"فالإله هو المعبود الذي توله العقول في معرفته وتدعوه ، وتصمد إليه لاعتقادها أن السّلطة الغيبية له وحده ، والرّب هو السّيد المربي الذي يطاع فيما يأمر وينهى[4] ، وأكثر الشّرك الذي عليه الناس – وعليه كان سواد جاهلية العرب الأعظم – هو في الأول أي في الألوهية".[5]

وينتقد في المقابل التقسيم الذي جاء به متأخرون من مدرسة الأشاعرة الذين جعلوا الوحدانية تتفرع إلى فروع ثلاثة :"وحدانية الذات بمعنى أن الواجب واحد لا يتعدد ويسمون هذا نفي الكم المتصل ، وأن ذاته لا تركيب فيها ، كما أنها ليست جوهر فردا يدخل في بناء الأجسام ، ويدعون هذا نفي الكم المنفصل ، ووحدانية الصفات ، وهي بمعنى أن صفاته لا تعدد فيها ...وهو نفي الكم المتصل ، وأنه ليس لغيره تعالى صفة تشبه صفاته وهو نفي الكم المنفصل ، ووحدانية الأفعال وهو الصنف الثالث ، وهو بمعنى أنه لا فعل إلا لله تعالى وهو الكم المنفصل فقط"[6] ؛ فيعقب على هذا التقسيم بقوله :"هذا ما جرى عليه المؤلفون في التوحيد من عهد السنوسي إلى الآن ، ولم يكن المتقدمون يدخلون هذه المسائل كلها في مبحث الوحدانية ، لأن الوحدة بمعنى نفي التركيب وكون صفات الله تعالى لا تشبه صفات أحد من خلقه ، يدخلان في مبحث التنزيه ، وأما تصور تعدد الصفات من جنس واحد فقد جاء من التعمق في فلسفة الأفكار ، فاحتاجوا إلى نفيه ، ولا توجد أمة من الأمم تعتقد هذا الاعتقاد وليس عليه شبه ظاهرة يلتفت إليها ، وأما الاعتقاد بأن الله تعالى خالق كل شيء وإليه يستند وجود كل ممكن فهو يدخل في مبحث وجوب الوجود ...فبقي أن الوحدانية إذا أطلقت تنصرف إلى مفهوم كلمة " لا إله إلا

---

[1]- ابن قيم الجوزية ، مدارج السالكين ، د ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د ت ، ج 1 ، ص 33.
[2]- محمد حسن ترحيني ، الإحكام في علم الكلام ، ط 1 ، دار الأمير للثقافة والعلوم ، بيروت ، لبنان ، 1993، ص17.
[3]- رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج8 ، ص 272.
[4]- المصدر نفسه ، ج3 ، ص 326.
[5]- المصدر نفسه ، ج8 ، ص272.
[6]- رشيد رضا ، مجلة المنار ، مج 3 ،ج 1، ص54.

الله" أي نفي الألوهية عن غير الله تعالى ، والمتبادر من معنى الألوهية المعبودية ،ومن معنى الإله المعبود ، فالوحدانية إذن هي وحدانية العبادة".[1]

ثانيا: الصفات.

لا يخفى على أي باحث في علم العقيدة الإسلامية أن مسألة صفات الله تعالى تعد من أكبر المسائل العقدية التي وقع حولها نزاع فكري بين سائر الفرق الإسلامية ، بلغ من الحدّة مبلغا كبيرا، والأهم من هذا كله أن المسألة بقيت مطروحة على السّاحة الفكرية الإسلامية حتى زمننا المعاصر ، فكيف تعامل رشيد رضا مع هذه المسألة؟

الإجابة على هذا التساؤل ستتضح لنا تدريجيا حينما نتناول عرض هذه المسألة مجزأة إلى مسائلها التفصيلية ، وهو ما فعله رشيد رضا تماما ، وسوف نحاول جاهدين أن نحيط بأهم الصفات التي تناولها رشيد رضا بالبحث ، وأبدى فيها رأيه الخاص ، وتلكم هي:

أ / الاستواء :

لقد كانت مسألة استواء الله تعالى على العرش محل أخذ ورد بين المتكلمين وأهل الحديث وبالتحديد بين الأشاعرة والماتريدية من جهة ، وبين الحنابلة من جهة أخرى مقابلة ، وأساس المشكلة في هذه المسألة هو كيف تفهم النصوص الواردة في هذا الشأن – خاصة القرآنية منها – هل تحمل على معناها الظاهر ، أم تصرف عنه إلى معنى آخر ؟

يقر رشيد رضا من جهته بأن محل الخلاف في هذه المسألة هو ما ذكرناه آنفا ، بمعنى أن أساسها لغوي بالدرجة الأولى ، لكنه يبين من جهة أخرى أن هذا الخلاف اللغوي مرده خلاف منهجي وهو:" أن الاستواء على العرش هل هو من جنس صفة الذات (*) أو من صفة الفعل" [2]، وحسب رشيد رضا فإن هذا الخلاف المنهجي ، جعل علماء العقيدة الإسلامية يتبنّون طريقتين مختلفتين في عرض هذه المسألة وغيرها – كما سيأتي – وهاتان الطريقتان هما : طريقة التفويض وطريقة التأويل(**) :" فالمفوضون – كما يقول رشيد رضا حسبوه من صفة الذات فوكلوا

---

[1]- رشيد رضا مصدر سابق ، ص 54 .

* صفات الذات : يراد بها ما تكون لازمة للذات أزلا وأبدا ، ولا يتصور انفكاكها عنها ، وذلك كصفة القدرة والعلم ، والعزة والعظمة والكبرياء ... وصفات الفعل : يراد بها ما يحدثه سبحانه وتعالى في ذاته بمشيئته وقدرته من أفعال على وفق علمه وحكمته ، كالخلق ، والرزق والإحياء والإماتة ، راجع : جمال الدين القاسمي ، دلائل التوحيد ، ط1 ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان ، 1991 ، ص 57.

[2]- مجلة المنار ، م 28 ، ج 4، ص226.

** - التأويل : هو حمل اللفظ على خلاف ظاهره ، مع بيان المعني المراد ، والتفويض هو رد المراد من النص الموهم إلى الله تعالى ، يراجع إبراهيم ابن محمد البيجوري ، شرح جوهرة التوحيد ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1983، ص 91.

الكيفية إلى علم الله ...والذين أوّلوا وعينوا المراد به جعلوه من صفة الفعل "[1] ، ولكن ما موقف رشيد رضا من هذين الطريقين ؟

إن كان هذان الطريقان قد أخذا من الناحية التاريخية مساران متباينان ، تمثل في رفض كل واحد منهما للآخر ، خصوصا لأهل التفويض وهم أهل الحديث والحنابلة ، الذين رفضوا التأويل رفضا كليا ، وما نتج عنه من إصدار للأحكام المغالية على أهل هذا الأخير ، وأكثرهم من الأشاعرة ، وصلت في بعض الأحيان درجة التكفير ، فإن المسألة لم تكن لتصل إلى هذا الحد لو أدرك أهل هذين الطريقين أن هدفهما واحد :" فمطمح نظر كلا الفريقين تنزيه ذات الله تعالى عن مشابهة المحدثات ، وعن أن يكون ذاتا مجردة عن الصفات"[2]وزيادة على هذا فإن طريق التأويل الذي هو مرفوض وعليه تدور الدائرة – منقول عن جماعة من الصحابة والتابعين [3]، فإذا كان الحال يقتضي تكفير المتأولين ، فإن هؤلاء الأعلام من الصحابة والتابعين لا يخرجون عن هذه الدائرة ، يقول رشيد رضا :" اتضح مثل ضحوة النهار...أن التأويل الصحيح مسلك سلكها أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين لهم بإحسان ومن بعدهم ، فهل يجترئ أحد أن يكفر أو يبدع مثل هؤلاء الأعلام؟" [4]

وجملة القول فإن الذي لمسناه في هذه المسألة أن رشيد رضا يقر كلا الطريقين ، فالمفوضون قد أثبتوا لله صفة الاستواء وأوكلوا كيفيتها إلى الله تعالى ، فهو وحده العالم بحقيقتها ، والمؤولون قد بحثوا في المعاني التي تحتملها لفظة الاستواء ، والتي منها : الانتهاء ، والقهر، والغلبة [5] ،وعلى هذا :" فالرجل المسؤول عنه مؤمن من أهل السّنة ، لا يصير بمجرد التأويل من أهل الكفر ولا من أهل البدعة فمن كفره أو بدعه فقد أخطأ عفا الله عنه"[6]

ب / رؤية الله تعالى.

لقد كانت هذه المسألة بدورها من أهم المسائل التي وقع فيها خلاف بين المسلمين ، وبالتحديد بين أهل السنة وبين المعتزلة ، وبعض الخوارج ، ونقصد بذلك فرقة الإباضية[*] ،

---

[1]- مجلة المنار ، مج 28 ، ج 4، ص226.
[2]- المصدر نفسه ، ص263.
[3]- وقد ذكر رشيد مجموعة بارزة منهم : الإمام أحمد، البيهقي ، وابن حزم ، وابن تيميه ، المصدر نفسه ص 264.
[4]- المصدر نفسه ، ص 268.
[5]- المصدر نفسه ، ص266.
[6]- المصدر نفسه ، ص 269.
* - الإباضية : فرقة أساسية من الخوارج ، أتباع عبد الله بن أباض ، من رهط الأحنف بن قيس ، خرج في أيام مروان بن الحكم ،آخر خلفاء بني أمية ، وقيل إن ابن أباض رجع عن رأيه فتبرأ منه أصحابه ، واستمرت نسبتهم إليه ، وقيل إنهم نسبوا إلى قرية أباض باليمامة ، ومذهبهم يعود إلى جابر ابن زيد الذي أخذ علمه عن عبد الله بن عباس وعن عائشة وابن عمر . أمير علي مهنا وعلي خريس ، جامع الفرق والمذاهب الإسلامية ، ط2، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، 1974 ، ص09

ومحور الخلاف في هذه المسألة يدور حول السؤال الآتي : هل الإنسان يرى الله تعالى إمكانا في العقل ووقوعا في الدنيا والآخرة ؟[1]

ينطلق رشيد رضا في معالجته لهذه القضية من هذا السّؤال ، ويتبع في الاستدلال على هذه المسألة منهجين اثنين :

أما المنهج الأول فهو منهج التحقيق اللغوي ، وفيه نلمح – كما في مسألة الاستواء – استقلالا فكريا ، وبعدا عن التعصب كبيرين تحلى بهما رشيد رضا ، فنجده في البداية يصرح بأن النّصوص – القرآنية خاصة – التي يعتمد عليها كلا من المثبتين لرؤية الله تعالى يوم القيامة ، والنافين لذلك ليست قطعية ، وما دامت كذلك فإن لكل طرف : "عذر عند الآخر بمنع جريمة التفرق في الدّين ، وجعل أهله أحزابا وشيعا متعادية"[2]،وهو بهذا الكلام يشير إلى قضية التكفير الذي كان في وقت ما أمارة تنابذ بين المسلمين بسبب هذه المسألة ، والأمر الثاني الأكثر أهمية لنا هنا هو أن رشيد يرى مبدئيا بأن آيات نفي الرّؤية أصرح من آيات الإثبات،أي بتعبير آخر أدلة المعتزلة – القرآنية – أقوى من أدلة غيرهم،استنادا إلى التخريج اللغوي يقول رشيد[3]:"وأما رؤية الرب تعالى فربما قيل بادي الرأي إن آيات النفي فيهما أصرح من آيات الإثبات،كقوله ﷻ ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [4] و: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ [5]فهما أصرح دلالة في النفي من دلالة قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [6] على الإثبات فإن استعمال النظر بمعنى الانتظار وارد في القرآن،وكلام العرب كقوله تعالى:﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ [7] وكقوله ﷻ أيضا :﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ [8]

وعلى العموم فإن رشيد رضا يرى في الأدلة النقلية لمسألة الرؤية أنها تتميز بما يلي:

- إن الآيات القرآنية فيها ليست نصوصا قطعية الدلالة في الإثبات وحده،ولا في النفي وحده .
- إن في الأحاديث الصحيحة من التصريح في إثبات الرؤية ما لا يمكن المراء فيه ، ولكن المراد من هذه الرؤية غير قطعي ، وفيها ما يدل على عدم الرؤية[9].

---

[1]- عبد المجيد النجار ، الإيمان بالله وأثره في الحياة ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1997 ،ص 161.
[2]- رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج 9، ص134.
[3]- المصدر نفسه ، ص 135.
[4]- سورة الأعراف ، الآية 143.
[5]- سورة الأنعام ، الآية 103.
[6]- سورة القيامة ،الآية33.
[7]- سورة يس ، الآية 49.
[8]- سورة الأعراف ،الآية53.
[9]- رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص 136.

وكون رشيد رضا يقرّ بأن أدلة نفي الرّؤية أصرح من أدلة الإثبات ، لا يعني هذا أنه يـــذهب مذهب النافين لرؤية الله تعالى ، ولا أنه ينكرها على الإطلاق ، بل على العكس مـــن ذلـــك :" فإثبات رؤية الرّب تعـــالى في الدار الآخـــرة المخالفة لهذه الدار في شؤونها ، وشؤون أهلها وسنن الله تعالى فيها بالقيود التي قيّدها بها المثبتون لها من تنزيهه تعالى عن مشابهة خلقـــه ، لـــيس مـــن المحالات العقلية الثابتة بالضرورة "[1] ، فالرؤية إذن حسب رشيد رضا جائزة عقـــلا ، فكيـــف السبيل إلى البرهنة على ذلك ؟

السبيل إلى ذلك يتمثله المنهج الثاني الذي اعتمده ، وهو منهج الاستدلال النفسي ، وقد اعتمد فيه على شواهد من علم النفس الحديث ، واستدل بها على إمكانية رؤية الباري عز وجل ، وهذه الشواهد هي : العمل النومي ، والأحلام ، والتنويم المغناطيسي [2].

وغرض رشيد رضا من هذه الشواهد هو إثبات أن هناك أنواعا أخـــرى من الرؤية التي لا تتم بواسطة العين ، وتسميها العرب"رؤيا"[3] ، وهو بهذا يحاول الوصول إلى أن رؤية الله تعالى تتم بلا كيف ولا مثال وهو عين مذهب المفوضة ، ففي العمل النومي يقوم بعض الناس بأعمال عادية كالقراءة والكتابة ، والمشي والخروج ...وهم في حالة نوم معطل لجميع الحواس[4]وأما الأحـــلام فهناك ما يعرف بالرؤيا الصادقة ، حيث يتطابق الحلم مـــع حادثـــة واقعيـــة [5]، وأمـــا التنـــويم المغناطيسي، فإن المُنَوَّم يقوم بتنفيذ أوامر منوِّمه دون تردد كأنه في حـــالة يقظة [6]...فهذه الأنواع الثلاثة هي حسب رشيد رضا رؤى لا دخل لأعين الإنسان فيها ، وعليه فإن حجج النافين لرؤية الله تعالى ، كالقول بأن الرؤية تقتضي التحيز والمكان والجهة ...غير ملزمة ، لأنه قياس غير مدرك فإلى أي مدى وفق رشيد رضا في استعماله لهذه الأدلة ؟

قد تكون أهم الملاحظات التي غفل عنها رشيد رضا في هذه الأدلة ، أن هذه الأنواع التي ذكرها من الأدلة ، تمتـــاز فيما بينها بخـــاصية مشتركة وهي : اللاوعي ، أي أن مصـــدرها الأســـاسي هو اللاشعور، فهل يمكن القول أن الإنسان يرى ربه يوم القيامة من دون الشعور ؟

لم يستطع رشيد رضا – حسب رأينا – أن يحسم هذه المسألة بـــدليل قطعـــي ، ولا شـــك أن الخلاف فيها سيبقى قائما إلى يوم الدين.

---

[1]- رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج9، ص159

[2]- المصدر نفسه ، ص160.

[3]- المصدر نفسه ، ص 161.

[4]- المصدر نفسه ، ص 160.

[5]- المصدر نفسه ، ص 161.

[6]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

ج / كلام الله تعالى .

لقد كانت هذه الصفة من صفات الله تعالى مثارا لخلاف شديد بين المسلمين لعله لم يقع مثله في أيّة صفة أخرى[1]،وكان أكبر انعكاس لها في الفتنة التي وقعت في أيام الخليفة العباسي المأمون(*) ، بين المعتزلة والحنابلة، وسميت بفتنة خلق القرآن ، حيث ألزم المعتزلة – وكانوا قوة سياسية – غيرهم على القول بخلق القرآن ، في حين أصر الحنابلة على القول بعكس ذلك ، وحاول أبو الحسن الأشعري بدوره التوسط في هذه المسألة بتقسيمه الكلام الإلهي إلى قسمين : نفسي ولفظي ، الأول صفة ذات ، والثاني صفة فعل.[2]

وبالنسبة لشخصيتنا،فإننا نجد أن اهتمام رشيد رضا – من خلال تتبعنا لموقفه من هذه المسألة – كان منصبا على نقد مذهب الأشاعرة وآرائهم فيها ، معتبرا إياها فلسفة مردودة مخالفة لمذهب السّلف [3]ذلك :" أن أكثر متكلمي الأشاعرة قد عقدوها تعقيدا شديدا ، بما حاولوا به التوفيق بين نصوص أئمة السنة ونظريات العقل بقولهم إن الكلام نفسي ولفظي"[4]،وحقيقته أنه يطلق على قوة في النفس عنها يصدر الكلام اللفظي ، واختلفوا في أيهما الحقيقي وأيهما المجازي [5].

ولكن رشيد رضا يرد على هذا بتبيينه أن هذين النوعين – الكلام النفسي واللفظي – لا يعدو كونهما واحدا في نهاية المطاف ، إذ الحديث النفسي هو صورة الحديث اللفظي المسموع بالآذان عندما يؤديه اللّسان ، ويستدل على هذا الرأي بقوله :"فمن يرى في القرطاس : قفا نبكي من ذكري حبيب ومنزل ، يقول إن هذا كلام امرئ القيس ، ومن يسمع ذاك من لسان أي إنسان يقول ذلك ، و لم يقل أحد من العرب في هذا القول الذي كتب وعلّق على الكعبة ثم كتب في الصحف وقرأه الناس ، إن لفظه المرسوم في الصحيفة هو كلام الراسم ، وإن الذي أنشد على الناس منه هو كلام المنشد ، وإن معناه لامرئ القيس فقط، أو أن ما تمثل من هذا النظم في نفس امرئ القيس هو شعره ، وما نقرؤه في الكتب أو من حفظنا لمعلقته هو كلامنا ، ولا إن هذا

---

[1]- عبد المجيد النجار ، الإيمان بالله وأثره في الحياة ، ص 148.

*- المأمون : (170-218هـ / 786- 833 م) هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور ، أبو العباس ، سابع الخلفاء من بني العباس في العراق وأحد أعاظم الملوك ، في سيرته وعلمه وسعة ملكه ، ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين فتمم ما بدأ به جده المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة ، وأتحف ملوك الروم بالهدايا سائلا أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه كتب أفلاطون وأرسطو وغيرهم ، فترجمت وحث الناس على قراءتها ، فقامت دولة الحكمة في عهده ، فقرب العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والأنساب وأطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلاسفة ، وفي عهده عرفت الفتنة الكبيرة المسماة : فتنة خلق القرآن ، توفي في بذندون ودفن في طرطوس . الزركلي ، الأعلام ، ج 4 ص 142.

[2]- رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج9 ، ص178.

[3]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

[4]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

[5]- مجلة المنار ، مج3 ، ج4،ص 812.

كلامه مجازا،وذلك كلامه حقيقة ، بل أجمعوا على أن هذه القصيدة كلامه ، وأنه ليس لرواتها بالقول والكتابة حظ منها إلا النقل لكلام غيرهم "[1]

إن انتقاد رشيد رضا لرأي الأشاعرة هذا يجعل المسألة محسومة عنده سلفا لصالح الحنابلة ، فكلام الله تعالى هو صفة من صفات الذات ، لا من صفات الفعل ، وهذا يقتضي القول بالتفويض ، والواجب على المسلم وصفه تعالى بكل ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ ، وإسناد ما أسنده إليه كلامه وكلام رسوله مع الجزم بالتنزيه ، وكونه ليس كمثله شيء كما نزه نفسه وقامت البراهين العقلية على تنزيهه. [2]

ثالثا : أفعال العباد .

وهذه قضية أخرى من القضايا التي وقع فيها الجدل بين مختلف الفرق الإسلامية ، حيث ذهب الجهمية (*) إلى القول إن الإنسان مسلوب الإرادة والحرية مطلقا وهو كالريشة في مهب الريح ، وذهب المعتزلة إلى أن الإنسان هو الذي يخلق أفعاله خيرها وشرها تهربا من نسبة خلق الشر لله تعالى وظلمه لعباده ، وقابلهم الحنابلة والمحدثين بالقول بخلق الله لأفعال الإنسان مع علم سابق بوقوعها من هذا الأخير ، وامتاز الأشاعرة أخيرا بإحداث نظرية الكسب وهي أن الأفعال مخلوقة من قبل الله مكتسبة من قبل الإنسان بقدرة حادثة له [3]، فماذا كان من رشيد رضا في هذه المسألة ؟

يشير رشيد رضا في بداية عرضه لهذه المسألة إلى أن المسلمين ، ليسوا الوحيدين الذين ابتلوا بها ، وأنها من أعقد المسائل الإنسانية ليس لكونها لم يوصل إلى قول فصل فيها ، بل لأن الجهل بحقيقتها تابع لسعة العلم بمباحثها ، فكلما زاد الإنسان نظرا فيها زاد عماية عنها [4]، والسبب في ذلك – حسب رشيد رضا دائما – أن هذه المسألة بديهية في نفسها عوملت معاملة النظريات ، والبديهي كلما زاد البحث فيه بعد عن الإدراك. [5]

ومن هذا المنطلق ، وجدنا رشيد رضا قد تناول هذه المسألة في تفسيره ، بأسلوب أكثر حدّة من ذي قبل ، و لم نلمس فيه تلك الرّوح المتفتحة ، التي أظهرها في تناوله لسائر المسائل التي تناولها

---

[1]- مجلة المنار ، مج9،ج21، ص472.

[2]- المصدر نفسه ، ص 475.

*- الجهمية : فرقة من الجبرية الخالصة ، وهم أصحاب أبي محرز جهم بن صفوان الراسبي الذي تتلمذ على الجعد بن درهم أول من قال بخلق القرآن ، عمل جهم كاتبا لدى الحارث بن سريج الذي خرج في خراسان في آخر أيام دولة بني أمية ،ومن مبادئ مذهبه أنه قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال ، وأنكر الاستطاعات كلها، وقال إن الجنة والنار تفنيان ، وقال في الإيمان إنه المعرفة بالله فقط كما أن الكفر هو الجهل به فقط ، ولا يوصف الله تعالى بوصف يجوز إطلاقه على غيره كشيء موجود ، وعالم مريد ...وقال بحدوث كلام الله تعالى ، راجع أمير علي مهنا ، علي خريس : جامع الفرق والمذاهب الإسلامية ، ص73.

[3]- راجع : عبد العزيز المجدوب : أفعال العباد في القرآن الكريم ، د ط ، الدار العربية للكتاب ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1985.

[4]- مجلة المنار ، مج 3 ، ج4 ، ص491.

[5]- المصدر نفسه ، ص491.

سابقا ، مع أنها كانت تتميز بنفس درجة الاختلاف والمنابذة بين المتكلمين القدامى ، ولم نستطع فهم سبب هذا الموقف من رشيد رضا ، حيث لم يبينه . فقد قال بعد أن تعرض لأقوال أصحاب بعض المذاهب في معرض تفسيره لآية :﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾[1] التي كانت كما يقول من أكبر الآيات التي وقع حولها جدل كبير بين المتكلمين :" أبدأ ما أريد من بيان العبرة في هذا الكلام باستغفار الله تعالى من نقله ولو مع حسن النية ، لما فيه من سوء التعبير والبعد عن الأدب مع الخالق العظيم العزيز الحكيم ، وبالاستعاذة بالله من عصبية المذاهب التي توقع صاحبها في مثل هذا وفيما هو شر منه "[2]،وبعد هذا الكلام نجد رشيد رضا يتبنى مذهب الحنابلة من غير أن تكون له أية إضافة تذكر ، ففي مسألة الوجوب مثلا يقول :" مسألة الوجوب على الله تعالى وتبرؤ الأشاعرة منها ، وقول المعتزلة بها ، مذهب السلف الصالح هو الحق في هذه المسألة ، وما كانوا ينكرون الوجوب ولا يقولون به على إطلاقه ، وإنما مذهبهم أنه لا يجب على الله تعالى إلا ما أوجبه وكتبه على نفسه ، وما هو مقتضى صفاته ومتعلقاتها".[3]

ويقول بعد ذلك في مسألة الحسن والقبح :" ولا يخلق الله تعالى شيئا قبيحا ولا شرا بل هو : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[4] فالخير كله بيده ، والشر ليس إليه ، وإنما يطلق الشر والقبح على بعض الأعمال التي تقع من المكلفين أو عليهم".[5]

ويجمل رأيه أخيرا في مسألة أفعال العباد فيقول :" وجملة القول أن الله تعالى خالق كل شيء ، وأنه يخلق بقدر ونظام وحكمة وسنن ، لا أنفا ولا جزافا ، ولا عبثا ، وأنه خلق الإنسان قادرا مريدا فاعلا بالاختيار...وأن أفعاله تسند إليه ، ويوصف بها لأنها تقوم به وتصدر عنه باختياره ، لا لأنه يحلها ، وتنسب إلى مشيئة الله تعالى من حيث إنه هو الخالق له بهذه الصفات ، والمعطي له هذا التصرف والاختيار".[6]

ورشيد رضا بهذا الرأي العام يتجنب كثيرا التدخل بنفسه في معالجته لهذه المسائل كما يشير إلى ذلك المراكشي ، واكتفى بسوق الآراء لبعض العلماء القدامى ، مؤثرا في ذلك النقل على العقل والرأي الشخصي خصوصا في هذه المسألة العقدية الشائكة.[7]

---

[1]- سورة الأنعام ، الآية 125.
[2]- تفسير المنار ، ج8 ، ص 50.
[3]- المصدر نفسه ، ص 56.
[4]- سورة طه، الآية 50.
[5]- تفسير المنار ، ج8 ، ص 56.
[6]- المصدر نفسه ، ج 8 ، ص 56.
[7]- الشوابكة ، تفكير رشيد رضا ، ص 272.

رابعا : مسألة الإيمان .

نختم كلامنا في عرض مواقف رشيد رضا من بعض المسائل العقدية ، بهذه المسألة التي كانت بدورها محل جدل بين المتكلمين ، وإن كانت لم تبلغ من الحدة ما بلغته المسائل المذكورة سلفا .

ولم ينشغل رشيد رضا بدوره في تناول هذه القضية بما انشغل به المتكلمون القدامى من كون العمل يدخل في مسمى الإيمان أم لا؟ فبالنسبة له الأمر محسوم في أن الإيمان يتمثل في الإذعان النفسي،والشعور القلبي ،يتبعها الزيادة في العمل[1] ،أي أن الإيمان تصديق وقول وعمل،وإنما الذي انشغل به واهتم له هي مسألة أخرى تتعلق بجانب التصديق ،حيث نلاحظ أن رشيد رضا يطلق عليه تارة اسم الإيمان القلبي ، وتارة أخرى اسم الإيمان النفسي[2]،وقد ذهب في هذه المسألة إلى أن هذا الإيمان يزيد وينقص،وذلك عكس القائلين بخلاف هذا وعلى رأسهم أبو حنيفة النعمان وأبو منصور الماتريدي(*)الذي يرى أن الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالجنان..ويستدل رشيد رضا على رأيه هذا بطلب إبراهيم عليه السلام لربه أن يريه كيف يحيي الموتى:"فإن إبراهيم كان مؤمنا بإحياء الله للموتى لما دعاه أن يريه كيف يحييها ف:﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[3] فمقام الطمأنينة في الإيمان يزيد على ما دونه من الإيمان المطلق قوة وكمالا".[4]

وخلاصة ما نقوله عن أراء رشيد رضا في العقيدة أنه كثيرا ما كان يرجع إلى آراء الحنابلة ، خصوصا في المسائل التي وقع فيها خلاف شائك بين الفرق الإسلامية ، ويمكن أن يرجع سبب ذلك – حسب رأينا – إلى طبيعة المرحلة الزمنية التي كان يعيشها العالم الإسلامي آنذاك ، والتي تقتضي جمع المسلمين على رأي واحد قدر المستطاع ،ولقد كانت مجلة المنار مؤهلة لذلك ، نظرا لانتشارها الواسع في سائر أطراف العالم الإسلامي ، وما كانت تحضى به من قبول عام بين المسلمين ، هذا أولا.

وثانيا : وهو ما أشرنا إليه سابقا من أن الرؤية الإصلاحية التي انتهجها ، تقتضي منه العودة باستمرار إلى النصوص التي تعد الفاصل بين المختلفين ، وفهمها كما هي ، طالما أن المرتكزات التي اعتمدها المتكلمون القدامى قد حادت – بوجود بعض الظروف –عن أهم أهدافها التي سعوا

---

[1]- تفسير المنار،ج4،ص241.

[2]-المصدر نفسه ،ج9،ص591.

* - الماتريدي(238-333هـ/852-944م)هو أبو منصور محمد بن محمود الماتريدي،نسبة إلى القرية التي ولد فيها واسمها ماتريد ،وهي من قرى سمرقند ،تفقه في العلم على أئمة العلماء في عصره الذين أخذوا العلم عن سلسلة تنتهي إلى الإمام أبي حنيفة النعمان ،وقد عكف هؤلاء المشايخ على تلقي كتب أبي حنيفة في أصول العقائد ودراستها ،وقد كانت هذه المؤلفات بمثابة بيان لعقيدة أهل السنة من غير دليل ولا برهان ،لكنها تحولت على يد الماتريدي من عقيدة إلى علم أي علم كلام ،فكان هو متكلم مدرسة أبي حنيفة ،ورئيس أهل السنة في بلاد ما وراء النهر ،وأصبح المتكلمون على مذهب أبي حنيفة فيما وراء النهر يسمون الماتريدية.راجع :فتح الله خلف،مقدمة كتاب التوحيد للماتريدي،ط2،دار المشرق،بيروت،لبنان،دت ص5.

[3]- سورة البقرة، الآية 260.

[4]- تفسير المنار ج 9 ، ص 241.

من أجل تحقيقها وهي الدفاع عن العقيدة الإسلامية ، وجمع كلمة المسلمين ، إلا أن هذا لم يمنع رشيدا رضا من الأخذ بآراء المذاهب العقدية الأخرى في بعض المسائل .

والأمر الثالث وهو المهم ، يكمن في كون رشيد رضا لم يتخذ موقفه الثاني ، إلا بعدما انتبه إلى أن الوسيلة التي كان يعتمد عليها علماء العقيدة في تقرير العقائد – ونقصد بهذا علم العقيدة الإسلامية، أو علم الكلام – لم يعد يجدي نفعا أمام التحديات التي تواجه المجتمع الإسلامي الحديث ، والعقيدة الإسلامية بالدرجة الأولى ، وهذا ما أدى به إلى اتخاذ موقف آخر زيادة على موقفه الأول المتمثل في رجوعه إلى المذهب الحنبلي في العقيدة، حيث دعا إلى إعادة النظر في هذا العلم ، وإعادة صياغته بما يلائم المرحلة المعاشة ، وبعبارة أخرى :فقد دعا رشيد رضا إلى تجديد علم الكلام ، فلماذا هذا الموقف يا ترى ، وما هي مقترحاته في هذا ، وهل كان هو بنفسه مجددا لهذا العلم ؟ هذا ما سنعرفه في ما يلي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني:دعوته التجديدية في علم العقيدة الإسلامية،ومنهجه المقترح.

قد يبدو من الوهلة الأولى أن الكلام في هذا الأمر يعد أمرا لامعقولا، ذلك أن أصل هذه الفكرة بالنسبة للكثير من المثقفين ،وحتى بعض المشتغلين بفكر رشيد رضا مرفوضة،بل إن الكلام فيها يحسب من المتناقضات،إذ كيف يعقل أن يكون رشيد رضا داعيا للتجديد في علم الكلام،والحال أنه ينسب إلى تيار فكري وعقدي من أهم مبادئه رفض هذا العلم جملة ،أو جملة وتفصيلا؟

بالنسبة لنا الأمر يحتاج إلى إيضاح واستقراء دقيق لكل ما أنتجه رشيد رضا ،فرغم أنه لم يترك لنا مؤلفات مفردة في علم الكلام،تكون مصدرا مباشرا لنا في إثبات ما نريد إثباته،إلا أننا نجد في باقي منتجاته الفكرية ما يمكننا أن نعتمد عليه في مقصدنا هذا، وسنفصّل هذه المسألة بما يلي:

الفرع الأول:رشيد رضا وقضية التجديد.

إذا كنا ننوي التركيز في حديثنا هنا على قضية تجديد علم العقيدة الإسلامية عند محمد رشيد رضا ،فإننا نرى أنه من الأليق لنا أن نعرف أولا رأي رشيد رضا في مسألة التجديد بشكلها العام،خاصة إذا عرفنا أن زمن رشيد رضا امتاز بكثرة دعوة المثقفين والمتعلمين تعليما عصريا إلى ضرورة تجديد حال المسلمين للخروج من حالة التخلف والجهل التي هم عليها ،إلى حالة التحضر والمدنية التي رأوها عند المجتمعات الغربية والأوربية خصوصا ،فكيف يرى رشيد رضا قضية التجديد؟

إن من يطالع ما أنتجه رشيد رضا خصوصا في مجلة المنار،يرى مدى حرصه الشديد واهتمامه بهذه المسألة ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على إيمانه بأهمية التجديد وبضرورته الحضارية،ذلك أنه هو الذي يجسد الحركية التي يمتاز بها الكون بصورة أشمل ،فالتجديد بالنسبة لرشيد رضا هو من السنن الإلهية العامة في الكون[1] ولايستثنى منها أي موجود حتى الجماد.

والأمة الإسلامية إزاء ما تعيشه من تخلف وضعف ليست بمنأى عن هذا الأمر ،فلا بد لها للخروج مما هي فيه من التجديد ،وهنا نجد رشيد رضا يدعو إلى تجديد يشمل كل جوانب الحياة،فلا بد من تجديد سياسي واجتماعي ومدني وديني [2]،باعتبار أن كل هذه الجوانب:"حاجة من حاج الجماعات البشرية بمقتضى غرائزها واستعداد نوعها ،به يرتقون في مدارج العمران،ويصعدون في معارج العلم والعرفان"[3]،ولكن وإن كان رشيد رضا يدعو إلى تجديد

---

[1]-مجلة المنار،مج31،ج10،ص210.
[2]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[3]-المصدر نفسه،ص211.

شامل ،إلا أنه يشترط فيه أن يكون تجديدا استقلاليا لا تقليديا[1]،ومعنى هذا الشرط أن يكون تجديدا ذاتيا يعتمد على ما يمتلكه المجتمع الإسلامي من مؤهلات وإمكانات يحقق له النمو والتطور،ويحفظ له مقوماته الثقافية والتشريعية واللغوية ،وهذا هو التجديد الاستقلالي،ولا يكون تجديدا مقتبسا من المجتمعات الغير إسلامية تخالف ما يملكه المجتمع الإسلامي من قيم ومبادئ،فيصبح همّ التجديد بذلك منصبا على أمور هي التي ستضعف دولة الإسلام،وتذهب باستقلالها ،ويقصد رشيد رضا بهذا الإلحاد والإباحة والتهتك والخلاعة [2]،وهذا هو التجديد التقليدي.

ثم إن رشيد رضا إلى جانب اهتمامه بمسألة التجديد ،نجده يركز على جانب التجديد الديني،باعتباره الجامع لسائر الجوانب الباقية ، وكذا نظرا للمكانة التي يحتلها الدين عند المسلمين،ولكن كيف يجدد الدّين ،وما الذي يجدد فيه ؟ يجيب رشيد رضا على هذا بأن :"من طباع البشر أن يضعف تأثير الوحي في قلوبهم،بطول الأمد على عهد النبوة فيفسقوا عن أمر ربهم ويتأولوا كتبه بأهوائهم"[3] ،فيكون بذلك تجديد الدين عبارة عن :"تجديد هدايته ،وبيان حقيقته وحقّيّته ونفي ما يعرض لأهله من البدع أو الغلو فيه ،أو الفتور في إقامته ومراعاة مصالح الخلق وسنن الاجتماع و العمران في شريعته"[4]

وما دام الدّين الإسلامي هو الدّين الإلهي الخاتم ،فقد تكفل الله تعالى بالمحافظة على هدايته ونوره، وذلك بأن بعث بعد عصر النبوة مجدّدين ومحيين له مصداقا لما بشر به النبي محمدﷺ بقوله:"إن الله يبعث في هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها"[5]

واعتمادا على هذا الحديث الشريف ،يؤكد رشيد رضا بأن الأمة الإسلامية لم تخل من مجددين عبر كافة أزمنتها كلما أبلى الناس من لباس الدين،وهدموا من بنيان العدل بين الناس[6]،فكان منهم مجددون في مختلف المجالات،كعمر بن عبد العزيز (*)في السّياسة وأحمد بن

---

[1]- مصدر سابق ،ص 211.
[2]- المصدر نفسه،مج 31،ج10،ص212.
[3]-رشيد رضا ،تاريخ الإمام محمد عبده،ج1،ص"ب".
[4]-مجلة المنار،مج31،ج10،ص214.
[5]-رواه أبو داود ،كتاب الملاحم ،باب ما يذكر في قرن المائة،ج4 ، ص 424.
[6]- رشيد رضا ،تاريخ الأستاذ الإمام ،ج1،ص"ج".
*-عمر بن عبد العزيز(61-101هـ/681-720م) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي ،الخليفة الأموي الصالح ،وخامس الخلفاء الراشدين،ولد ونشأ في المدينة،وولي إمارتها للوليد بن عبد الملك،ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام،وولي الخلافة بعهد من سليمان= =سنة (99هـ) فأمن الناس في عهده ،ومنع سب الإمام علي على المنابر ،وكان هذا عمل من تقدمه من خلفاء بني أمية ،دامت مدة خلافته سنتين ونصف،حيث توفي بعد أن دس السم في طعامه .راجع الزركلي،الأعلام ،ج5،ص50.

حنبل ،وأبو الحسن الأشعـــري ،وأبو حـــامد الغزالي ، وابن تيمية في الدين ،وصـــلاح الـــدين الأيوبي (*)،في الجهاد الحربي[1] وغيرهم.

وحينما يصل الأمر إلى زمنه ، فإننا لا نجد رشيد رضا يتوانى عن ذكر أعظم مجددين عرفهمـــا العالم الإسلامي آنذاك وهما : جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، فهما بالنسبة له قد اقتبسا مـــن مشكاة النبوة ما لم يتيسر لغيرها وكانا بحق أعظم مجددين،ولنستمع إلى رشيد رضا وهو يصـــفهما بقوله:"وأما الشيخ محمد عبده،فكان يشعر بأن كلّما أصابه من حسن تربية الشيخ درويش ...دون ما تسمو إليه نفسه ، ويتطلع إليه عقله ، وتضطلع به همته ، وكان يطلبه بما استطاع من الوســـائل ولا يجده ، ذلك أن روحه كانت مستشرفة للعرفان الذي يصعد بها إلى سماء الوراثـــة النبويـــة في إصلاح البشر،وتجديد أمر الدّين الذي بشَّر به المصلح الأعظم ﷺ ، فاتصل بالسّيّد جمال الدين من ذلك اليوم حتى اقتبسه منه وكان خليفته فيه".[2]

وكما ورث محمد عبده مـــا ورثه من أمـــر التجديد من شيخه الأفغاني ، ورثه رشيد رضا بدوره عن شيخه محمد عبده ، وهذا مـــا صرح به رشيد حين قال :" إن عملـــي في الإصـــلاح والتجديد متمم لعمله ، كما كان عمله متمما لعمل السّيد جمال الدين مـــن الوجهـــة الدينيـــة والمدنية".[3]

وانطلاقا من هذا فإن رشيد رضا يحسب نفسه من جملة المجددين للدين الإسلامي ، وهذا مـــا أكده في موضع آخـــر حين قال :" ..وبهذا المعنى أعد نفسي داعية تجديد ديني ومدني ، وعـــدوا مجاهدا للجمود على التقليد ، والإصرار على ما ثبت بطلانه أو ضرره من القديم" [4] ، وقد كان كذلك فرشيد رضا ما فتئ طوال حيـــاته الإصلاحية في مصر يدعو إلى تجديد حـــال المسلمين ، ولم يتوان لحظة في تقديم مقترحـــاته في أيّ مجـــال من المجالات التي تهمُّ صالح المسلمين ، فجـــدد في السياسة نظريا وعمليا من خلال كتابه الخلافة ، وسائر مشاركاته السياسية ، وجدد في التربية والتعليم من خـــلال دار الدعوة والإرشاد ، وجدد في مجالات الدين من خلال التفسير والفتاوى، ولكن ما هو نصيب العقيدة الإسلامية من هذا التجديد ؟

---

*- صلاح الدين الأيوبي:(532-589هـ/1137-1193م) هو يوسف بن محمد بن شاذي أبو المظفر ،كان أبوه وأهله يقيمون في قرية "دوين" شرق أذربيجان ،فنزلوا بتكريت ،وبها ولد صلاح الدين،أما نشأته ،فكانت بدمشق ،حيث تفقه وتأدب وروى الحديث بها،دخل بعدها مع أبيه وعمه في خدمة نور الدين محمود صاحب دمشق،واشترك في حملة وجهها هذا الأخير للاستيلاء على مصر ،فظهرت مزايا صلاح الدين العسكرية ،وبعد موت عمه الذي كان قائدا للجيش ،عينه الخليفة الفاطمي العاضد لقيادة جيشه ،فصد هجمات الإفرنج ، وبعد وفاة العاضد اضطربت البلاد الشامية والجزيرة،فدعي صلاح الدين لضبطها ،فكان سعيه يتمثل في أمرين :الإصلاح الداخلي في مصر والشام،ودفع غارات الصليبيين،وتحقق له الأمران معا بفضل حنكته ،ومن أعظم ما قام به :استرداد القدس من أيدي الصليبيين ،وتوفي بعدها بمدة وكانت وفاته بدمشق.الزركلي،الأعلام،ج8،ص220.

[1]- رشيد رضا ،تاريخ الأستاذ الإمام ،ج1،ص"ج".

[2]- المصدر نفسه ، ج1 ، ص "ج".

[3]- المصدر نفسه ، ص 995.

[4]- أدونيس وخالدة سعيد ، ديوان النهضة محمد رشيد رضا ، ط1 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، 1983، ص 76.

الفرع الثاني:موقفه من تجديد علم العقيدة الإسلامية.

لقد تعـــالت الأصوات الدّاعية للتجديد في علم العقيدة الإســـلامية منذ أن استعاد المسلمون وعيهم الحضاري منذ أكثر من قرن ،وقد كانت هناك محاولات عديدة في هذا الصدد ،قام بها عدد من رواد التجديد في العـــالم الإسلامي،كان منطلقهم فيها يقوم على أمرين اثنين :أهمهما مـــــا يتعلق بالمتغيرات الحـــديثة التي أحدثها غير المسلمين بوأهم مـــركز الصدارة الحضارية التي كانت للمسلمين في وقت ما ،كان لها تأثير خطير على الدين الإسلامي والعقيدة الإسلامية علـــى وجـــه الخصوص ،وإذا كنا توصلنا فيما سبق من الكلام إلى أن رشيدا رضا كما صرح بنفسه كان مـــن جملة المجددين ،فما هو موقفه من التجديد في هذا العلم؟

لا بأس علينا قبل أن نخوض في الإجـــابة على هذا السؤال ،أن نقدم لـــه بمقدمـــة منهجيـــة نستعرض فيها باختصار جهود العلماء المسلمين في التجديد في هذا العلم ،لأننا نرى أنه لا يمكن أن نعرف محاولة رشيد رضا في تجديد علم العقيدة الإسلامية مبتورة عن سياقها التاريخي.

إذ يجمع الباحثون على أن بدايات التجديد في عـــلم العقيدة الإسلامية تعود إلى القرن الثالث عشر الهجري،الثامن عشر الميلادي،ويعتبرون أن محمد بن عبد الوهاب أول رائد في هذا المجال،ومع أن الباحثين غير متفقين على أن ابن عبد الوهاب مجددٌ،حيث يعتبره الكثـــيرون مصلحا،باعتبار أن عمله كان يهدف بالأساس إلى تصحيح العقيدة الإســـلامية مـــن التـــأثيرات الخارجيـــة الـــتي خالطتها،وردها إلى الأصل الذي كانت عليها في عهد السّلف الصـــالح ،زيادة على موقفه الـــذي وقفه إزاء علم الكلام ، ومنـــاهج الاستدلال الكلامية ، حيث رفض استعمال القيـــاس رفضـــا مطلقا [1]ولو كان صحيحا،كما رفض طرائق البرهان على مسائل العقيدة الإســـلامية[2] ، الـــتي اعتمد عليها المتكلمون،وكانت في أغلبها أدلة عقلية أو فلسفية .

ورغـــم أن دعوة محمد بن عبد الوهاب التصحيحية لم تكن تعتمد على نظرة ثاقبة وشـــاملة للمتغيرات الحديثة ،ويعود هذا بالتأكيد إلى سبب منطقي وهو تأثير البيئة والمحيط،حيث كان بعيدا عن قلب العـــالم الحديث الذي يعج بأمور جديدة لم تكن مألوفة من قبل[3]،إلا أنها كانت خطوة جـــريئة جدا فتحت المجال لمن جاءوا بعده لمواصلة هذا الطريق ،وقد كان جمال الدين الأفغاني هو الرجل الثاني في هذه المهمة.

---

[1]- محمد عمارة ، تيارات الفكر الإسلامي ، ص255.
[2]- فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1982، ص191.
[3]- المرجع نفسه،ص193.

ويمكن القول إن جمال الدين الأفغاني هو الذي رسم المعالم الأولى لتجديد علم الكلام،فبالإضافة إلى أنه دعا إلى يقظة شاملة للأمة الإسلامية في سائر المجالات ،فقد ركز بالخصوص على العقيدة الإسلامية باعتبارها المحرك الفاعل لهذه اليقظة،والأساس الأول الذي يقوم به العمران ويصلح به المجتمع ، ومن هنا فقد كان إدراج قضية الوظيفة الاجتماعية للدين من أهم المواضيع التي سيهتم بها علم الكلام الجديد [1]،إضافة إلى قضية ثانية ركز عليها جمال الدين الأفغاني وتتعلق بمناقشة الماديين أو النتشريين كما يسميهم في قضايا معاصرة لم يتطرق إليها من قبل ، كأصل المادة من حيث الأزلية والحدوث ،وأصل الإنسان بين الخلق والتطور.[2]

جاء محمد عبده بعد جمال الدين الأفغاني وقد وعى عنه ما بدأ به ،فلقد أدرك عبده أنه لا يمكن أن تتحقق للمسلمين مدنية ولا يمكن أن يقوم لهم عمران ،وهم على ما هم عليه من ضعف وفرقة واختلاف وجهل، فكان أن سخر حياته لإصلاح حالة المسلمين تلك بالتركيز على التربية والتعليم ،وكانت ثمرة هذه الجهود التي بذلها تأليفه في آخر حياته لرسالة التوحيد .

لقد اعتبرت رسالة التوحيد أوّل محاولة معاصرة جادة للتجديد في علم الكلام ، بأسلوب ومنهج يختلف كليا عن أسلوب ومنهج المتكلمين القدامى ، فبالإضافة إلى أنها ركزت على تبيين البعد الاجتماعي والوظيفة الاجتماعية للعقيدة الإسلامية ،فقد استطاعت أن تعرض مسائل العقيدة الإسلامية التي كانت شائكة لدى المتكلمين القدامى ،بأسلوب لا يظهر أن فيها أقوالا ومذاهب من أجلها حدث ذلك التنافر الكبير بين أولئك المتكلمين ، أوكما قال محمد فريد وجدي:"إنها –رسالة التوحيد– تشير إلى أكبر معارك الفلاسفة مع الأديان مع تقرير ما يوافق الإسلام منها ورد ما يخالفه من غير تصريح بأن هنالك مباحث وشبهات مشكلة "[3] ، لقد كان أهم ما ميز رسالة التوحيد كمؤلف كلامي جديد هو تحررها من المذهبية ،ذلك أنها بتعبير سالم يفوت:"كانت أفكارها تأتي جوابا لأسئلة يطرحها الحاضر والمستقبل بإلحاح من مطلب التقدم وراهنيّته".[4]

يمكن القول بهذا إن هذه العينات الثلاثة التي ذكرناها هي أهم المحاولات في تجديد علم العقيدة الإسلامية التي سبقت زمن رشيد رضا ،باعتبار أن هذين الأخيرين كانا قريبين جدا من الناحية العلمية من رشيد رضا ،إذ كانا أستاذاه ،فكيف تعامل رشيد رضا مع موضوع تجديد علم العقيدة الإسلامية؟

---

[1]-محمد صالح محمد سيد،إعادة بناء علم التوحيد عند الإمام محمد عبده ،دط،دار قباء،مصر ،1998،ص83.
[2]- فهمي جدعان،مرجع سابق،ص193.
[3]-محمد عبده ،رسالة التوحيد ،تحقيق وتقديم محمد رشيد رضا ،ط1،دار ابن حزم ،بيروت ،لبنان ،2001،ص29.
[4]-سالم يفوت،مدخل لقراءة رسالة التوحيد، http//www.fikrwanakd.aljabiriabed.com/indexl.htm

هناك نظرة عامة لدى مجموعة من الباحثين في فكر رشيد رضا تقر بأنه قد اتخذ موقفا سلبيا من علم الكلام يتمثل في رفضه المطلق لهذا العلم ونفوره منه، فالمـــراكشي مثلا يذهب إلى أن رشيد رضا :" كان يقاوم كلّ جدل عقلي في مسائل العقيدة وينفر من علم الكلام أساسا "[1]،ويذهب الباحث الفرنسي جومياي بدوره إلى أن رشيد رضا كان مجتهدا في كل المجالات عدا العقيدة ، فهي عنده :"مساحة مقدسة وحرام لا يمكن إعمال الرأي فيها لأن حيزها سلطة الله مطلقا"[2] ، ويربط هؤلاء سبب موقف رشيد رضا هذا بأمرين اثنين : يتعلق الأمر الأول بانتمائه الفكري للمدرسة الحنبلية التي لهـــا موقف صارم من علم الكلام ، حيث يقول المراكشي :"وهكذا فإن رشيدا رضا تابع منهاج الحنابلة ، وخاصة منهم ابن تيمية في دراسة بعض العقائد...فالعقائد عنده كما هي عند ابن تيمية لا مجال فيها للشبهة والتأمل الفلسفي والحيرة ، لأن منبعها الصحيح النقل وليس العقل والمنطق الفلسفي ، ومجادلات أهل علم الكلام".[3]

وأما الأمر الثاني ،فيحاول فيه أصحابه ربط هذا الموقف من رشيد رضا بطبيعة تكوينه التقليدي،الذي يغلب عليه جانب العلوم النقلية على العلوم العقلية ، فحسب المراكشي دائما فإن رشيد رضا :"قد أبى الجدل الفلسفي في بعض المسائل الدينية كقضية حرية الإنسان والقضاء والقدر والخير والشر،بدعوى أنها تفسد معتقدات العامة،بينما يرجع سبب ذلك الأصلي إلى ضعف تكوينه الفلسفي الذي لم يخول له التحليل الفلسفي العميق لهذه المسائل"[4] ، أما محمد عمارة فيذهب من جهته — وهو رأي قديم – إلى أن تكوين رشيد رضا السلفي النصوصي قد عاد للظهور عنده،بعد أن كان قد اختفى أيام تواجده مع شيخه عبده،وقد صوره محمد عمارة في مثل تقريبي،بأنه تحول يمينا في المعارك الفكرية — والكلامية بدرجة أخص–بعد أن كان عكس ذلك في حياة أستاذه.[5]

ونحن الآن بدورنا نقول:قد يغتر الباحث في فكر رشيد رضا لما يجده من وفرة النصوص التي ينتقد فيها علم العقيدة الإسلامية،فينساق بوعي أو بغير وعي إلى اتخاذ الموقف نفسه الذي اتخذه النّفر الذين ذكرناهم آنفا،لكن هذا الموقف في حقيقته لا يمثل إلا وجها واحدا للعملة ،في حين يبقى الوجه الثاني هو الأهم،والذي لا يكون مدخله إلا بالإجابة على السؤال الآتي:هل اكتفى رشيد رضا بمجرد نقده لعلم الكلام،أم اتخذ موقفا آخر؟

---

[1]- المراكشي ، تفكير رشيد رضا ، ص 274.
[2]- المراكشي ، قراءات في الفكر العربي الحديث والمعاصر ، ص70.
[3]- المراكشي ، مرجع سابق ، ص273.
[4]- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
[5]- محمد عمارة ،مسلمون ثوار،ص455.

يمـــكننا القول بيقين إن رشيدا رضا لم يرفض علم الكلام على الإطلاق، بل العكس من ذلك فقد قام بخطوة متقدمة جدا ، تتمثل في دعوته للتجديد هذا العلم،وتفصيل الكلام على ما يلي :

نقول بداية إنه لا يمكننا أن ننكر أن البحث في هذه المســـألة من الصعوبة بمكان،ذلك أن رشيد رضا لم يترك لنا مؤلفات مستقلة في العقيدة الإسلامية أو في عـــلم الكلام،يمكننا الاعتماد عليها مباشـــرة،وهي الملاحظة التي استغلها بعض الباحثين،حين قرروا أن رشيد رضا ليس هو بالمفكر ولا بالمنظر في العقيدة الإسلامية،لكن يبدو أن للباحث الإنجليزي"تشارلز أدمز"[1] رأي آخر،فهو يقرر أن رشيد رضا لم يحاول كتابة مؤلفات مستقلة في الفلسفة أو في علم الكلام،ولكن نجده في نشره لمصنفات أستاذه،وفيما كتبه عليها من الحواشي والتعليقات ما يدل على تمكنه من المواضيع التي تناولها — وقد كان من بينها مواضيع في علم الكلام و الفلسفة — وهذا ما يصرح به رشيد رضا بنفسه على كل حال ، حين أكد أنه قد تغلغل في علم الكلام ونظر في الكتب التي هي منتهى هذا العلم[2]،وليس هذا فحسب،فقد كان لرشيد رضا ومنذ أوائل طلبه للعلم في طرابلس،تمكن متميز في علوم المنطق التي تعد من أهـــم دعائم علم الكلام التقليدي[3]،وهذا ما يتناقض كلية مع رأي المراكشي وجومياي اللذين رأيناهما سابقا.

ومن جهة أخرى،فإن كون رشيد رضا لم يصنف كتبا مستقلة في علم العقيدة الإسلامية ، لا يعني أنه لم يتعرض لقضايا هذا العلم البتة ،وقد رأينا فيما سبق لنا من الكلام بعضا منها ، على وجه المثال لا الحصر.

يمكننا أن نلحظ بسهولة انتقاد رشيد رضا لعلم الكلام ، فهو لا يدع مناسبة مواتية للحديث ، إلا ويبين رأيه فيه ويمكننا أن نقول إن جملة انتقاداته لعلم الكلام تتمحور حول أمرين اثنين هما:النظريات الكلامية ، وطبيعة المتكلمين .

ففيما يخص الأولى ، نجده يذهب إلى أن هذه النظريات الكلامية قد انقلبت إلى ضد ما وضعت لأجله، إذ بدلا من أن تكون وسيلة موصلة إلى الاعتقاد السليم المأخوذ من مصدري القرآن الكريم والسنة النبوية ، أصبحت بمرور الوقت هي محور الاعتقاد الذي يجب الإيمان به [4] ، وغدا القرآن الكريم والسنة النبوية تابعين لهذه النظريات يفهمان وفقها ، وعلى حسب حاجة الفهم ، وبعبارة أخرى : أصبحت النظريات الكلامية أصلا للاعتقاد ، والقرآن والسنة فرعا ، مع أن الله تعالى :"لم

---

[1]-تشارلز أدمز ،الإسلام والتجديد في مصر ،ترجمة عباس محمود،د م ن،ص171.
[2]- تفسير المنار،ج9،ص132.
[3]- شكيب أرسلان ، محمد رشيد رضا أو إخاء أربعين عاما ،ص44.
[4]- تفسير المنار ، ج9 ، ص 372.

يكلف أحدا من خلقه هذه النظريات الفلسفية الكلامية ، وإنما كلفهم الإيمان بجميع ما جاءهم به رسله عليهم السّلام".[1]

ثم إن ضرر هذه النظريات – حسب رشيد رضا –كان أكثر من نفعها ، فبالإضافة إلى أنها جعلت أصلا للاعتقاد، فإنها كانت أهم عامل لتفرق المسلمين الذي نهى عنه الشرع ، يقول رشيد رضا :"فالله تعالى قد شرع الدين لجميع أفراد الأمة ، وهذه الفلسفة الكلامية من دقائق النظريات الفكرية التي انفرد بالغوص عليها أفراد معدودون من أذكياء الأمم فتفرقوا فيها واختلفوا ، لأن التفرق والاختلاف من لوازمها البينة".[2]

ومن هنا راح رشيد رضا ينتقد سائر النظريات التي أحدثها المتكلمون في زمن الجدل لنصرة آرائهم ، وقد ألمحنا إلى بعضها فيما سبق ، ويمكننا أن نذكر من أمثلتها :نظرية الكسب الأشعري ، والكلام النفسي واللفظي ، والحسن والقبح الاعتزالي ، والجبر والاختيار ...

وأما الأمر الثاني الذي كان محل انتقاد رشيد رضا في علم الكلام ، فهو يتمثل في طبيعة المتكلمين،فقد ذهب إلى أن المتكلمين القدامى كان لهم دور ذو تأثير كبير في تدهور علم الكلام ، خصوصا في القرون المتأخرة بعدما تفشت فيهم ظاهرة التعصب ، الذي كان أسوأ أمر ابتلوا به ولولاه لما وقع كل ذلك التفرق المذموم الذي قصم ظهر المسلمين لقرون ، وزيادة على ذلك فإن الإسلام قد ضيع بسبب هذا التعصب من طاقات العلماء ما لو استغلت في خدمة الدين أحسن استغلال لعادت بالخير الكثير عليه وعلى المسلمين :"فالتعصب للمذاهب هو الذي صرف كثيرا من العلماء الأذكياء عن إفادة أنفسهم وأمتهم بفطنتهم ، وجعل كتبهم فتنة للمسلمين".[3]

وإذا كنا قد رأينا فيما سبق أن من أهم خصائص منهج رشيد رضا الفكرية هي :الاستقلالية الفكرية ، والاجتهاد اللذان يقابلان التعصب والتقليد ، فإنه رأى أن من واجبه وهو من جملة المجددين في الإسلام أن يجدد في هذا العلم ، أو على الأقل أن يبذل وسعا في تجديده ، ومن هنا فقد أكد رشيد رضا في أكثر من مناسبة أن هذا العلم لا بد له من تجديد وإعادة بناء بما يتوافق ومتطلبات المرحلة الزمنية المعاصرة التي تغيرت عن سابقتها تغيرا جذريا ، وفي هذا يقول رشيد رضا :"...فإذا كان كذلك ، فعلم الكلام تختلف الحاجة إليه باختلاف شبهات الخصوم، وقد تجدد في عصرنا هذا شبهات على الدين غير شبهات الفلسفة اليونانية التي ألّف علماء الكلام الأولون الكتب لدحضها، فيجب على خواص العلماء الذين يتصدون لدفع شبهات هذا العصر أن

---

[1]- مصدر سابق ، ج9 ، ص132.
[2]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
[3]- المصدر نفسه ، ج5 ، ص49.

يعرفوا العلوم التي نجمت منها ، ويردوها بالأدلة الرائجة عند أهلها"[1] ، ويقول في موضع آخر :" وقد تجدد في هذا العصر شبهات لم تكن معروفة في عصر المتكلمين السابقين ، وبطل كثير من تلك الشبهات التي كانت رائجة في عصرهم ، المستنبطة من العلوم اليونانية وغيرها ، فتجب العناية في هذا العلم – علم الكلام- بما يحتاج إليه في هذا الزمن على الطريقة التي ترجى فائدتها فيها"[2] ، ومن خلال هذين الشاهدين نفهم أن رشيد رضا يدعو إلى ضرورة تجديد علم الكلام بمنهج عصري يتلاءم وطبيعة التحديات التي تواجه العقيدة الإسلامية ، وهذا ما يدفعنا للتساؤل عن طبيعة المنهج الذي دعا إليه، فما هي مقترحاته المنهجية في تجديد علم العقيدة الإسلامية؟

الفرع الثالث : منهجه المقترح لتجديد علم العقيدة الإسلامية.

لقد سبق لنا وأن أشـــرنا إلى أن رشـــيدا رضا لم يترك لنـــا مؤلفات مفـــردة في العقيدة الإسلامية،نتخذها مصدرا مباشرا لنا في هذه الخطوة الحـــاسمة من موضوع بحثنا ، إلا أن هذا لا يعني خلو مكتبته من أعمال وبحوث تتعلق بهذا الجانب ، فبالإضافة إلى ما قلناه سابقا من أن تفسير المنار ومجلة المنار يحتويان على مادة علمية معتبرة، متكونة من مجموعة من البحوث والمقالات التي ناقش فيها رشيد رضا مختلف مسائل العقيدة وعلم الكلام ، نجد نوعا آخر من المادة العلمية التي يمكن أن نعتمد عليها هنا – وإن في إطار ضيّق جدًّا – والمتمثلة في مجموع الشّروح والحواشي التي كتبها وهو ينشر بعض الأعمال في مجال العقيدة ، خصوصا أعمال أستاذه عبده التي خصص لها الجزء الثاني من الكتاب الذي ألفه عنه بأكمله ، ومع هذا فقد ترك لنا رشيد رضا بعضا من الكتب المستقلة الأخرى يمكن الاعتماد عليها في موضوعنا هذا ، ولعل أبرزها كتاب الوحي المحمدي ، والذي سيكون أهم مصدر لنا نعتمد عليه لاحقا ، ونشـــير أيضا هنا إلى أنه قد كتب كتابا في العقيدة الإسلامية ، وضعه لإحدى الجمعيات – الجمعية الخيرية الإسلامية – بطلب من شيخه عبده ، الذي حرص أن يراعي فيه جـــانب التجديد.(*)

---

[1]- مجلة المنار ، مج33، ج2 ، ص125.

[2]- المصدر نفسه ، مج14، ج11، ص805.

*- يورد محمد عمارة مجموعة من الرسائل التي أرسلها محمد عبده إلى تلميذه محمد رشيد رضا بهذا الخصوص وهذا نصها :

الرسالة الأولى :"رأيت حسن باشا ، وتذاكرنا في كتابة الفقه والعقائد، فرأى رأيا لا يخلو من حسن ، وهو أن يكتب المجمع عليه في كل باب ، حتى في النجاسات ثم يكتب في حاشية الفصل من أسفل ما يهم من اختلاف المذاهب كلها ليكون ذلك هاديا إلى فهم الوحدة في تلك الكثرة ، فإذا سهل عليك ذلك فافعل ...

الرسالة الثانية :" حسن باشا أرسل يسألني اليوم هل شرعت في العمل لتحرير كتابي العقائد والفقه ، وأحب أن أجيبه ، فهل شرعت ؟وبودي أن يكون الجواب :نعم ، وأن يتم العمل في مدة قليلة.

الرسالة الثالثة :"ليتك تشتغل بهذا الكتاب ، أو بهذين الكتابين في القريب العاجل حتى يمكن وضعهما بين أيدي التلاميذ في أول الدراسة الآتية .انظر : محمد عمارة ، الأعمال الكاملة لمحمد عبده ، ج3 ، ص173.

ولعل أول ما يستوقفنا ونحن نتحدث عن منهج رشيد رضا التجديدي في علم الكلام ، الإشارة إلى أنه يفرق بين نوعين من العلوم التي تخص العقيدة الإسلامية وهما : علم الكلام وعلم التوحيد ، فما ماهية هذين العلمين بالنسبة له ؟

لا تختلف نظرة رشيد رضا لعلم الكلام عن النظرة العامة التي اتفق جل علماء العقيدة الإسلامية على وضعها لهذا العلم، فهو حين يعرّف هذا العلم يقول :" المراد بعلم الكلام : علم حماية العقائد الإسلامية والدفاع عنها ، ورد ما يورده الملاحدة والمبتدعة من الشبهات عليها والتحريف فيها بالدلائل الحقيقية والإلزامية"[1] ، فوظيفة علم الكلام إذن انطلاقا من هذا التعريف ينحصر في مبدإ أساسي واضح ، هو حماية العقيدة الإسلامية والدفاع عنها ضد كل الشبهات التي تحاك ضدها ، وهي الوظيفة نفسها التي سار عليها هذا العلم منذ نشأته ، وإذا كان الحال هذا فماذا يقصد رشيد رضا بعلم التوحيد ؟

ليس هناك شك في أن رشيد رضا يقصد بعلم التوحيد العقيدة الإسلامية ذاتها وتعاليمها ، فهو حين يعرفه يقول:" المراد بعلم التوحيد علم العقائد الإسلامية المبينة في القرآن الحكيم ، التي قامت بها دعوة الدين" [2] ، ويفهم من هذا التعريف أن غرض علم التوحيد هو إثبات العقائد الإسلامية المقررة في القرآن والسّنة النبوية فقط ،ويندرج تحت هذا العلم مباحث ثلاث وهي :الإلهيات،والنبوات ،والغيبيات [3]،ومن هنا يمكن القول إن الاختلاف الحاصل بين العلمين هو اختلاف وظيفي ،فالأوّل غرضه الدفاع ،والثاني غرضه الإثبات والتقرير ، ولا يعطينا رشيد رضا تفاصيل أخرى عن علم التوحيد هذا إلا أنه يؤكد أنه مطلوب لكل مسلم تحصيله،خصوصا العوام لأنه أسلم لهم لخلائه مما هو عليه علم الكلام .

نعود إلى علم الكلام فنقول :إن رشيد رضا قد اقترح أن يجدد هذا العلم من زاويتين :من زاوية التأليف ومن زاوية التدريس .

فأما فيما يخص التأليف،فإننا نجده يحرص على أن التأليف في علم الكلام الجديد ينبغي أن يراعى فيه أمران مهمان هما :تجنب التعقيد في عرض مسائل العقيدة الإسلامية واتباع منهج السهولة والتيسير هذا أولا ، وثانيا :تجنب التعرض للمسائل التي كانت محل خلاف شديد بين المتكلمين القدماء[4] ،ففيما يخص هذا الأخير فقد ذكر أدمز أن رشيد رضا قد اقترح على العلماء

---

[1]- مجلة المنار ، مج14 ، ج11 ، ص805.
[2]- المصدر نفسه ، ص 803.
[3]- المصدر نفسه،الصفحة نفسها.
[4]- تشارلز أدمز،الإسلام والتجديد في مصر ،ص182.

أن يؤلفوا كتابا جامعا لجميع العقائد والمبادئ الأدبية والأخلاقية التي أجمع عليها المسلمون من مختلف الفرق وأن يكتبوه في عبارة سهلة ...ويرى – رشيد رضا – أن هذا الكتاب يجب أن يشمل على أصول العقائد التي اتفق عليها المسلمون مع الإيجاز في التفاصيل ، وأن يسمح للمسلمين بالاختلاف في الأمور التي لم يقع عليها الإجماع [1]،وواضح من هذا أن رشيد رضا يهدف إلى توحيد النظر والفهم في هذا العلم ،بعد أن كان غير ذلك بسبب تعدد وجهات النظر واختلاف المناهج فيه،ويضاف إلى هذا الاستعانة بالعلوم الكونية والإنسانية الحديثة التي ظهرت حاجة المسلمين إليها ،لأنها لا تتعارض مع حقائق العقيدة الإسلامية ،بل توافقها وتؤيدها، وتبرهن على صدقها ،وبالتالي فالأخذ بهذه العلوم أصبح في حكم الواجب،وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.[2]

والحقيقة أن نظرة رشيد رضا هذه لمنهج التجديد الكلامي ،تبدو غامضة أحيانا ومتناقضة أحيانا أخرى،فبالرغم من أنه يفرق كما قلنا بين علم التوحيد وعلم الكلام ،أو بتعبير آخر بين العقيدة وعلم العقيدة،إلا أنه لايستثني علم التوحيد من قضية التجديد[3]،مع أنه يذهب إلى أن هذا العلم ثابت لأن مصدره القرآن والسنة، إلا أنه يجعل شروط التجديد فيه هي نفسها شروط التجديد في علم الكلام التي رأيناها سابقا .

ولا بد أن نقول أننا لا نستطيع أن نفك هذا الغموض أو التناقض طالما أننا لم نستطع أن نمتلك نموذج كتاب عن علم التوحيد من تأليف رشيد رضا ، ولعلنا لو استطعنا الوصول إلى الكتاب الذي كتبه بطلب أستاذه عبده –ونظن أنه يدخل فيما سماه هو بعلم التوحيد –لكنا أكثر دقة في تحليلنا ،ولما كان كلامنا مجرد افتراض ،ومع هذا فإن الشيء الذي نؤكده بيقين أنه يجعل لكل أحد هذين العلمين فئة من المشتغلين به،فعلم التوحيد موضوع للعامة من الناس ،وعلم الكلام موضوع للخاصة منهم ،وهم العلماء،لأنهم الأقدر على استيعابه والاشتغال به،يقول رشيد رضا :"إننا محتاجون في هذا العصر إلى نوعين من الكتب ...النوع الأول :كتب في عقائد الإسلام،وآدابه وعباداته تكون في غاية السهولة والبساطة ،لأجل تعليم التلاميذ والعوام من الرجال والنساء ولأجل المطالعة أيضا .

1- تشارلز أدمز ،مرجع سابق،ص182.
2- مجلة المنار، مج33 ، ج2 ، ص125.
3- المصدر نفسه ،مج14،ج11،ص125.

والنوع الثاني :كتب في بيان أصول الإسلام في الاعتقاد والتهذيب والتشريع مقرونة بأدلتها ووجه حـــاجة جميع البشر إليها في إصلاح جميع شؤونهم الشخصية والاجتماعية ،ورد جميع ما يرد عليها من الشبهات في هذا العصر"[1]،هذا فيما يخص منهج التأليف في علم الكلام الجديد.

وأما فيما يخص منهج تدريس هذا العلم ، فيمكننا القول إن المشروع الذي صاغه رشيد رضا لمدرسة دار الدعوة والإرشاد ، حول طرق تدريس العلوم الشرعية ومن بينها علم التوحيد وعلم الكلام ،هو أهم ما يمكن أن نعتمد عليه هنا ،وإن كان قد ذكره بإجمال كبير ،وعلى العموم فإن منهج التدريس في علم الكلام وعلم التوحـــيد ،الذي صـــاغه يتفق أو يكاد يتفق مع نظيره في منهج التـــأليف ،وذلك بمراعاة طبيعة المخاطبين،وقدرات استيعابهم لما يلقى إليهم ، يقول:"إن كتب الكلام المشهورة لم توضع لأجل تلقين المسلمين ما يجب عليهم اعتقاده ، وإنما وضعت لرد شبهات الفلاسفة والمبتدعة عن العقائد الإسلامية"[2]،ويشير رشيد رضا بهذا الكلام إلى الطرق التقليدية التي مـــا زال يعتمد عليها في التدريس في عصره ،خصوصا في المدارس والمعاهد الدينية ، بالاعتماد مباشـــرة على بعض أمهات كتب علم الكلام وأشهرها السنوسية وجوهرة التوحيد،بينما يرى أن طريقة التدريس في هذا العلم لا بد أن تتم كالآتي :

بالنسبة لعلم التوحيد ،وهو العلم الموضوع لعـــامة المسلمين :يلح فيه رشيد رضا على أن تلقين العقيدة فيه يجب أن لا يخـــرج على نطاق الكتـــاب والسنة ،وذلك بأن يعتمد فيه على آيات القرآن،والمأثور من الأحاديث وسير الصحابة وعلماء التابعين وأئمة الهدى قبل ظهور البدع ، ومن أكبر الضلال – حسب رشيد رضا – أن يعتمد فيها على أقوال المتكلمين[3] ، ويبين كذلك أن هذا العلم موضوع لطلاب العلم المبتدئين ، ولا يقتصر على العامة فحسب ، وطريقة تدريس علم التوحيد للمبتدئين تكون كما يلي[4]:

1-الإلهيات :اقترح رشيد رضا أن تدرس على هدي القرآن وسننه في الاستدلال بالكائنات أكثر من الاستدلال بالنظريات ، وعلى الوجه الذي يودع في القلوب حب الله تعالى وتعظيمه ومراقبته ، والجمع بين الرجاء الذي يرغب في الطاعة والخوف الذي ينفر من المعصية ،والاستغراق في توحيده ومعرفة كماله بصفاته .

---

[1]- مصدر سابق ،مج33،ج2،ص126.
[2]- يوسف أبيش،رحلات الإمام رشيد رضا ،ص30.
[3]- تفسير المنار ، ج11، ص 379.
[4]- مجلة المنار ،مج14،ج11،ص804.

2 - النبوات : وتدرس على الوجه الذي يعرف به احتياج البشر إلى إرسال الرسل ، وتفضيل الباري الحكيم بإتيانهم ما يحتاجون إليه من هذه الهداية التي تكمل بها فطرتهم ، بوحيه إلى أفراد كملتهم ، ليفقهوا عنهم ويهتدوا بهم ،فتصلح أحوالهم ،وترتقي عقولهم وأرواحهم ، ويتوقف ذلك على بيان أخلاق الرسل عليهم السّلام ، وصفاتهم وسيرتهم في أقوامهم ،ورفعهم إياهم من حضيض الوثنية إلى أوج التوحيد ،وعلى بيان مفاسد الوثنية التي كانوا عليها ، وبيان ارتقاء الدين بارتقاء استعداد البشر للاهتداء به إلى أن تم وكمل بالإسلام .

3-الغيبيات :وتدرس على الوجه الذي يعرف به الإنسان فوائد الإيمان بالغيب وحياة الآخرة الأبدية كتوسيع نطاق العقل بإخراجه من مضيق علم المحسوسات المشتركة بين كل ذي حس إلى فضاء مدارك الروح والعقل،وإعلاء مقام النفس بتوطينها وإعدادها لتلك الحياة العالية التي تحتقر بالنسبة إليها هذه الحياة الفانية.

هذه هي جل مقترحات رشيد رضا لتدريس علم التوحيد للعوام ولطلاب العلم المبتدئين ، ويلاحظ هنا أن هذا المشروع يهدف إلى محاولة فهم العقيدة الإسلامية فهما معاصرا ، يراعى فيه احتياجات الإنسان المعاصر للدين بصفة عامة وللعقيدة الإسلامية بصفة خاصة ، وفي الحقيقة فإنّ هذا هو المنهج العام الذّي سار رشيد رضا لإثباته ليس في مجال العقيدة فحسب ، بل حتى في سائر المجالات الأخرى.

وأمّا بالنسبة لعلم الكلام ،وهو العلم الموضوع لخاصة المسلمين وهم العلماء ، فإن رشيدا رضا يرى أن طريقة التدريس فيه تكون بالتوسع في رد الشبهات المتولدة من العلوم الرائجة في هذا العصر ،كالفلسفة والهيئة والتاريخ والقوانين ومجادلة أهل الأديان [1]،ولا يكون رد الشبهات المتولدة من هذه العلوم إلا بعد أن يتم تحصيل جيد لها ،وهو ما لا يقدره بالطبع إلا الخواص من الناس وهم العلماء.

لكن ومع هذا لا يجد رشيد رضا بأسا في تلقين هذا العلم للطلبة المبتدئين ، وذلك بأن يقرأ لهم رسالة مختصرة من كتب المتكلمين كالسنوسية والنسفية بحيث يفهمون عباراتها ويعرفون اصطلاحهم منها ، وذلك لأن هذه الكتب ليست بحجم التعقيد الموجود في أمهات الكتب الأخرى ويزيد رشيد رضا على ذلك بأن تقرأ عليهم رسالة أخرى تذكر فيها الشبهات الرائجة بين العامة في هذا العصر من قبل دعاة النصرانية والملاحدة مع بيان وجه بطلانها. [2]

---

[1] مجلة المنار ،مج14،ج11،ص804.
[2] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

وبناء على هذا الكلام وجدنا رشيدا رضا يذهب إلى ضرورة تجديد علم الكلام بمنهج عصري سماه : "منهج الاستقلال والاستدلال"[1] ، والغريب في الأمر أنه لم يفصل لنا ما يقصده بمنهج الاستقلال والاستدلال هذا و لم يشرحه ، لكن باستقرائنا لمحمل فكره ، يمكننا أن نفهم أنه يقصد بالاستقلال: التحرر الفكري والمذهبي، وعدم الانتماء إلى أيّ مذهب عقدي معين ، يكون الغاية التي يبذل لنصرته كل مجهود فكري ، وبالاستدلال: الاعتماد على الدلائل العلمية الحديثة التي يمكن من خلالها إثبات صحة العقيدة الإسلامية ، وتجاوز الأدلة الفلسفية والمنطقية القديمة التي اعتمدها المتكلمون والتي لم تعد تجدي نفعا أمام هذه العلوم الحديثة.

ويبقى الشيء الذي يحرص رشيد رضا على تأكيده ، أن هذا العلم لا ينبغي أن يلقى على العامة لأنه لا يتناسب ومداركهم ، بل لا يزيدهم إلا شكا في عقيدهم ، ويروي لنا أنه وقع له ذلك شخصيا حين حاول في مسجده بالقلمون شرح نظرية السنوسي في نفي الكموم الخمسة في التوحيد فاختلط على العامة ذلك ، وحاط بهم الشك [2] ، وفي هذا يقول:" المسلم لا يحتاج إلى الاستدلال على وجود الله تعالى بالطريقة الكلامية وإن الدّلائل التي تبنى على فرض خلاف المطلوب ، قد يكون إثمها أكبر من نفعها لأنها تثير الشبهات وتوقع كثيرا من السّامعين في الشك" [3] ،ويقول في موضع آخر :" لماذا نقول للمسلم الخالي الذهن من الشبهات والشكوك لو لم يكن للعالم إله للزم الدور أو التسلسل ،وكل منهما باطل ، فما أدى إليه وهو عدم وجود الإله باطل – فثبت نقيضه وهو أن للعالم إله – ثم نحاول أن نفهمه معنى الدور والتسلسل والبرهان على بطلانهما وما أصعبه مركبا وأبعده مطلبا".[4]

هذه مجمل اقتراحات رشيد رضا لتجديد علم العقيدة الإسلامية التي يمكننا أن نذكرها هنا ، بقي لنا أن نشير في الأخير إلى أمور جد هامة في نظرنا ، هي بمثابة دعائم فكرية ومنهجيه لعلم الكلام الجديد الذي أراده رشيد رضا وهذه الدعائم هي :

1 – إذا كان رشيد رضا يقترح في تجديد علم الكلام : البعد عن مسائل الخلاف التي كانت محل تنازع المتكلمين وتعدت إلى ما هو أكبر من ذلك وهو التكفير ، فإننا نجده يقرر وبشكل حاسم – محاولا بذلك الوصول إلى أرضية مشتركة بين سائر المسلمين- أن العقائد لا ينبغي أن تؤخذ إلا بما ثبتت قطعيّتها ومن هنا فإن كل ما هو غير قطعي يمكن أن يحتمل أوجها عديدة

---

[1]- مصدر سابق ، صفحة 804.
[2]- يوسف أبيش ، رحلات الإمام محمد رشيد رضا ، ص30.
[3]- المصدر نفسه ، ص30.
[4]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

للفهم ، مما يؤدي إلى اختلاف المفهوم ، والاختلاف من هذا المنطلق أمر مشروع ، وبالتالي لا يجوز والحال هذه أن يرمى صاحب أي رأي مخالف بتهمة الكفر أو ما شابه ذلك ، يقول رشيد رضا :" ومن أصول أهل السنة أنهم لا يكفرون أحدا من أهل القبلة بذنب ولا ببدعة عمليّة أو اعتقادية هو فيها متأوّل لا جاحد للنص "[1] ، ويقول في موضع آخر :" ...ولذلك يشترط العلماء في ذلك – أي في التكفير – أن يكون مجمعا عليه معلوما من الدين بالضرورة ويشترطون أن يكون المكذب غير متأوّل إذ لا يتأول أحد إلا ما كان غير قطعي الدلالة عنده ، ولهذا لم يكفر سلف الأمة من خالفهم في فهم آيات الصفات وغيرها من فرق المبتدعة متأوّلا".[2]

2 – الأمر الثاني وهو بناء على ما قبله ، فإذا كانت العقائد الإسلامية لا تؤخذ إلا بما ثبتت قطعيتها، فما هو حال خبر الآحاد وما موقعه في العقيدة الإسلامية بالنسبة لرشيد رضا ؟

يذهب الباحث شفيق عبد الله شقير إلى أن لرشيد رضا موقفا خاصا جدا من خبر الآحاد ، لم يأت به أحد قبله ولا بعده اللّهم إلا بعض التلميحات التي أخذها من أستاذه عبده[3] ، وخلاصة هذا الموقف يتمثل في أن خبر الآحاد حجة على من اطمأن به ولا سبيل إلى تعميمه على غيره ؛ أي أن خبر الآحاد لكونه ظنيا تتعدى نسبة صحته من شخص لآخر ، لذا لا يصح أن يجعل تشريعا عاما [4] ، ويستدل على هذا بقول رشيد رضا في تفسير المنار :" ...وأقول معنى هذا أن بعض أحاديث الآحاد تكون حجة على من ثبتت عنده واطمأن قلبه بها ولا تكون حجة على غيره يلزم العمل بها، ولذلك لم يكن الصحابة ﷺ يكتبون جميع ما سمعوا من الأحاديث ، ويدعون إليها من دعوتهم إلى اتباع القرآن والعمل به وبالسّنة العملية المتبعة المبينة له إلا قليلا من بيان السّنة ، كصحيفة علي – كرم الله وجهه- المشتملة على بعض الأحكام كالدية وفكاك الأسير وتحريم المدينة كمكة ، ولم يرض الإمام مالك من الخليفتين المنصور والرشيد أن يحملا الناس على العمل بكتبه حتى الموطأ ، وإنما يجب العمل بأحاديث الآحاد على من وثق بها رواية ودلالة ، وعلى من وثق برواية أحد وفهمه لشيء منها أن يأخذه عنه ، ولكن لا يجعل ذلك تشريعا عاما".[5]

ولكن من الواضح من خلال قول رشيد رضا هذا ، أنه يقصد بهذا الفهم أحاديث الآحاد المتعلقة بجانب الأحكام العملية المعروفة بالفقه ، لكن فيما يخص مجال العقيدة فلا نعلم أنه يذهب نفس المذهب الذي رأيناه سابقا، وإنما الذي ترجح لدينا انطلاقا من النقطة الأولى التي تكلمنا عنها

---

[1]- تفسير المنار ، ج10، ص514.
[2]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
[3]- شفيق بن عبد بن عبد الله شقير ، موقف المدرسة العقلية الحديثة من الحديث الشريف ، ص263.
[4]- المرجع نفسه ، ص264.
[5]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

سابقا أنه يذهب إلى الرأي القائل إن خبر الآحاد يفيد الظن في أمور العقيدة الإسلامية ولا يفيد القطع واليقين.

3 – وأما النقطة الثالثة والتي نود إيرادها هنا ضمن الدعائم الفكرية والمنهجية لمنهج رشيد رضا التجديدي في علم الكلام فهي تتعلق بطرق الاستدلال ، فالذي يتعمق في دراسة فكر رشيد رضا وخصوصا الفكر العقدي يلاحظ غيابا كليا للاستدلال الفلسفي وكذلك للاستدلال المنطقي ، وهما اللّذان كانا يمثلان أهم دعائم المنهجية الاستدلالية في علم الكلام القديم ، ومن الخطأ أن نقول إن عدم اعتماد رشيد رضا على الفلسفة والمنطق في استدلاله على قضايا العقيدة راجع إلى عدم تمكنه من هذين العلمين ، بل إنما هو موجود في المصادر المتعلقة بحياته تثبت عكس ذلك تماما ، فقد درس الفلسفة في وقت مبكر جدا في عهد طلبه للعلم في المدرسة الرشدية ، وأما المنطق فإنه وكما يحكي عن نفسه قد كان متمكنا فيه تمكنا بارعا ، فما سبب هذا الغياب يا ترى ؟

للإجابة على هذا السؤال لا بد لنا من معرفة مجمل انتقادات رشيد رضا لهذين العلمين ، فلقد انتقدهما مرّات كثيرة، ويمكننا أن نقول إن خلاصة رأيه فيهما أنهما لم يفيدا العقيدة الإسلامية في شيء ، إن لم نقل أنه كان يرى أن ضررهما كان أكثر من نفعهما ، فلقد انتقد معظم النظريات المنطقية خصوصا نظرية قياس الشاهد على الغائب [1] ، التي كانت مستعملة بكثرة لدى المتكلمين، كما انتقد سائر النظريات الفلسفية الأخرى التي اعتمدت أساسا لإثبات مسائل العقيدة الإسلامية ، وقد رأى أنها لم تزد الناس إلا شكا في عقيدتهم و لم توصلهم إلى اليقين المطلوب ، فالذين أخذوا عقيدتهم من الاصطلاحات الفلسفية الكلامية أكثرهم يتخبط في الحيرة [2] ، لهذا السبب كان رشيد رضا ينفر من الاستدلال المنطقي والفلسفي وقد نوافقه على نفوره من الأول لاعتباره أنه لا يؤدي الغرض الذي من أجله وضع علم الكلام ، ولكن إهماله للثاني لم يكن في محله حسب رأينا ،خصوصا وأنه كان يبدو مهتما بالرّد على القضايا الجديدة الواردة على العقيدة الإسلامية ،وليس يخفى علينا أن الفلسفة الغربية الحديثة كانت تربة خصبة لنمو كل الأفكار التي تناقض العقيدة الإسلامية وتعارضها في الصميم .

هذا ما يمكننا قوله بإجمال حول منهج رشيد رضا التجديدي في علم الكلام ، وبطبيعة الحال فإننا لا يمكننا تقييم هذا المنهج ، ومعرفة مدى توفيقه في تقديم البديل لعلم الكلام القديم ، إلا بتناول نموذج من نماذج مسائل العقيدة الإسلامية تكون لنا مقياسا نقيس به مدى استطاعة

1- انظر مجلة المنار ، مج 2، ج10 ، ص 397 ، 442، 645 ، 812.
2– المصدر نفسه ص 399.

رشيد رضا أن يوفق في عمله هذا ، وهذا ما سنقوم به فيما تبقى لنا من بحثنا ، من خـــلال تناولنا لمسألة النبوة كنموذج عقدي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني :منطلقات التجديد في علم العقيدة الإسلامية عند محمد رشيد رضا.وفيه مبحثان:

- المبحث الأول:دواعي الاهتمام بمسألة النبوة عند رشيد رضا .
- المبحث الثاني :مصادره الاستدلالية على مسالة النبوة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول :دواعي الاهتمام بمسألة النبوة عند رشيد رضا.

المطلب الأول :موقع مسألة النبوة في المنظومة العقدية .

لقد استطعنا أن نتوصل في بحثنا هذا إلى أن محمد رشيد رضا كان من بين الـــذين دعـــوا إلى ضرورة تجديد علم العقيدة الإسلامية ،كما استطعنا أن نبين مقترحاته التي تصورها لتجديد هـــذا العلم ، وهذه هي المرحلة الأولى في طريق بحثنا ، وسوف نحاول الآن فيما تبقى لنا من البحث أن نبين محـــاولاته وجهوده الفكـــرية في تجديد علم العقيدة الإسلامية ، وقد ارتأينا في هذا الصدد أن نختار نمـــوذجا واحـــدا من جوانب العقيدة الإسلامية ، ونتخذه أنموذجا نعرف من خـــلاله مدى استطاعة رشيد رضا التجديد في هذا العلم ، من خلال دعوته الـــتي دعاهـــا والمقترحـــات الـــتي صاغها،وهل وفق في ذلك أم لا ، وهذا النموذج الذي اخترناه هو نموذج النبوة ،وقد اخترناه عن سائر النماذج الأخرى لسبب وجيه وهو أنه أكثر الجوانب التي وجدنا لها حضورا كثيفا عند رشيد رضا، نستطيع من خلاله السّير في مقصدنا من دون صعوبات ،أو على الأقل بصعوبات أقل مـــن تلك التي صادفناها من قبل ، وأيضا لجملة أخرى من الاعتبارات ، وقد ذكرناها في مقدمة هـــذه الرّسالة ، فما هي جهود رشيد رضا ومحاولاته التجديدية في علم العقيدة الإسلامية ، من خـــلال مسألة النبوة ؟

قبل أن نخوض في عرض مسائل النبوة من الوجهة التجديدية لرشيد رضا ، نود أن نبدأ حديثنا ببعض الأمور العامة التي تخص النبوة ذاتها ، فما هو الموقع الذي تحتله عقيدة النبوة في سلّم المنظومة العقدية؟

إذا أردنا أن نتكلم عن النّبوة بشكل عام ، فإنّ أوّل ما نشير إليه هو أنّنا لا نكاد نجـــد لهـــذه المسألة حضورا في الأديان الوضعية سواء القديمة منها أو الحديثة ، ولا حتى مجرد اهتمام بها ، اللّهم إلا ما ورد إلينا عن طريق كتاب الملل والنحل المسلمين من أن البراهمة (*)ينكرون النبوة ولا يرون ضرورتها [1] ، لكننا نجد في المقابل أن لمسألة النبوة مكانا واســـعا وبعدا عقديا مهمّا في الأديـــان السّماوية الثلاث : اليهوديّة المسيحيّة والإسلام، ولكن بالـــرّغم من أنّ هـــذه الأديـــان الثلاثـــة المذكورة تتفق في مجملها على وجود النبوة إلا أن نظرتها تختلف من ديانة لأخرى ،وهذا الاختلاف

---

*- البراهمة قوم في الهند انتسبوا إلى رجل منهم يقال له براهم ، يدور مذهبهم في الأساس على فكرة أساسية وهي : نفي النبوة أصلا ، واستحالة ذلك في العقل ، ومن أهم حججهم في ذلك : شبهة بشرية الرسول ، وضرورة كونه ملكا في نظرهم .راجع :الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج2 ، ص602.

[1]-المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

الرؤيوي يعود في الحقيقة إلى اختلاف موقع هذه المسألة في المنظومة العقدية لكل هـــذه الأديـــان الثلاثة ، فما هي نظرة هذه الأديان لهذه المسألة؟

الفرع الأول:موقع النبوة في المنظومة العقدية اليهودية.

يذهب البـــاحثون في الدّيانة اليهودية إلى أن النبوة كانت تمثل- من خلال المصادر اليهودية- ظاهرة اجتماعية، بالمعنى السوسيولوجي للظاهرة ، وذلك من حيث إنهـــا خضعت لعدة تطورات تماشت والتحديات المختلفة التي عـــاشها المجتمع الإسرائيلي ، وقد لعبت كل من عوامل التـــاريخ والسّياسة والاقتصاد والاجتماع دورا بارزا في هذا التطور الذي مسّ عقيدة النبوة مـــن خـــلال جانبين : جانب التسمية ، وجانب الوظيفة .

فمن جـــهة الأولى فإن بني إسرائيل كما يقول حسن ظاظا :"لم يعرفوا لفظ النبي إلا في فتـــرة متأخرة في تاريخهم ، إذ كان لفظ الرّائي هو أول لفظ تداولوه قديما ، أمّـــا التحول الذي حدث في تسمية الرّائي إلى النّبي فقد حدث بعد النّبي صمويل ، كما يظهر عندما اتسع شأن رجال الله ، وقوي في أيام إلياس واليسع ، وهو التحول الذي يحدد نهاية عصر وبداية آخـــر جديد في تـــاريخ النبوة ، ففي هذا العصر الجديد تغيرت صفات رجل الله ووظائفه ، ومن ثم تغير اسمه كذلك مـــن الرائي إلى النبي".[1]

وقد تتبع المسيري تطور مصطلح النبي إلى أن وصل إلى التسمية الأخـــيرة لـــه – أي الـــنبي – فخلص إلى أنه مرّ بالتّسميات الآتية :

-"حوزييه" أي رائي ، وهو الشخص الذي يتنبأ بالغيب ، ويخبر بما سيكون حسب علامـــــات معـــروفة تلـــقى دلالتها وتأويلاتها من السابقين ، فهو حكيم وساحر وكاهن أكثر من نبي (مثل الرائي أو الكاهن العربي قبل الإسلام).

-"روئيه" أي رائي ، وهو لا يختلف كثيرا عن الحوزييه .

-" إيش إلوهيم" أي رجل الإله ، وهو رجل اختاره الإله وحباه بالمعرفة ، فيقوم بتبليغ رسالته .

-"نافئ" أي نبي[2].

ومن جهة الثاني ، فإن ما عاشه بنو.إسرائيل من أزمـــات سيـــاسية وعسكرية واجتماعيـــة واقتصادية ،كانت أسبابا مباشرة في تطور وظيفة النّبي والنّبوة بشكل عام من زمن لآخر ، ويمكننا أن نرصد هذا التطور الوظيفي للنبوة من خلال تاريخ بني إسرائيل القديم وفق ما يلي :

---

[1] حسن ظاظا ، أبحاث في الفكر اليهودي ، نقلا عن : محمد بوالروايح ،النبوة في التوراة والإنجيل والقرآن ، (رسالة دكتوراه)، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، 2001 ، ص ، 45.

[2] عبد الوهاب المسيري ، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دط ، بيت العرب للتوثيق العصري والنظم ، القاهرة ، مصر ،1999،ص1155.

1- النبوة قبل الأسر البابلي (*)(من القرن 10إلى 6ق م) : تميزت النبوة في هذه الفترة باستقلالها عن المؤسسات الدينية التي كانت تسود المجتمع آنذاك ، مثل الكهانة والعرافة والسّحر ، وارتباطها في المقابل بالمؤسسة السّياسية المتمثلة في الملوكية ، ولم تكن وظيفة النبوة في هذه المرحلة مجرد التنبؤ بما سيأتي والإخبار عنه كما كان الأمر في الكهانة والعرافة والتنجيم ، وإنما انحصرت مهمتها الأساسية في توبيخ الشّعب اليهودي ، وتصحيح انحرافاته العقدية ، وتذكيره بضرورة العودة إلى كلام الرّب والتمسّك بوصاياه[1] ، ومن أبرز أنبياء هذه الفترة : داود وسليمان عليهما السّلام ، وعاموس ،وهوشع ، وإشعيا ، وإيليا ، واليشع.

2- النبوة أثناء الأسر (587-538ق.م) : لقد كان لحادثة الأسر انعكاسات حاسمة على تاريخ بني إسرائيل في العصور التي تلت الأسر ، إذ كان سقوط العاصمة الدينية والسياسية لليهود (مملكة يهوذا) بمثابة النهاية الفعلية للدولة والملك اللّذين أسّسهما داود عليه السلام، ومن هنا فإنّ وظيفة النبوة في فترة الأسر ، كانت تركّز على أمرين اثنين هما : تنظيم حياة الجالية اليهودية المتواجدة في السّبي، وإعداد الجيل الجديد للعودة إلى أورشليم ، وإعادة بناء الدولة العبرية وهيكل سيدنا سليمان عليه السلام، ومن أبرز أنبياء هذه الفترة : حزقيال ودانيال .

3- النبوة بعد الأسر (القرن 5و4ق.م) : اقترنت عودة المسبيّين إلى فلسطين بحركة إصلاحية كبيرة للأوضاع الدينية، تزعمها أنبياء ما بعد الأسر وهم عزرا ونحميا وزكريا ، ويعد عزرا أهم شخصية يهودية على الإطلاق،حيث يوصف بأنه أبو اليهودية الحالية ، نظرا للعمل الذي قام به، والمتمثل في توثيق الأسفار الخمسة المعروفة بالتوراة ، وتثبيتها بشكل نهائي ، وقد كان للنبوة في هذا العهد دوران :

- الدور الأول : كان تأديبيا توثيقيا ، ساهم في استقرار أسفار العهد القديم وتثبيتها في شكلها النهائي .

- الدور الثاني : وكان تشريعيا ، يتمثل في تغليب الجوانب الشعائرية والتشريعية والعرقية ، على حساب الجوانب الأخرى كالمسائل العقدية والأخلاقية.[2]

هذا ما يقال عن النبوة ووظيفتها ودورها في اليهودية انطلاقا من مصادرها.

---

*- الأسر البابلي أو السبي البابلي :حادثة تاريخية يهودية شهيرة ، كانت منعرجا حاسما في التاريخ اليهودي ، عرفت أيضا بخراب بيت المقدس ، أو بخراب أورشليم، على يد الملك البابلي "بخت نصر " ، أو "نبوخذ نصر " الذي دخل بيت المقدس بجيش عظيم ، فقتل من قتل ،وسبى البقية إلى أرض بابل، وقد كانت هذه الحادثة عقابا من الله تعالى لليهود على كفرهم ، وجحودهم ، وتكذيبهم وقتلهم لأنبيائهم يراجع :ابن كثير ، البداية والنهاية ، ط1، مكتبة الصفا ، القاهرة ،مصر ، 2003، ج2،ص 29.

[1]- أحمد المشرقي ، النبوة في الأديان الكتابية ، ط1 ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 2004، ص38.

[2]-المرجع نفسه ، ص45.

ويصوّر لنا القرآن الكريم وضع عقيدة النبوة عند بني إسرائيل من خلال تعاملهم مع أنبيائهم ، فيبرز أنهم لا يخرجون في إطارهم العام عن رفض دعوة الأنبياء ، وإنكار نبوتهم ، وعدم الاستجابة لهم وطاعتهم، خصوصا ما كان مخالفا لأهوائهم، يقول ﷻ : ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[1]

لقد خلص الباحثون إلى أن النبوة عند بني إسرائيل تميزت بما يلي :

1- أنها لا تستند إلى أيّ أساس من الوحي الإلهي ،بل غاية ما فيها أنها جملة من المأمورات والمنهيات في أسلوب حواري قصصي لا ينطوي على شيء من خصائص الوحي الإلهي .

2-إن القول بعدم استناد عقيدة النّبوة عند بني إسرائيل إلى الوحي الإلهي ، يدفع إلى القول بأن النبوة بهذا المعنى فكرة متبعة لا عقيدة منزّلة .

3- إن فساد عقيدة النبوة عند بني إسرائيل تابع لفساد الرّكن الأول من أركان الدين وهو الإيمان بالله تعالى ، فلقد صورت التوراة ومعها كل أسفار العهد القديم الله بصورة غير لائقة بذاته تعالى القدسية ، فادعت أنه يتعب كسائر البشر وأنه يغضب إلى غير ذلك من الصفات التي لا تليق ، بل لا تجوز في حق الله عز وجل ، فلا غرو أن تأتي عقيدتهم في النبوة تابعة لهذا التصور العام عن الألوهية.[2]

وبصفة عامة وكما يقول صابر طعيمة :" إذا شئنا أن نبحث عن النبوة والرّسالة الدينية بما تمثله النبوة والرسالة من تطهر وعفة وحب وسلام وتعاون وتراحم ومساواة للذين يؤمنون بها ويحافظون عليها عن طريق الحسّ واللّذّة والمتعة ، وسائر شهوات البدن ، فإنّا لا نجد هذه المعاني أبدا قد ارتبطت أو عرفت في تاريخ النّبوة المدّعاة في إسرائيل ،حتى حسبما تصوره لنا مصادرهم الدينية والتاريخية".[3]

الفرع الثاني :موقع النبوة في المنظومة العقدية المسيحية.

إن أول ما يطالعنا في الدّيانة المسيحية هو خلوها تقريبا من وجود الأنبياء ، فهي لم تعرف ذلك التضخم الذي شهدته اليهودية في عدد الأنبياء ، ويعود ذلك بالأساس إلى شخصية المسيح التي كانت فيها بمثابة الكشف الكلي والنهائي للنبوة.[4]

---

[1]- سورة المائدة،الآية 71.
[2]- محمد بوالروايح ، مرجع سابق ، ص73.
[3]-صابر طعيمة ، التاريخ اليهودي العام ، ط3، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 1991، ص214.
[4]- أحمد المشرقي،النبوة في الأديان الكتابية،ص50.

وإذا كان الباحثون يذهبون إلى القول إن النبوة عند النصارى لا تختلف عنها عند بني إسرائيل، وهذا راجع إلى تأثر المسيحية باليهودية ، التي أخذت عنها كثيرا من أصول العقائد والشرائع[1]، وكانت بذلك مصدرا تاريخيا لها ، أو بتعبير آخر تبنّت المسيحية في بدايتها كامل الإرث الرّوحي والتاريخي للعهد القديم ، بما في ذلك التصور العام لظاهرة النبوة ،حيث ظل مفهوم النبوة في المسيحية طيلة القرنين الأول والثاني الميلادي لا يتجاوز مجرد حديث عن أنبياء بني إسرائيل[2]، إلا أن الأمر لم يبق هكذا ،حيث بدأ مفهوم النبوة عند المسيحيين يأخذ أبعادا وظيفية أخرى تتمثل إجمالا في عقيدة الخلاص،حيث تحولت فيه شخصية المسيح إلى شخصية مخلصة لليهود أولا،ثم لسائر البشر ثانيا بعد أن تمّ الإقرار بعالمية الرسالة المسيحية،وقد صور بوالروايح علاقة اليهودية بالمسيحية انطلاقا من النبوة بقوله :" لقد جاءت النبوة عند النصارى على أنواع مختلفة أهمها على الإطلاق : الإخبار عن الأمور المستقبلية ،والتي ترتبط عندهم بعقيدة الخلاص،ومن ذلك اقتران نجاة اليهود من الأشوريين بخلاص العالم بواسطة المسيح ،وكانتصار اسكندر ذي القرنين بإتيان المسيح وكاقتراب انسكاب الرّوح القدس يوم الخميس بيوم الحشر ،ومن هذا القبيل خراب أورشليم بحوادث يوم الدينونة،وقد أرسل الله الأنبياء والملهمين ليعلنوا مشيئته،وليصلحوا الشّؤون الدينية ، وعلى الأخص ليخبروا بالمسيح الآتي لتخليص العالم"[3]

لقد كان لهذا التحول الوظيفي لنبوة المسيح عند المسيحيين أثر خطير على العقيدة المسيحية ، كان من أكبر تجلياته أن لم يعد المسيح عيسى عليه السلام في المصادر المسيحية مجرد مبلّغ للحقيقة كبقية الأنبياء، وإنما أصبح هو ذاته مصدر الحقيقة ، لأنه كلمة الله المتجسدة [4]كهيئة ابن له في الأرض يفدي نفسه لتخليص البشر من عقاب الأب بسبب شرورهم وآثامهم وخطاياهم.

إن هذه الفكرة التي استقرت عليها الديانة المسيحية من كون المسيح ابنا لله مخلصا ، قد رفضها القرآن الكريم-باعتباره استمرارا لحركة النّبوة والوحي-رفضا قاطعا،فبيّن أن كلّ معتقد لهذا الاعتقاد خارج عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها،وهي الإيمان بالله الواحد ، يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [5] وقال أيضا في معرض رده على الذين قالوا بألوهية المسيح وأمه :﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ

1- بوالروايح،النبوة في التوراة والإنجيل والقرآن،ص145
2- المشرقي ، مرجع سابق ، ص50.
3- بوالروايح ، مرجع سابق، ص145.
4- المشرقي ، مرجع سابق ، ص57.
5- سورة المائدة ، الآية72.

مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾[1]

هذا باختصار ما نجده من حـــال النبوة عند المسيحيين ،فما هي المكانة التي تحتلـــها هـــذه المســـألة في المنظومة العقدية الإسلامية؟

الفرع الثالث :موقع النبوة في المنظومة العقدية الإسلامية.

لقد جـــاء الإسلام بنظرة للنبوة أكثر شمولية مما قررته الديانتان اليهودية والمسيحية ، وأكثـــر اعتدالا كذلك ، وكان من أثر هذه النظرة أن جعلت مســـألة النبوة تتبوأ مكـــانة مهمة في السّلّم العقدي الإسلامي ،ولكي نتعرف على هذه المكانة التي تبوأتهـــا النبـــوة في المنظومـــة العقديـــة الإسلامية،ينبغي علينا أن نعود إلى مصدرين مهمّين هما:القـــرآن الكـــريم والسنة النبوية ، وتراث المتكلمين.

أولا : نظرة القرآن الكريم لمسألة النبوة .

يجعل القرآن الكريم مسألة النبوة من المسائل المركزية التي عليها مدار الدين وقوامـــه ، ويمكـــن القول إن هذه المسألة هي واحدة من مسائل ثلاث أولى بها القرآن الكريم اهتمامـــا كـــبيرا بعـــد التوحيد والمعاد ، ذلك أن الإيمان بهذين الأخيرين يقتضيان حتما الإيمان بالنبوة والعكس ،ومن هنا جعل القرآن الكريم من النبوة ركنا من أركان الدين التي يجب الإيمـــان بهـــا ، قـــال الله تعـــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [2] ونجد في سنة الرسول ﷺ كذلك ما يؤيد هذا في حديث عمر بن الخطاب المشهور : ﴿ قال –جبريل – فأخبرني عن الإيمان ؟ قـــال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ﴾ [3] وكنتيجة لهذا فإن عدم الإيمان بالنبوة هو إسقاط لركن أساسي من أركان الدين الإسلامي،الذي يدخل صاحبه في مترلة الكفر،وهي مترلة موجبة للعقاب الإلهي الذي يقول :﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ

---

[1]- سورة المائدة ، الآية 116.

[2]- سورة النساء ، الآية 136.

[3]- رواه البخاري ، الجامع الصحيح ، كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان ، دط، دار الفكر، بيروت ، لبنان ، دت ج1 ، ص18 ،وكتاب التفسير ، باب قوله تعالى ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ ، ج 7، ص 152 ،ومسلم ،صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان،ط ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، دت ،ج1 ص28 ، والترمذي ، السنن ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام ، دط ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، 1995، ج4 ص119 ، وابن ماجه ، السنن ،كتاب الإيمان (رقم 63)، ج1 ،ص24، وأبو داود ، كتاب السنة ، باب في القدر ، ج 2 ،ص55 ، وأحمد ،المسند ، كتاب مسند العشرة المبشرين بالجنة ، باب أول مسند عمر بن الخطاب ، رقم 179 (تحقيق أحمد شاكر) دط ، مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة ، مصر ، دت ، ج1، 6 ص 280.

وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [1]

. وتتميز نظرة القـــرآن الكريم لمسألة النبوة عن نظرة الديـــانتين اليهودية والمسيحية بشموليتها، ووحدتها الغائية، فإذا كانت الديانتان اليهودية والنصرانية تقصيان بعضا مهما من الأنبيـــاء عـــن دائرة النبوة ، وتحدّان من وظيفة النّبي أو الرّسول بما يتناسب وغاياتهما ، فإن الدّين الإســـلامي قد وضع النبوة – أو بتعبير أصحّ قد أعادها – إلى إطارها الصّحيح ، فالقـــرآن الكريم يثبت أن النبوة قد سايرت حركة التاريخ إلى أن قرّر الله سبحانه وتعـــالى توقيفها بتوقيف بعثة الأنبيـــاء الـــذين يحملون مشعل النبوة ، وهذا ما يفهم من قوله تعـــالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [2] وهذه السّيرورة الحركية التاريخية للنبوة تميزت بوحدة خطابية التزم بها الأنبياء عامـــة ، غايتـــها تقريـــر التوحيد وإثبات المعاد ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [3] وما دام الأنبياء عليهم السّـــــلام،قد التزموا الوحدة الخطابية الغـــائية هذه،فإن القرآن الكريم قرّر أن الإيمان بهم كلّهم مطلوب وملزم، وما عدا ذلك فهو خروج عن دائرة الإيمان : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[4]

هذه نظرة القرآن الكريم لمسألة النبوة بشكل عام ، وهي نظرة كما رأينا مختلفة تمام الاختلاف عن نظرة اليهودية والمسيحية ، فكيف هو حال هذه المسألة بالنسبة لعلم الكلام ؟

لقد كان لمسألة النبوة حضور كثيف في التراث الكلامي الإسلامي ، وقد عنيت هذه المســـألة على غرار مسائل الأصول(التوحيد والمعاد) باهتمام واسع لدى المتكلمين القدامى ، ولكن هناك من المفكرين المسلمين المعاصرين من يذهب إلى أن النبوة لم تحض بمنزلة عالية في تراث المســـلمين الكلامي ، فقد ذهب أبو الحسن الندوي إلى القول :"لقد نظر علم الكلام أو علم التوحيـــد إلى النّبوة بنظر قاصر محدود ، واعتبرها عقيدة جـــامعة محدودة لا صلة لها بالحياة إلا في دائرة ضـــيقة محدودة من العقائد " [5] ويبرر النّدوي نظرته هذه حين يقول :" ولعلم التوحيد بعض العـــذر في وضعه العلمي المحدود ورسالته التعليمية الخاصة، إذ يجب علينا أن ننظر إلى النبوة من خلال القرآن وبمنظار القرآن "[6] فالنّدوي بهذا القول يقرر أن طريقة علم الكلام في عرض عقيدة النبوة مختلفة

---

[1]- سورة النساء ، الآية 136.
[2]- سورة فاطر ، الآية 24.
[3]- سورة هود ، الآية 61،50.
[4]- سورة المائدة ، الآية 150.
[5]- أبو الحسن الندوي ، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن والسنة ، ط7، دار القلم ، دمشق ، سوريا ن 2000، ص14.
[6]-المرجع نفسه ،ص13.

عنها في القرآن الكريم ، وهذا صحيح فالقرآن الكريم حين يعرض النبوة يعرضها في إطار متكامل تاريخيا وعقائديا ، وهذا طبعا لا يخرج من دائرة خاصة الشّمولية التي يمتاز بها القرآن الكريم في طرحه لمثل هذه المسائل وغيرها ، بينما في علم الكلام يختلف الأمر، فأغلب القضايا التي عالجها علم الكلام ، ومن بينها قضايا النبوة ، هي عبارة عن إفرازات واقعية آنية ، أو بتعبير آخر ، عبارة عن حماية طارئة للعقيدة الإسلامية من الاستفزازات الخارجية المتمثلة في الشبه الواردة عليها من طرف خصومها عامة ، وبالتالي فإن تلك الردود التي قام بها المتكلمون في هذا المجال استوعبت فقط ما كان متوفرا لديهم حينئذ من معارف ومناهج ، وهذا هو غرض علم الكلام ، وهو الدفاع عن العقائد الإسلامية ونصرتها ، ولهذا بدت قضية تناول النبوة في علم الكلام قاصرة ومحدودة .

وأما قد حسن حنفي فقد قام بتتبع مسألة النبوة باستقراء عام لجميع كتب التراث الكلامي ، وهي خطوة مهمة تبين لنا بوضوح موقع هذه المسألة في التراث الكلامي بشكل دقيق ، انطلاقا من أول ظهور لها في الكتب الكلامية ، وكذا أهم الإشكالات التي ناقشها المتكلمون في هذا الباب ، وحاصل ما وصل إليه أن مسار النبوة في التراث الكلامي قد تطور بأربعة مراحل ، وفي كل مرحلة يختلف تموقع المسألة وتختلف كذلك موضوعاتها ، بزوال بعضها ، وبروز البعض الآخر ، ويمكن تلخيص ما قام به وفق الجدول الآتي(*) :

*- اكتفينا في هذا الجدول بذكر أهم المحاور الكبرى التي تم تناولها في مسألة النبوة في كل مرحلة ، واكتفينا كذلك بذكر أهم المؤلفات المشهورة في علم الكلام ، والتي ذكرها حسن حنفي ، يراجع حسن حنفي من العقيدة إلى الثورة ، دط ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، مصر ، دت ، ج4 ، ص 07 وما بعدها .

المرحلة	حال مسألة النبوة	موقع المسألة	أهم القضايا المعالجة في المسألة	مصادر المرحلة
المرحلة الأولى	من عدم ظهورها في كتب التوحيد إلى بدايات ظهورها	- بعد التوحيد والذات والصفات والأفعال ، وقبل مسألة الإمامة .	-جواز النبوة وعمومها . -عدم نسخها . -المعجزة .	- كتابا اللمع والإبانة (للأشعري)
المرحلة الثانية	ظهورها الأول	- بعد التوحيد وبعد ظهور الصفات ، وبعد الحسن والقبح ، وبعد باب العدل	-رفض نظريات البراهمة في النبوة . -إنكار النبوة وإثباتها -إثبات عموم الرسالة	- التمهيد (للباقلاني) -الإنصاف . -شرح الأصول الخمسة ، والمغني (للقاضي عبد الجبار)
المرحلة الثالثة	استقرارها في مباحث علم التوحيد .	-بعد انتهاء العقليات ، وأول باب السمعيات .	-إثبات النبوة الخاصة -العصمة -أفضلية الأنبياء على الملائكة . -جواز النبوة عقلا .	- العقيدة النظامية -الإرشاد(للجويني) -الاقتصاد في الاعتقاد (للغزالي) -نهاية الإقدام (للشهرستاني) -المعالم ، والمسائل الخمسون (للرازي)
المرحلة الرابعة	انحرافها عن موقعها الذي استقرت فيه .	- بعد الوعد والوعيد . - بعد الإيمان . - وبعد التوحيد .	-الفرق بين النبي والرسول . -عدد الرسل والأنبياء -أسماؤهم .	-العقائد النسفية (للنسفي) -العقائد العضدية (للإيجي) -الخريدة . -العقيدة التوحيدة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذا ما يقال عن النبوة عند المتكلمين من الناحية التاريخية ، وأما من الناحية الموضوعية فإن المسألة يمكن التطرق إليها من وجوه عديدة .

أما الوجه الأول فهو حكمها، وقد اختلف المتكلمون في هذه القضية على رأيين :

الرأي الأول ويمثله المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن النبوة واجبة ، مستندين في ذلك إلى أهم قواعدهم النظرية ، وهي قاعدة الصلاح والأصلح ، فالله تعلى لا يفعل إلا الأصلح ، ولما كان مقررا عند جميع المسلمين أن النبوة مرتبطة بمصالح العباد ، ومستجيبة لحاجاتهم إليها أدّى ذلك إلى القول بوجوبها وجوبا عقليا ، لأن الحكم بوجوب النبوة كان عائدا في الحقيقة إلى حكم العقل بحسنها ، والحسن هو الصلاح ، بل هو الأصلح للعباد[1] ، يقول القاضي عبد الجبار :" فصل في أن بعثة الرّسل متى حسنت وجبت ...اعلم أنه إذا صح أن الذي يبعث له الرسول تعالى هو ما ذكرناه من تعريف المصالح من الوجوه التي بيناها ، فلا شبهة في أن ذلك واجب ، كما أنّه تعالى إذا كلّف فلا بد أن يجب التمكين ، وإزاحة العلل بالألطاف ، وما شاكل ذلك ، فإن كانت البعثة لا تحسن إلا لهذا الوجه الذي ذكرناه ، فلا بد من أن يقترن الوجوب والحسن في كل حال وأن كانت قد تحسن لوجه ، فالواجب أن ننظر في ذلك فربما وجبت مع حسنها ، وربما لم تجب بحسب قيام الدلالة ".[2]

وخالفهم في هذا القول الأشاعرة ، ومثلوا به الرأي الثاني القائل بجواز النبوة ، ذلك أن الأفعال الإلهية عند الأشاعرة حكمها الجواز ، فانبعاث الرسل من القضايا الجائزة ، لا الواجبة ولا المستحيلة .[3]

والأشاعرة في مجملهم يرون أن النبوة هبة من الله تعالى ونعمة منه على عبده، وهي اجتباء منه واصطفاء يتمثل في قوله ، يقول الآمدي :"إن النبوات ليست واجبة أن تكون ولا ممتنعة أن تكون، بل الكون وأن لا كون بالنسبة إلى ذاتها وإلى مرجحها سيّان ، وهما بالنظر إليه سيّان".[4]

وأما الوجه الثاني الذي يهمنا في هذه النقطة فيتعلق بموقع النبوة في المنظومة المذهبية للفرق الإسلامية،فلقد جعلت الشيعة من النبوة أصلا من أصول الدين عندها بعد التوحيد والعدل وقبل الإمامة والمعاد ، وقد ذكر الباحثون أن هذا التقسيم قد ظهر أول ما ظهر على يد الشيخ المفيد [5]،وهو من أهم أعلام الشيعة ، لكن بعض العلماء انتقدوا هذا التقسيم باعتبار أن كل هذه

---

[1]- أحمد المشرقي ، النبوة في الأديان الكتابية ، ص77.

[2]- عبد الجبارين أحمد(القاضي) ، المغني في أبواب التوحيد والعدل ، تحقيق إبراهيم مدكور وآخرون ،ط ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ، مصر،1967 ، ج16، ص63.

[3]- الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص144.

[4]- حسن الشافعي ، الآمدي وآراؤه الكلامية ، ط1، دار السلام ، القاهرة ، مصر ، 1998، ص479.

[5]- مصطفى الشكعة ، أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامة ، ط1 ،دار الثقافة ، الدوحة ، قطر ، 1992، ص389.

الأصول : التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، إنما هي مقدمات للركن الأعظم عندهم وهو الإمامة [1] ، ومن جهة أخرى لا نجد المعتزلة قد افردوا النبوة بجعلها أصلا مستقلا من أصول العقيدة عندهم إلا أنها كانت مدرجة ضمن مبحث العدل عندهم كما يقول مصطفى الشّكعة.[2]

هذا ما يمكن قوله إجمالا عن مكانة النبوة عند المتكلمين ، وقد تركنا مسائل وأمورا أخرى اهتموا بها اهتماما كبيرا ، وقد أفردنا لها مواضع خاصة بها فيما تبقى لنا من البحث .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- ابن تيميه ، منهاج السنة النبوية ، دط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، دت ، ج1 ، ص23.
[2]- مصطفى الشكعة ، مرجع سابق ، ص389.

المطلب الثاني : التداعيات الداخلية والخارجية لمسألة النبوة .

لقد أشـــرنا سابقا إلى أننا سنأخذ مسألة النبوة كنموذج لدراستنا هذه عند محمد رشيد رضا وجهده التجديدي في علم العقيدة الإسلامية ، لسبب وجيه وهو أننا لاحظنا حضورا مستمرا لهذه المسألة في فكره ، واهتماما متزايدا بها ، وسوف نحاول في هذا المطلب أن نتعرف على الأسباب التي جعلت رشيد رضا يركز على هذه المسألة .

وعلى وجه الإجمال فإن سبب اهتمام رشيد رضا بمسألة النبوة عن غيرها من مسائل العقيدة الأخرى، يعود إلى جملة من التحديات التي واجهت هذه المسألة ، وقد بلغت أوجّها في تلك الفترة، وكانت هذه التحديات أو التداعيات واردة من جبهتين : الأولى من داخل العالم الإسلامي والثانية من خارجه ، فما هي هذه التداعيات ؟

الفرع الأول :التداعيات الداخلية .

إن الضعف العام الذي ميز العالم الإسلامي إلى عهد رشيد رضا ، وكان له انعكاس على مختلف ميادين الحياة الإسلامية ، قد ترك بصمات واضحة على عقلية الفرد المسلم ، كانت أكبر تجلياتهـــا انحرافه عن الفهم الصحيح والسّليم للإسلام ، وتوجهه بالمقابل إلى تقبّل واعتناق الفهم الخاطئ أو المنحرف ، وقد تواضع علماء المسلمين أن يطلقوا على هذه الأخيرة عدة مفاهيم أو مصطلحات : كالبدع والخرافـــات والمحدثات ...ولقد كانت العقيدة الإسلامية أهم مجال انتشرت فيـــه هـــذه المفاهيم الفاسدة أو الخـــاطئة ، خصوصا في مجالات التوحيد والقدر ... والنبوة بوصفها إحـــدى مجالات العقيدة الإسلامية لم تسلم هي الأخرى مما أصاب سابقاتها ، وأهم هذه التـــداعيات الـــتي مسّت مسألة النبوة هي :

أولا : التداعي الصوفي .

من أهم الأسباب التي جعلت رشيد رضا يهتم بمسألة النبوة هي اعتقـــادات المتصوفة فيهـــا ، فكيف نظر المتصوفة – خصوصا المعاصرين لرشيد رضا – إلى النبوة ؟

لم يكن اعتقاد المتصوفة في النبوة يتميز بالصّفاء والنقاء الذي تتميز به العقيدة الإسلامية، بـــل كانت تشوبه بعض الشوائب التي كانت جلها منحرفة عن تعاليم العقيـــدة الإســـلامية ، والـــتي استهدفت في عمومها مجالين :

أ- فأما المجال الأول ، فهو مـــا كان يتعلق بشخص النبي محمدﷺ ، فلـــم يكن المتصوفة ينظرون إليه بالنظرة المعتدلة التي أقرها الشرع الإسلامي ، بل كان على العكس من ذلك ، ينظر إليه بـــين

الإفراط والتفريط ،فمن جهة أولى يوصف فيها بأوصاف من المدح مبالغ فيها ، تجعل منه ﷺ كائنا غير عادي ، ومن جهة ثانية يوصف فيها ﷺ بصفات تسلب عنه بعض الخصائص التي خصّه الله وامتازه بها عن سائر خلقه .

ولقد انتقد رشيد رضا كلا الوجهين انتقادا شديدا ، و لم يكد يترك مناسبة سانحة إلا وانتقد فيه ممارسات الصوفية ، ومعتقداتهم الخاطئة عن النّبي ﷺ، بل إن ما نؤكده أن هذا كان أول عمل إصلاحي قام به ، منذ كان في مسقط رأسه بالقلمون ، حيث كان كتابه الأول الذي أصدره :"الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية "،يصب في هذا القالب، فمما يذكره في مقدمة هذا الكتاب ، أن ما دفعه لتأليفه هو وجود كتاب آخر في مدح أحد شيوخ الطرق الصوفية،وهو الشيخ الرفاعي،الذي يساويه مؤلفه بالنبي ﷺ،ويشركه في بعض خصائص النبوة .[1]

وانتقد أيضا الاحتفالات بذكرى المولد النبوي التي كان يوليها المتصوفة اهتماما بالغا ، ولقد كانت مجمل انتقادات رشيد رضا في هذا الجانب منصبة على أمرين اثنين :

– الأمر الأول :وهو ما كانت تتميز به هذه الاحتفالات من منكرات لا تمتّ للإسلام بأيّة صلة ، كاللّهو وما يلحقه من غناء ورقص ، واختلاط غير مشروع بين الرجال والنّساء ، وتبذير للأطعمة والألبسة [2] ، وإفساد للمساجد وتعطيل للعبادة ، وغير ذلك ، وهو ما جعل رشيد رضا لا يتوانى في عدّه من جملة البدع المحدثة في الدّين، حيث يقول :" إن ما يعهد من الاحتفال بالمولد ليس عبادة مأثورة عن الشّارع ، يؤتى بها على الوجه المشروع، ولا هو عمل دنيوي محض بل يجمعون فيه بين عبادات يأتون بها أو ببعضها على وجه غير مشروع ، وبين لعب ولهو بعضه مباح وبعضه محظور".[3]

– و الأمر الثاني : الذي كان محل انتقاد من رشيد رضا في الاحتفال بالمولد النبوي هو ما كان يقوم به مشايخ الصوفية في هذه الاحتفالات – وكانت عادة سارية المفعول – من قراءة قصة المولد النّبوي الشّريف ، وقد عاب رشيد رضا على هذه القصص كثرة الأغاليط المنسوبة إلى النبي ﷺ ، يقول في ذلك :"طالما أنكرت في مجلة المنار احتفال المولد الرّسمي الذي تتولى تنظيمه في القاهرة مشيخة الطرق الصوفية كلّ عام ، ووصفت ما يجري فيه من المعاصي والبدع ، وأشد مسا انتقدت قصة المولد التي تقرأ في محفله على مسمع من وليّ أمر البلاد ووزرائه، وخواص دولته من

---

[1]- مجلة المنار ، مج 28، ج1، ص533.
[2]- رشيد رضا ، ذكرى المولد النبوي ، ط1 ، مطبعة المنار ، مصر ، 1335هـ،ص "ز".
[3]- رشيد رضا ، مجلة المنار ، مج 34 ، ج2 ، ص129.

رجال الدّين والدنيا" [1] ، وقال في موضع آخر :" وأما قراءة قصة المولد فهي عبارة عن قراءة شيء من الحديث والسّيرة النبوية كما قال السّيوطي ، ولكن كثيرا من النّاس كتبوا موالد حشوها بالأحاديث الموضوعة والمنكرة وفي بعضها وصف النبي ﷺ بما لا يليق كالتغزل بجماله".[2]

ولم يكتف رشيد رضا بمجرد النّقد إزاء هذا بل حاول أن يقدم بديلا لذلك ، فبالرّغم من أنه كان يرى أن الاحتفال بالمولد النبوي بدعة في أصله ، لم تثبت عند مسلمي القرون الثلاثة الأولى[3]، إلاّ أن هذا لم يمنعه من إصلاح ما يمكن إصلاحه ويستطاع إليه ، ويبدو ذلك جليّا في اهتمامه بقصة المولد النبوي التي كانت تقرأ في المحافل الخاصة بها ، وقد بين رشيد رضا تلك النية بقوله :"كنت منذ سنين أتمنى لو يوجد بين أيدي الناس رسائل في هذا الموضوع يُتَحَرَّى فيها الصّحيح المفيد ، عسى أن يستبدل بها بعض ذلك الضّار السّيئ التأثير ، بيد أني كنت أتحامى أن أكتب في ذلك شيئا باسم المولد ، لئلا أكون محدثا أو مساعدا أو مقرّا لما لم يفعله السّلف"[4] ، وقد استطاع رشيد رضا أن يخرج هذه الفكرة إلى حيز الوجود ، حيث اتفق مع أحد المشايخ – وهو من محبّي الإصلاح كما وصفه – أن يكتب له رسالة صغيرة تحوي قصة المولد النبوي ، يُتَحَرَّى فيها ما ثبت في هذا الشّأن بالصحيح من الروايات وتقرأ في سائر المحافل بدلا من قصص الموالد الأخرى ، وقد تم ذلك ، وأصبحت هذه الرسالة والتي سماها "ذكرى المولد النبوي " بديلا حقيقيا، وقد صرح رشيد رضا بهذا حيث قال:"...وفي سنة 1334هـ ألغيت قراءة قصة المولد النبوي المنكرة واستبدل بها قصة كتبتها لأجلها ، إذ وعدني رئيس الاحتفال "السّيد البكري " أن يجعلها هي الرّسمية فوفّى ، فكان لها ما كان من حسن القبول والتأثير اللائق بالموضوع والزمان والمكان والسلطان".[5]

ب–وأما المجال الثاني : فهو ما كان متعلّقا ببعض مباحث النّبوة ونخص بالذّكر هنا مبحث الكرامات ، فلن نبالغ إن قلنا إن ما كان المتصوفة يعتقدونه في مجال كرامات الأولياء يمثل تحديا حقيقيا للنبوة ، خصوصا وأنه ذو صلة وطيدة بالمعجزات ، وسوف نفصّل القول حول هذه النقطة في مبحث المعجزات من هذه الدّراسة ، وحسبنا هنا الإشارة إلى أنّ رشيد رضا ما فتئ يقرّر أن مجمل خوارق العادات التي يأتي بها هؤلاء المتصوفة ، والتي تسمى كرامة لا تعدو كونها – إن حصلت فعلا – خاضعة وواقعة بأسباب وسنن إلهية ثابتة ، ويمكن العثور على تفسير لها ، فهو

---

[1]- رشيد رضا ، ذكرى المولد النبوي ، ص "ي" .
[2] - المصدر نفسه ، ص "ط ".
[3]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
[4]- المصدر نفسه ، ص"ي".
[5]- المصدر نفسه ، ص"ك" .

يقرر بشكل عام :" أن الأصل في كل ما يحدث في الكون أن يكون له سبب وأن يجري على سنة من سنن الله تعالى في الخلق"[1] ، و :" أن العلم قد كشف أسبابا لأمور كثيرة كانت تسمى خوارق وكرامات ، فإذا علم بعد تمحيص الرّواية والمروي أن شيئا من هذه الغرائب وقع لا محالة فينبغي الرجوع لالتماس الأسباب من مظانّها في العلم الطبيعي وعلم النفس"[2] ، ومن هنا فإنه لا أساس لقول من قال :" إن كرامات الأولياء شعبة من معجزات الأنبياء فيخشى على منكر الفرع أن ينكر الأصل"[3] و:"أن الخلاف في جواز الكرامات ووقوعها ليس من أصل الدّين وقواعده الاعتقادية ، ولذلك لا يكفر من أنكرها".[4]

وحاصل القول إن اهتمام المسلمين بكرامات الأولياء ، ووصفهم المبالغ لكرامات مشايخهم ، وإيمانهم بها إيمانا بلغ درجة الاعتقاد ، ما هو إلا تعبير عن وهن العقلية الإسلامية التي أصبحت تتقبل الخرافة والأباطيل ، أكثر من تقبلها ما صحّ ، وكان أكثر دلالة للنبوة منها .

ثانيا :تداعي المتنبئين .

قد يبدو هذا العنوان غريبا لأول وهلة ، لكن الغرابة ستزول إن قلنا إن دعوة التنبّؤ كانت في عهد رشيد رضا تمثل هي الأخرى تحديا من أخطر التحديات التي واجهتها العقيدة الإسلامية ، والنبوة بالخصوص من داخل العالم الإسلامي ،وكما هو واضح من العنوان فلم تكن دعوى التنبؤ واحدة ، بل كانت أكثر من ذلك ، فلقد عرف المسلمون في النّصف الأوّل من القرن الماضي دعوتين جادّتين ادّعى فيهما صاحباها النّبوة والوحي ، وهاتان الدعوتان هما : البابية والقاديانية، فكيف كان ردّ صاحب المنار على هاتين الدعوتين ؟

أ- دعوى البابية والبهائية :

بدأت فكرة هذه الفرقة في مدينة شيراز من مدن إيران في سنة 1260هـ(1844م) على يد رجل فارسي اسمه "عليّ محمد شيرازي " حين أعلن أنه باب العلم بالحقيقة الإلهية ، وسمّى نفسه "الباب"، واجتمع حوله أتباع من ضعاف العقول وأصحاب الشّهوات ، ولما أعلن الباب مقالته في النّاس قامت فتنة دعت الحاكم إلى سجن أتباعه، ثم هاجر من شيراز إلى أصفهان فحماه حاكمها ، ولكن لما توفي هذا الحاكم تلقّى خلفه أمرا بالقبض على الباب ، أين حبس في قلعة "ماكو" بأذربيجان .

---

[1]- مصدر سابق ، ص56.
[2]- مجلة المنار ، مج6 ، ج3 ، ص55.
[3]- المصدر نفسه ، مج6 ، ج2 ، ص17.
[4]- المصدر نفسه ، مج 2 ، ج27 ، ص 421.

وفي سنة 1266هـ(1850م) أي بعد ستّ سنوات من بدء دعوى البابية ، قتل الباب رميا بالرصاص في "تبريز "، ولكن لما قتل الباب خلفه من بعده أحد أتباعه وهو "حسين علي نوري بن عباس بن بزرك الميرزا" ، المعروف باسم "البهاء" ، أو بهاء الله ، وإلى هذا الشخص تنتسب فرقة البهائية ، ولم يلبث بعد تسلمه رئاسة الدعوة لهذه الفرقة ، حتى اتهم بالاشتراك في مؤامرة لاغتيال ناصر الدين شاه ملك إيران انتقاما للباب ، فاعتقل وأبعد ، فنزل بغداد وأقام بها اثنتي عشرة سنة ، قضى بعضها في أطراف السّليمانية يبشّر بضلالته ، وضجّ منه علماء العراق ، فأخرجته حكومة بغداد ، فقصد الأستانة ، ولكن وجد مقاومة عنيفة لشيوخها ، فنفي إلى "أدرنة"، حيث أقام نحو خمس سنين بها ، ثم أرسل بعدها إلى سجن "عكة " بفلسطين عام 1868م ، ثم أفرج عنه فانتقل إلى البهجة من قرى عكة ، أين التفّ حوله مريدوه ، وتوفي بها سنة 1309هـ(1892م) .

وبعد وفاة بهاء الله خلفه على رأس الفرقة ابنه "عبّاس عبد البهاء " الذي رافق أباه منذ بدء دعوته ، وتنقل معه ، وهو آخر من قام بأمر البهائية وتنظيم جماعتها ، وقد كان عباس عبد البهاء نشيطا جدا في نشر مذهبه ، كما أنه كان متوقّد الذكاء ، وقد زار أوربا سنة 1330هـ(1912م) ، كما زار أمريكا سنة 1331هـ(1913م) وكان له أتباع كثيرون في "شيكاغو" ثم عاد بعدها إلى فلسطين فمات في "حيفا ".[1]

لقد كان رشيد رضا يتابع باهتمام سير وتطور هذا المذهب ، كما كان حريصا على معرفة كل المستجدات المتعلقة به والردّ على كل الأباطيل التي رآها مخالفة للإسلام [2] وأصوله ، والخلاصة التي وصل إليها في بحثه عن هذه الفرقة أنها :"دين جديد في بعض تعاليمه ومسائله ، وإن كان مبنيا على أصول الباطنية الذين منهم الإسماعيلية و القرامطة والدروز والنصيرية"[3] ، وبالتالي فهي في نهاية المطاف حركة شيعية متطرّفة ، تهدف إلى هدم الإسلام بطريق خفي تماما مثلما كان عليه الحال عند الباطنية ، وكان مدخلهم في هذا عند زعمائهم دعوى التوفيق بين السنة والشيعة ، والتقريب بينهما [4] ، ولكن لماذا انتشرت هذه الدّعوة في الوسط الشيعي دون غيره من الأوساط الإسلامية الأخرى ؟ يجيبنا رشيد رضا أن هذا الانتشار يتحكم فيه أسباب عدّة ، عامة وخاصة .

أما السبب العام – وهو الجلي – فيتحكم فيه عاملان هما : العامل الإيديولوجي ، والعامل الاجتماعي ، فقد :" ظهر الباب في بلاد الفرس بهذه الدعوة في أثر ضيق شديد ، فتوهّم الناس

---

[1]- اعتمدنا في نقل هذا التلخيص على كتاب عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، العقيدة الإسلامية وأسسها ، ط8 ، دار القلم ، دمشق ، سوريا ، 1997، ص608، وذلك لدقته وإجادته .

[2]- المنار، مج13 ، ج10 ، ص 790.

[3]- المصدر نفسه ، ص789.

[4]- المصدر نفسه ، مج 7 ج9 ، ص341.

ومعظمهم من الشيعة الذين ينتظرون المهدي في كل يوم أنه هو ، وحمل الضيق والبلاء كثيرا من الناس على اتباعه".[1]

وأما الأسباب الخاصة فيرى رشيد رضا أنها تعود إلى :

- عموم الجهل بالقرآن .
- عموم الجهل بسيرة النبي ﷺ وسنته .
- الجهل باللغة العربية التي يتوقف عليها فهم القرآن..ولو كان أولئك الذين استجابوا للباب يعرفون اللغة العربية ، لسخروا من تقليده للقرآن بالفواصل مع كثرة اللّغو واللّحن من كلامه. (*)
- تعوّد المسلمين على الخضوع والإذعان للظاهرين بمظهر الصلاح واللابسين لباس التصوف ، وتقديم كلامهم على كل كلام ، حتى على ما يعتقدون أنه من الدين بلا خوف .
- غلو الشيعة في تعظيم المنتسبين لآل البيت والباب منهم ، واعتقادهم الجازم بالمهدي المنتظر ، وأنه معصوم لا يسأل عما يفعل ولا يعارض فيما يحكم ، وقد بنى الباب دعوته على تقاليد الشيعة في الأئمة والمهدي .[2]

والحقيقة أن هذه الأسباب التي ذكرها رشيد رضا ترجع في أصلها إلى نقطة واحدة طالما لمح إليها ، وهي البعد عن القرآن الكريم خاصة وسنة النبي ﷺ ، وهو بيت القصيد بالنسبة لنا ، والذي يمثل تحديا يواجه مسألة النبوة، وبالخصوص قضية ادّعاء الوحي ، وهذا ما سعى رشيد رضا لدحضه :" فالقرآن بشّر البشر بأنّ محمدا خاتم النبيين، فلا حاجة بعده إلى تعليم سماوي ولا إلى وحي جديد ، لأن تعليمه هو التعليم العالي الذي يرتقي به العقل ويستقل ، فلا يقبل الشيء إلا ببرهانه ..والبابية يحاولون إرجاع أهل هذا التعليم العالي إلى تعليم الأطفال الابتدائي ، الذي يؤخذ فيه كل شيء بالتسليم والإذعان بدون دليل ولا برهان".[3]

وقد ردّ عليهم كذلك في دعواهم في معجزات الباب ، فإن كان :" القرآن جعل آية محمد الكبرى علمية أدبية ، ولم يحتجّ على نبوته بالآيات الكونية ، لأنه دين العقل والآيات الكونية لا تعقل .. فإن البابية زعموا أن الباب كان مؤيدا بالخوارق والآيات ، ولكن لم يستطيعوا إثبات ذلك بل جعلوا اللغو دلائل".[4]

---

[1]- مصدر سابق ، الصفحة نفسها .

*- وقد نشر رشيد رضا نموذجا لكلامه الذي يدعي فيه الباب أنه وحي وعلق عليه ، انظر : مجلة المنار ، مج 7،ج1 ، ص339.

[2]- المصدر نفسه ، مج 7 ، ج10 ، ص 343.

[3]- المصدر نفسه ، مج7، ج2، ص342.

[4]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

وجملة القول : فإن الدعوة البابية كانت تمثـــل خطرا على العقيدة الإسلامية ، لا سيما وأنهـــا كانت منتشرة في وسط يسوده الجهل بالدين والإيمان بالخرافات والأباطيل التي مـــا زالت تضعف الدين الإسلامي ، وقد سخّر رشيد رضا مناره من أجل دحض شبهات هذه الدعوة ، وما شابهها من الدعوات الأخرى التي كانت تنسج نسيج البابية كالقاديانية التي سنتحدث عنها الآن .

ب- دعوى القاديانية :

لقد كانت القاديانية الخطر الثاني الذي يتهدد العقيدة الإسلامية من مشرق العالم الإسلامي بعد البابية ، وفي الواقع فإن خطر القاديانية كان أكبر من خطر البابية نظرا لخصوصيات توفرت في هذا التيار ، وفي بعض رموزه وعلى رأسهم زعيمهم الأكبر : ميرزا غلام أحمد القادياني .

تأسس هذا التيار الهدمي في الهند ، أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، بدءا من سنة 1879م[1] على يد مؤسسه ميرزا غلام أحمد (1839-1908م) المولود في قرية "قاديان" إحدى قـــرى إقلـــيم "البنجاب" من أسرة يعود أصلها إلى سلالة تيمورلنك المغولية.[2]

وقد كان ميرزا غلام أحمد ذو حظ كبير من العلوم الإســـلامية بمختلف فنونها ، وحتى العلـــوم العصرية ، وكان يجيد فن المناظرة ، وله أسلوب قويّ ، وقدرة كبيرة على الإقناع [3] ، وبمجرّد أن أعلن عن دعوته ، التفّ حوله خلق كثير ، لكنه لم يقصر دعوته على الهند فقط ، بل تعدّاها حتّى دول أوربا وأمريكا ، عن طريق بعض دعاته الذين كانوا هم كذلك على قدر كبير مـــن العلـــوم الشّرعية ، وأسلوب المناظرة القوي ، دون أن ننسى طبعا المساندة التي كان يحظى بها هذا التيار من طرف الاستعمار البريطاني الذي كان يدرك تماما مدى ما يمكن أن يقدمه هذا المذهب من مساندة غير مباشرة لخدمة أهدافه ، وهذا ما كان بالطبع خصوصا لما ألغى الميرزا غلام أحمد الجهاد واعتبره قد نسخ ، ومن جهة أخرى فإن القاديانية قد مثلت خطرا حقيقيا للإسلام ، نتيجة لما قرّره مـــرزا غلام أحمد من مبادئ مخالفة للعقيدة الإسلامية تصب كلها في مسألة النبوة وهذه المبادئ هي :

- ادّعاؤه للنبوة ، وأن محمدا ﷺ ليس خاتماً للأنبياء .
- ادّعاؤه أنه هو المسيح المنتظر المبشر به في نصوص القرآن.

فكيف تعامل رشيد رضا مع هذه الدعوى الجديدة ؟

لقد كان رشيد رضا يدرك تماما خطورة هذا المذهب الهدمي على العقيدة الإسلامية ، ولهذا فهو لم يتوان لحظة في كشف حقيقة أمره ، وتزييف دعاويه وإبطالها ، ومنهجه في هذا كان عمليا أكثر

---

[1]- حسن عيسى عبد الظاهر ، القاديانية نشأتها وتطورها ، ط3 ، دار القلم ، الكويت ، 1981، ص 63.
[2]- المرجع نفسه ، ص 41.
[3]- المرجع نفسه ، ص 55.

ما كان نظريا ، فقد كان يعتمد كثيرا على مناظرة أرباب هذه الدعوة أكثر ما كان ينتقدهم كتابة ، ويرجع هذا في تقديرنا إلى أنه كان يحاول أن يحارب هذا المذهب بنفس المنهج الذي استخدموه ، هذا أولا ، ولأن الظروف العامة أتاحت له الالتقاء بعدد منهم شخصيا مما مكنه من محاورتهم ، ومناظرتهم ثانيا ، خاصة وأنه كان قد زار الهند —وهو معقل هذا المذهب — وقد حكى في المنار أنه لما كان في "لكنهؤ" جاءه وفد منهم للسّلام عليه ودعوته لزيارة بلدهم ، لكنه لم يلبّ لهم هذا الطلب خوفا من اعتقاد الناس أنه بزيارتهم يقر مذهبهم ويعترف به [1]، وقد ذكر رشيد رضا أن ميرزا غلام أحمد لم يكن راض عليه بسبب انتقاداته التي وجهها إليه وإلى مذهبه ، ومن الطريف أن نذكر أنه —غلام أحمد — قد توعده وتنبأ له بالهلاك ، وذلك في كتاب له سماه "الهدى والتبصرة لمن يرى " — وقد زعم أنه وحي — ومما ذكره فيه أنه – أي رشيد رضا – :" سيهزم فلا يرى نبأ من الله الذي يعلم السّر وأخفى"[2] ، يقول رشيد رضا :" ولو قدر الله وجعل وفاتنا أو نكبة تقع بنا أو بالمنار بعد صدور كتابه هذا لادعى هو وأتباعه أنها مصداق دعوته ، ولكن الله لم يزدنا إلا صحة وقوة وحجّة ، ولم يزد المنار إلا تأييدا وانتشارا وقبول كلمة".[3]

نعود الآن بعد هذه التوطئة إلى قضيتنا المتعلقة بالنبوة .

لقد ادعى ميرزا غلام أحمد النبوة ، دخولا من باب الإلهام والإشراق الصوفيين ، معتمدا في ذلك على أساليب الباطنية في حساب الجمل والأعداد والتطرف في استعمال المصطلحات الدينية والكلمات الشّرعية [4] ، فمن أقواله في ذلك الإدعاء :" لقد حرم الذين سبقوني من الأولياء والأبدال والأقطاب من هذه الأمة المحمدية من النصيب الكبير من هذه النعمة —يعني الإلهامات والمكالمة الإلهية– ولذلك خصّني الله باسم النبي ، أما الآخرون فلا يستحقون هذا الاسم".[5]

وينقل لنا رشيد رضا نصا من رسالة ألفها أحد أتباع غلام أحمد واسمه ميرزا بشير الدين محمود أحمد ، عنوانها :" الصلاة عند الإسلام " حاصل كلامها أن النبوة درجة إشراقية مفتوحة لكل ممارس للرياضة الصوفية ، يقول صاحب الرّسالة :" فالنبوة إذا هي أسمى المراتب التي يتطلع إليها المسلم لذلك ابتهل إلى الله سبحانه وتعالى —يقصد القادياني — أن يحشره في زمرة الأنبياء ، وهو نموذج لم ينسج على منواله دين من الأديان على الإطلاق، بل جميعها سدّت طريق الوحي الإلهي في وجوه العالم ، فالدين الإسلامي وحده هو الذي يرشد تابعيه إلى أن طريق الوحي لا

---

[1]- مجلة المنار ،مج 31 ، ج5 ، ص 395.
[2]- المصدر نفسه ، مج 23 ، ج1 ، ص 35 .
[3]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
[4]- حسن عيسى عبد الظاهر ، القاديانية نشأتها وتطورها ، ص 76 .
[5]- المرجع نفسه ، ص 77.

يمكن أن يسدّ في وجوه الناس ، إذ أن الله الذي خـــاطب الناس في وقت ما لن يكف عن هدايـــة شعبه ومخاطبته"[1] ويقول كذلك :" إن الدين الصحيح الحي لهو الذي لا يخلو من الثمر أبدا ، ولا ثمرة للدين إلا الاتصال بالله ، وهذا لا يمكن أن يكون إلا بواسطة الوحي".[2]

ويناقش رشيد رضا رأيهم هذا فيراه باطلا من أساسه ، ولكنه يركز في نهاية المطاف على جانب واحد يراه أصلا لكل أباطيلهم ، كما كان أصلا لأباطيل مذهب البابية والبهائية ، وهـــو الجهـــل باللغة العربية ، إذ كل تأويلاتهم التي أولـــوها على أنها تفيد التنبؤ بنبوة غلام أحمـــد أو مسيحيته، وكذلك أقواله في الكتب التي يزعم أنها مقدسة ، لا تقوم على أساس الفهم السّليم للغة العربية لا من قريب ولا من بعيد ، ولنأخذ النص الآتي مثالا على ذلك ، حيث يقول :" إن هؤلاء قد ضلوا بجهل العربية .. فإذا كان من ادعى أنه المسيح المؤيد بالإعجاز في كتبه يزعم أن البسملة تدل على نبوة محمد ﷺ وعلى مسيحيته هو ، فلا عجب إذا ادّعى هو وأتباعه أن قولـــه تعـــالى:﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[3] ، يدل على طلب النبوة بدليل أن المنعم عليهم إنما هم الأنبياء ، فعلى هذا يكون المفروض على كل مسلم أن يطلب من الله تعالى في كل ركعـــة من صلاته أن يجعله نبيا يوحى إليه".[4]

وكذلك الحال بالنسبة لادعاء القادياني بأنه المسيح عيسى بن مريم :" وأن الله تعالى قد أوحـــى إليه بذلك ، وأن محمداﷺ رسول الله ، وأن غلام أحمد القادياني هو المسيح عيسى بـــن مـــريم .. وكان يستدل على صدق دعوته بقصيدة نظمها ، وادعى أنها معجزة كالقرآن ، على أنها كـــثيرة السّخف والغلط والهذيان ، وبكتاب في تفسير الفاتحة سماه إعجاز أحمدي وأكثره لغو.. واستنباط معان لا تدل على الألفاظ بحقيقتها ولا بضرب من ضروب المجاز ولا الكناية".[5]

وخلاصة ما يمكن أن يقال حول هذه التحديات الداخلية التي رأيناها ، أنها كانت تمثل خطـــرا حقيقيا على العقيدة الإسلامية عموما ، والنبوة خصوصا ، ولقد اهتم رشيد رضا – كواحد مـــن المشتغلين بقضايا الإصلاح – بالرد عليها ودحضها كما رأينا ، والملاحظ هنا أنه لم يكلف نفســـه كثيرا في الرد عليهم باستخدام مناهج وأساليب حديثة في ذلك ، بل إن منهجه في هـــذا لم يكـــن يختلف عن منهج المتكلمين القدامى ، كالمناظرة وأسلوب الالزامات ، والأخـــذ بـــالمتواتر مـــن

---

[1]- مجلة المنار ، مج 24 ، ج 8 ، ص 579.
[2]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
[3]- سورة الفاتحة ، الآية 6.
[4]- رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص582.
[5]-المصدر نفسه ، مج23 ، ج 1 ، ص35.

النصوص دون الآحاد ، ولنا أن نتساءل الآن إذا كان هذا هو منهجه في التعامل مع التحـــديات الداخلية فكيف كان الحال مع التحديات الخارجية لمسألة النبوة ؟

الفرع الثاني : التداعيات الخارجية .

تناولنا فيما سبق أهـــمّ ما كانت تواجهه النّبوة من تحديات من داخـــل العـــالم الإسلامي ، وذلك طبعا من خلال رؤية رشيد رضا لها وردّه عليها ، وسنحاول الآن أن نتنـــاول التحـــديات الخارجية التي واجهت النبوة ، وذلك دائما انطلاقا من رؤية رشـــيد رضا لها ، وقبل أن نخـــوض في ذكر هذه التحديات ، لا بد أن نشير إلى أن الفترة التي كان يعيش فيها رشـــيد رضا ، كانت فترة شديدة من حيث الصراع الفكري بصفة عامة ، فلقد كان المســـلمون يعيشـــون بـــدايات نهضتهم، على واقع انتباه من الغرب الذي كان قد قطع شوطا بعيدا في هذه النهضة ، واكتســـب علوما ومناهج جديدة جعلها مرجعا لقياس الحضارة بوجه عام ، لذلك فهو حينما توجه لدراسة العالم الإسلامي ، توجه بتلك المناهج التي وضعها لنفسه ، فوصل – أو حاول الوصول – إلى غير ما كان عليه اعتقاد المسلمين ومبدؤهم ، وهذا ما كان يمثل تحديا خطيرا واجهه أعـــلام النهضـــة الأوائل على غرار رشيد رضا ، وفيما يخص قضية النبوة ، فلقد كان يواجهها تداعيان ذوا شـــأن بليغ،وهذان التداعيان هما : التداعي المسيحي، والتداعي الاستشراقي ، فكيف تعامل رشيد رضـــا معهما ؟

أولا : التداعي المسيحي .

لا شك أن هذا التداعي ليس جديدا على الإسلام ولا على المسلمين ، فلقد تعامل المسلمون مع النصارى وشبههم ، وحـــاوروهم وناظروهم ، وأبطلوا أقاويلهم ، والمكتبة الإسلامية شاهدة على ذلك بما تتوفر عليه من الزخـــم الكبير من الكتب التي تصب في هذا القـــالب،وقبل هـــذا كـــان القـــرآن الكريم وهو المصدر الأول للمسلمين قد حـــاور النصارى في معتقداتهم،ووضع أصـــولا للحوار والمناظرة اعتمد علـــيها المسلمون فيما بعد،ومن الطبيعي أن يبقى الأمـــر هكـــذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عـــليها،مصداقا لقوله تعـــالى:﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [2]، ولهـــذا لم يتوقف المســـيحيون لحظة عن الطعن في الديـــانة الإسلامية ، وخصوصا في رســـالة محمد ﷺ ونبوته، فكيف تعامـــل رشيد رضا مع هذا التحدي ؟

---

[1]- سورة البقرة ، الآية 120.
[2]- سورة البقرة ، الآية 217.

لا بد أن نشير في البداية إلى فارق مهم ، له أثر كبير على طبيعة العلاقة بين الإسلام والمسيحية بوجه عام ، وهذا الفارق يتمثل في تغير المعادلة الحضارية بين المسلمين والمسيحيين ، فإن كان المسلمون الأوائل قد تعاملوا مع شبه النصارى من موقع المتفوق حضاريا ، فإن العكس تماما هو الذي كان ساريا في زمن رشيد رضا وحتى يومنا هذا، ويمكننا أن نحدد أهم الشّبهات التي كان يبثّها المسيحيون حول الإسلام في محاور كبرى هي :

- إن تخلّف المسلمين راجع إلى تمسّكهم بالإسلام ، وبالتّالي فإن الإسلام ليس دين مدنية .
- إن محمدا ﷺ ليس نبيا ، ولم يوح إليه .
- إن القرآن ليس وحيا إلهيا ، بل هو مجرد حكم وشعر وبلاغة عربية لا غير .

وتهمنا نحن الشبهتان الثانية والثالثة لعلاقتهما بموضوعنا ، مع الإشارة إلى أن رشيدا رضا قد ناقش مطولا الشبهة الأولى ، ولا نبالغ إن قلنا إنّه كان مرجعا تأريخيا لأعلام النهضة الذين أتوا من بعده، خاصة وأنه كان قد نشر في المنار المناظرة الشهيرة التي جرت بين أستاذه محمد عبده ، وبين فرح أنطون(*) الأديب المسيحي ، وأخرجها فيما بعد في كتاب سماه :"الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية ".

والحقيقة أن التحدّي المسيحي لم يكن خارجيا كله ، فالمسيحيون داخل العالم الإسلامي كثر ، خصوصا في الشام ومصر ، وهؤلاء بدورهم كان لهم نصيب في حياكة الشّبه حول العقيدة الإسلامية ، والنّبوة خصوصا مع أن هذا القول لا يمكن تعميمه على كل المسيحيين .

لقد خصّص رشيد رضا مساحة واسعة في مناره للردّ على المسيحيين ، إذ عقد في المجلد السادس فصولا من مجموعة مقالات سماها :"شبهات المسيحيين على الإسلام ، وحجج المسلمين على المسيحيين "[1]، ومما ناقشه في النبذة الثامنة منه ردّه على مقال نشر في مجلة بروتستانتية تسمى " بشائر الإسلام "، والمقال فيه طعن في شخص النبي ﷺ ، وأفضليته ليس بين باقي الأنبياء ، بل بينه وبين شعب بني إسرائيل ، الذين كانوا — كما يقول صاحب المقال — يختلي بهم الله في البرية يخاطبهم ويخاطبونه ويراهم ويرونه ، إلى أن قال :" فاسمع أيها القارئ المسلم ، وابهت وادهش ، أليس محمد عندك أعظم الخلق ، فلم يكن أهلا لأن يخاطب الله رأسا أو يرى مجده مثل عامة إسرائيل فضلا عن خاصتهم ، بل لم يكن خليقا أن يخاطب جبريل إلا وتغشاه غيبة وغطيط

---

* - فرح أنطون (1291-1340هـ/1874-1922م) كاتب وباحث ، صحفي وراني ، ولد وتعلم في طرابلس الشام ، وانتقل إلى الإسكندرية سنة 1827م، فأصدر مجلة الجامعة وتولى تحرير "صدى الأهرام " ستة أشهر ، رحل إلى أمريكا سنة 1907م ، فأصدر مجلة وجريدة سماها الجامعة ثم حجبها ، وعاد إلى مصر فشارك في تحرير بضع جرائد وكتب عدة روايات تمثيلية ، وعاود إصدار مجلته ، فاستمرت إلى أن توفي في القاهرة ، من آثاره ابن رشد وفلسفته ، تاريخ المسيح ، الدين والعلم، ورواية المال ، الكوخ الهندي .راجع الزركلي ، الأعلام ، ج5 ص 141.

[1]- مجلة المنار ،مج 5،و6.

يبلغان منه الجهد ويتفصدّ جبينه عرقا في اليوم الشّديد البرد"[1] ، كما أورد في النبذة الأولى مناظرة جرت بينه وبين أحد علماء التاريخ المسيحيين –لم يذكر اسمه – وكان موضوع المناظرة :"من هو أفضل وأعظم رجال التاريخ " انتهت كما قال رشيد رضا بإذعان ذلك المسيحي وإقراره بأن محمدا ﷺ هو أفضل وأعظم رجال التاريخ .

وحتى وإن كان رشيد رضا قد ردّ على أقاويل هؤلاء المسيحيين في هذه المقالات التي عقدها في المنار إلا أن هذه لم تكن المساحة الوحيدة التي خصصها لذلك ، بل كانت هناك مساحة أخرى أكثر تخصيصا ، سنتحدث عنها بعدما نعرض للتداعي الخارجي الثاني الذي واجه النبوة لما لهما من علاقة موضوعية .

ثانيا : تداعي المستشرقين .

يمكن القول إن أهمّ ما أحدثته النهضة الأوربية إلى جانب التطور العلمي الكبير ، هو انفتاح الإنسان الأوربي على الآخر ومحاولته دراسة التراث العالمي ، وقد كان اتجاهه في ذلك بنسبة كبيرة إلى شرق المعمورة، وذلك لأسباب عدة ، لا مجال لذكرها ، وقد اصطلح المفكرون أن يطلقوا على هذه الدراسات الشرقية اسم "الاستشراق" ، كما أطلقوا على المهتمين بهذه العملية اسم "المستشرقين" ، والذي يهمنا نحن في هذه المقدمة هو الإشارة إلى أن المستشرقين قد أولَوْا اهتماما كبيرا بدراسة الدّين الإسلامي ، كما أولوا اهتماما أكبر بدراسة صاحب هذا الدين محمدﷺ ، وكما أشرنا من قبل إلى المسيحيين الذين حاولوا الوصول إلى نتائج معينة عن الإسلام ، انطلاقا من مناهجهم العلمية ، فإن المستشرقين قد سلكوا السبيل نفسه ، وبالتالي فقد وصلوا إلى نتائج مطابقة للأولى ، والتي لم تكن ترضي في كثير من الأحيان العلماء المسلمين ، فماذا كان موقف رشيد رضا هذه المرة من هذه الحركة الاستشراقية ،ومن هذه الدراسات الاستشراقية ؟

لقد اعتبر رشيد رضا أن الحركة الاستشراقية الموجهة لدراسة الدّين الإسلامي ما هي إلا مشروع كنسي وحملة على الملة الإسلامية هدفها النيل من الديانة الإسلامية عموما [2] والتأثير على عقول البسطاء والجهلة من المسلمين، وإدخال الشّكّ في اعتقادهم ، وعلى ذلك فإنه لا بد من الوقوف في وجه هذه الحملة الموجهة ، ومعارضة الكنيسة على حد تعبيره ، خصوصا العلماء [3] ، ولم يكتف رشيد رضا بمجرد حثّ العلماء المسلمين على مواجهة هذا التحدي الذي تواجهه الأمة

---

[1]- مصدر سابق ، مج4 ، 16 ، ص 619.
[2]- المصدر نفسه ، مج30 ، ج7 ، ص 524.
[3]- المصدر نفسه ،ج6 ، ص441.

الإسلامية ، بل ساهم أيضا في رد هذا العدوان ، والمتفحص للمنار يجد مواضيع عدّة في هذا الشأن، ويمكننا أن نذكر مثالين على ذلك .

الأول فيه رد على كتاب عنوانه "حياة محمد " كتبه المستشرق درمنغام(*) Dermenghem ، والذي أورد فيه شبهتين ناقشهما رشيد رضا مطولا ، وهتان الشبهتان هما :

- القرآن المرسوم في المصاحف غير منزّل من السماء ، أي أن الصحابة زادوا فيه تأويلاتهم وشروحهم فضلا عن خطئهم في نقله .

- إن محمدا ﷺ كان يأخذ عن اليهود والنصارى ، وبالتالي فهو لم يوح إليه ، و لم يكن نبيا. [1]

والثاني فيه رد على المستشرق السويسري " مونتيه"(**) الذي كان أخـــرج ترجمة للقرآن بدأها بمقدمة عن شخصية النبي ﷺ ولكن يبدو أن هذا الأخير كان أكثر اعتدالا من سابقه ، بشهادة رشيد رضا نفسه ، رغم أنه لم يكن مسلما ولا متأثرا بالإسلام .[2]

والآن بعد عرضنا لهذين المثالين نقول : إن تعامل رشيد رضا هذه المرّة مع هذين التحدّيين الخارجيّين قد كان أكثر تركيزا واهتماما من النوع الأول – التحدي الداخلي – وعلى هذا فمن الطبيعي أن نجد اختلافا واضحا في طبيعة تناول الشبهات من كلا النوعين والرّد عليها كذلك ، فإن كنا قد قلنا فيما يخص التحديان الداخليان بأن رشيدا رضا قد استخدم في الرّد عليها مناهج وأساليب معروفة ومقررة لدى المسلمين ، فإن الأمر فيما يخص التحديان الخارجيان مختلف ، فقد حصلت نقلة نوعية فيما يخص مناهج الاستدلال لم تكن معروفة من قبل ، ورغم أننا لا ندّعي أن رشيد رضا هو أول من تطرق إليها واستعملها ، إلا أننا نلمح بوضوح نوعا من التجديد في أساليب عرض بعض قضايا العقيدة الإسلامية والدّفاع عنها ، خصوصا قضية النبوة ، هذا ما يمكن ملاحظته على كل حـــال في أحد أبرز كتبه وأكثرها شهرة،ألا وهو كتاب " الوحي المحمدي " ، فالكتاب موضوعه الرئيسي يدور حول القرآن الكريم،كأكبر معجزة دالة على النبي ﷺ وأعظمها .

لقد استطاع رشـــيد رضا في هذا الكتاب أن يتحرّر كلّيا من الاعتماد على منهج المتكلمين القدامى وأساليبهم في تقرير العقيدة الإسلامية من منطلق علم الكلام التقليدي ، إلى محاولة إبداع منهج جديد يعتمد على مصادر استدلالية علمية حديثة ، وهو ما سبق وأشرنا إليه ، حيث قلنا عن أهم مقترح اقترحه لتجديد علم الكلام أن يكون على منهج سماه " الاستقلال والاستدلال" ، ولقد

---

* - لم أعثر له على ترجمة .

[1]- مصدر سابق ،الصفحة نفسها .

** - لم أعثر له على ترجمة كذلك .

[2]- المصدر نفسه ، ص 524.

كان في هذا الكتاب الذي نتحدث عنه مستقلا استقلالا تاما عن نزعة المذهبية التي طغت على العقلية الإسلامية منذ قرون عديدة ، فقتلت روح الإبداع فيها ، وغرست فيها في المقابل روح التّبعية المذهبية ،والتي جسدتها مقولة الغزالي الشهيرة :"ليس في الإمكان أبدع مما كان " فلا بد إذن من كسر هذا الحاجز الذي لم يعد يعيق العقيدة الإسلامية وحسب ، بل الإسلام كله ، وهو ما فعله رشيد رضا ، أو حـــاول أن يفعله ، حيث نجد الكتاب خـــال من أية نزعة اعتزالية أو أشعرية .. ولا حتى مجرد التعرض لها أو تشنيعها أو نقدها ، فزمن هذه التصرفات بالنسبة له قد طوي ، واستبدل به زمنٌ العدوّ فيه بات أخطر وأذكى ، ولا يمكن مقارعته إلا بالتفـــاف المسلمين في صف واحد ، وإزالة كل عوامل الشقاق والفراق التي تسببت فيها عصبية التقليد والإتباع.

هذا من جانب الجانب الأول ، وهو الاستقلال ، وأما من جهة الجانب الثاني وهو الاستدلال، فمن غير المعقول في نظر رشيد رضا أن يبقى المسلمون يعتمدون في استدلالهم على ما كان يعتمد عليه المتكلمون الأول ، من الفلسفة اليونانية والمنطق الأرسطي ، والحال أن الغرب الحديث يملك ترسانة من العلوم والمعارف الحديثة ، التي يستعين بها في غزوه الفكري للمسلمين ، ويهدد بها الدين الإسلامي ، عقيدة وشريعة ، وكما استطاع المسلمون الأوائل توظيف علوم اليونان وغيرهم في الدفاع عن عقيدة الإسلام ، فكذلك الحال بالنسبة لعلوم الغرب الحديثة ، يمكن الاستعانة بها للدفاع عن العقيدة الإسلامية ، وهو ما فعله رشيد رضا في كتابه الوحي المحمدي وفي غيره أيضا ، وهو ما سيكون حديثنا الآتي .

المبحث الثاني :مصادره الاستدلالية على قضايا النبوة .

إذا كنا قد قلنا سابقا إن رشيد رضا قد اقتنع بضرورة التجديد في علم العقيدة الإسلامية ، وفق المعطيات الجديدة التي يعيشها المسلمون في العصر الحديث ، ورأينا أنه قد حاول بدوره الخوض في هذا المجال من خلال جملة المقترحات المنهجية والمواضيعية ، وكذا من خلال المؤلفات التي تركها ، وأبرزها الوحي المحمدي ، فإننا نرى أنه من اللائق قبل أن نخوض في محاولة إسقاط محاولاته التجديدية على نموذج النبوة الذي اخترناه ، أن نتحدث قليلا على طبيعة المصـــادر التي كان يعتمد عليها في استدلالاته ، وما موقعها هي الأخرى من حيزّ التجديد العقدي الذي نتحدث عنه، وقد رأينا بعد التفحص أن رشيد رضا يعتمد على ثلاثة مصادر استدلالية ، خصوصا في معرض حديثه عن النبوة ، وهذه المصادر هي :

المطلب الأول : المصدر الإسلامي .

يمكن أن يكون لهذا المطلب علاقة بما كنا تناولناه سابقا ، والخاص بموقف رشيد رضا من التراث الإسلامي عموما والعقدي خصوصا ، وبالتّالي فإن بعض الكلام الذي سنقرّره هنا لن يكون جديدا على القارئ ، كما أنه لا يبلغ من الأهمية مبلغا عظيما ، وذلك طبعا لأن أغلبه مألوف ، إذ يشترك فيه جل المفكرين المسلمين تقريبا ، وعلى هذا الأساس نقول : إن المصادر الاستدلالية على قضايا النبوة عند رشيد رضا هي : القرآن الكريم والسنة النبوية ، وتراث المتكلمين .

الفرع الأول : القرآن الكريم .

قد يكون الكلام غير ذا فائدة إذا أردنا معرفة موقف رشيد رضا من أية قضية دينية ، دون الرجوع إلى القرآن الكريم وتفسيره خاصة ، وهذا الكلام يتأكد عند الحديث على قضايا العقيدة الإسلامية، وتعليله لا يحتاج إلى جهد كبير ، فتفسير المنار هو أكبر دليل على هذا القول ، ولكن الشّيء الذي يلفت الانتباه وتجدر الإشارة إليه، هو أن تفسير المنار هو الجامع لباقي المصادر الاستدلالية الأخرى التي سنتحدث عنها لاحقا ، وإن لم يكن بصفة شاملة – أي أنه ليس المصدر الوحيد – فكيف يستدل رشيد رضا على قضايا النبوة من القرآن الكريم ؟

نستبق القول في بداية إجابتنا على هذا السؤال لنشير إلى أن رشيدا رضا ينظر إلى القرآن الكريم على أنه معجزة – بنظرة خاصة – بحيث يكاد ينفي المعجزات الأخرى التي سمّاها كونية ، أو على الأقلّ يقلّل من شأن كونها دالة على نبوة محمد ﷺ ، ليس فقط لأنه تحدّى العرب فلم يقدروا على

مثله ، أو غيرها من الأدلة المعروفة عند السّلف المتكلمين ، بل إن القرآن دال على نبوة محمد ﷺ ، لأنه احتوى على بيان مقاصد عشرة ، بها يتحقق صلاح أفراد البشر وجماعاتهم وأقوامهم [1] ، والنبوة حسب رشيد رضا تقع في الصفّ الثاني من هذه المقاصد العشرة يعد المقصد الأول وهو بيان أصول الدين ، وحسب رشيد رضا دائما فإن مقصد القرآن من ذكر النبوة مطلقا ، هو لبيان ما جهل البشر من أمور النّبوة والرّسالة ووظائف الرّسل .

لقد رأى رشيد رضا أنّ القرآن الكريم إنما جاء ليحقق مجموعة من المقاصد العامة لإصلاح البشرية وإرشادها إلى الطريق السّديد،وهذه المقاصد هي :

- بيان أركان الدّين وأصوله .
- بيان شؤون النبوة والرسالة ووظائف الرسل.
- بيان أن الإسلام دين الفطرة السّليمة والفكر والعقل والعلم والحكمة .
- بيان الإصلاح الإنساني الاجتماعي السّياسي الوطني .
- بيان مزايا الإسلام العامة في التكاليف الواجبة والمحظورة .
- بيان حكم الإسلام السّياسي الدولي .
- بيان الإصلاح المـــالي .
- إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وفلسفتها .
- إعطاء النّساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية .
- بيان هداية الإسلام في تحرير الرقيق.

ويهمنا نحن المقصدين الأولين لما لهما من علاقة بموضوعنا ، فكيف طرحهما رشيد رضا ، وكيف استدل بهما على قضايا النبوة ؟

لقد ذهب رشيد رضا إلى أن أوّل مقصد عني به القرآن ، إنما هو بيان أصول الدين وأركانه ، وقد جاء تقسيمه لأصول الدين مخالفا لسائر التقاسيم المعروفة عند الفرق الإسلامية ، فقد رأينا من قبل أن الشيعة قد جعلوا أصول الدين عندهم خمسة هي : التوحيد ، العدل ، النبوة ، الإمامة ، المعاد ، ومن جهتهم جعل المعتزلة أصول الدين عندهم خمسة كذلك هي : التوحيد ، العدل ، المنزلة بين المنزلتين ، الوعد والوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحتى الإمام محمد عبده كان له رأي في هذه المسألة ، حين قرر أن الأصول الإيمانية في مجملها ثلاثة هي : الإلهيـــات ،

[1]-رشيد رضا ، الوحي المحمدي ، ط ، دار الكتب ، الجزائر ، 1988، ص 166.

النبوات ، والمعـــاد ، وهو في هذا كما يقول محمد السّيد قد تابع أبا حامد الغزالي وكذا ابن تيمية اللّذان يذهبان إلى التقسيم ذاته .[1]

بالنسبة لرشيد رضا،فإن أصول الدين التي جاء بها الأنبياء كلهم،وكل الرسالات الإلهية إنما كانت على أصول ثلاثة هي: الإيمان بالله،والإيمان بالبعث والجزاء ، والعمل الصالح ، وقد كان مصدره في هذا التقسيم قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[2]

ويبدو من الوهلة الأولى أنّ هناك تقاربا بين تقسيم رشيد رضا وتقسيم أستاذه من قبل ، فالإيمان بالله وهو الركن الأول من أصول الدّين يؤول في نهاية المطاف إلى إقرار التوحيد الكامل لله تعالى من ربوبية وألوهية [3]، وهو ما عبّر عنه عبده بالإلهيات ، ومن غير شك فإننا نلاحظ أن هذا الأصل متفق فيه بلا نزاع عند جميع الفرق الإسلامية .

وأما الرّكن الثاني وهو البعث والجزاء ، فإننا نجده كذلك عند محمد عبده الذي عبّر عنه بالمعاد، لكن يبدو أن نظرة رشيد رضا لهذا الأصل هي أوسع من نظرة عبده إليه ، ذلك أن رشيدا رضا قد حاول أن يدخل إلى جانب الإيمان بالبعث أو اليوم الآخر أصولا أخـــرى أقرّها المتكلمون من قبل ولعلّ أهمها : أصل العدل الذي أثبتته المعتزلة والشيعة ، وكذا أصل الوعد والوعيد الذي أثبته المعتزلة وحدهم ، وهو ما عبر عنه رشيد رضا بالجزاء ، ولعل هذا النص الذي سنورده الآن هو الدليل على قولنا هذا حيث يقول فيه :" إن الإيمان بالبعث والجزاء وهو الركن الثاني في جميع الأديان من لوازم الرّكن الأوّل وهو الإيمان بالله تعالى المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزّه عن العبث في أفعاله وأحكامه ... وكفر الإنسان بهذا الركن من أركان الإيمان يستلزم كفره بحكمة ربه ، وعدله في خلقه ... ومن لوازم هذا الكفر احتقاره لنفسه باعتقاده أنه خلق عبثا لا لحكمة بالغة ، وأن وجوده في الأرض موقوت محدود بهذا العمر القصير ... وأنه يترك سدًى ، لا يجزي كل ظالم من أفراده بظلمه ، وكل عادل وفاضل بعدله وفضله ، وإذا كان هذا الجزاء غير مطرد في الدّنيا لجميع الأفراد تعيّن أن يكون جزاء الآخرة هو المظهر الأكبر للعدل العام".[4]

وأما الرّكن الثالث من أصول الدّين التي قرّرها رشيد رضا فهو العمل الصالح ، وهنا نجد الاختلاف واضحا ، بينه وبين أستاذه عبده ، فهذا الأخير قد جعل النبوة ركنا ثالثا من أركان

---

[1]- محمد صالح محمد السيد ، إعادة بناء علم التوحيد عند الإمام محمد عبده ، ص 52.
[2]-سورة البقرة ، الآية 62.
[3]- رشيد رضا ، الوحي المحمدي ، ص 170.
[4]- المصدر نفسه ، ص179.

أصول الدّين ، في حين نجد رشيد رضا قد استبدله بركن العمل الصالح ، وهو قريب من ركن المعتزلة الأخير "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " وهذا الرّكن بالنسبة لرشيد رضا أثر لازم للإيمان بالله ،وبالحساب ، وبالجزاء في الآخرة وثمرة له [1]، والأركان الثلاثة يمد بعضها بعضا ، ويتوقف كمال كل واحدة منها على الآخر، فمن فسد عمله ، نال جزاءه على قدر نيته في هذا العمل .

يمكن القول بهذا : إن الرّكن الأخير الذي أقرّه رشيد رضا يمثل تجديدا منهجيا مهمّا للعقيدة الإسلامية ، فقد أراد أن يعيد للعقيدة الإسلامية تلك الحركيّة التي افتقدها المسلمون منذ قرون عديدة ، بعد أن غاصوا في التجريد والتنظير ، وتركوا العمل والسّعي وهو ما أدّى بهم إلى الوصول إلى تلك الحالة من التخلف والانحطاط.

لنا الآن نتساءل سؤالا منهجيا مهمًّا هو : لماذا لم يجعل رشيد رضا من النبوة أصلا من أصول الدين عنده ؟ وأين مكانها ضمن هذه الأولويات إذن ؟

الجواب على هذا التساؤل يكون بالقول إن هذه الأصول هي بالتأكيد لا تخص أصول العقيدة فقط ، بل هي أصول عامة للدين الإسلامي كلّه ، وبالتّالي فإن النبوة عند رشيد رضا من هذا المنظار تقع في جهة مقابلة لهذه الأصول ، ذلك أن الأنبيـــاء عليهم الســـلام إنما بعثهم الله سبحانه وتعـــالى لغرض أن يبيّنوا للناس هذه الأصول،فوظيفتهم إذن هي وظيفة تعليمية تربوية ، ومن هنا كان المقصد الثاني من المقاصد العامة التي جاء القرآن ليرسّيها للناس هي : بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل.

لقد راح القرآن الكريم يبين للناس الانحرافات التي وقعت فيها البشرية في هذه الأصول الثلاثة ، وقد كان تركيزه منصبّا خاصّة على اليهود والنصارى الذين كانوا أهل كتب ورسل ، ولكنهم لم ينتفعوا بهم بل اتبعوا ما تمليه عليهم أهواؤهم وشهواتهم ، وكذّبوا الرّسل واتهموهم ، وحطوا من قيمتهم وقيمة آياتهم الدالة عليهم ، ولم يكن حال النّبي الخاتم أحسن حالا من سائر الأنبياء من حيث الطعن والاستهزاء ، لكن آيته الكبرى "القرآن الكريم " كانت مختلفة عن سائر الآيات الأخرى ، وهذه المقاصد التي حواها هي الخطوط العامة التي جاء بها لإصلاح البشر .

إن هذه النظرة المقاصدية القرآنية لمسألة النبوة هي بدورها تجديد منهجي لفهم القرآن الكريم ، والعقيدة الإسلامية على حد سواء ، ولا شكّ أن رشيد رضا قد ورثها عن أستاذيه الأفغاني وعبده، وكان لهذا الأخير تأثير أكبر من خلال رســـالة التوحيد التي تحدثت عن النّبوة بشكل لم

---

[1]- مصدر سابق ، ص 184.

يسبق له مثيل ، لكن ومع أنّ رشيد رضا قد جعل من النبوة مسألة مقاصدية للقرآن الكريم ،إلا أن هذه الأخيرة كانت بحاجة إلى إثباتها بأدلة من مصادر أخرى ، وهو ما دفعه إلى الاستعانة بهذه المصادر للاستدلال على النبوة .

هذا مجمل ما يمكن قوله حول استدلال رشيد رضا بمصدر القرآن الكريم ، أما فيما يخص استدلاله بالسنة النبوية فإن منهجه في الاستدلال على قضايا النبوة من خلالها ، لا يختلف عن منهجه في استخدام السّنة بصفة عامة ، والذي يعتمد فيه على ما صحّ سنده وتواتر ، وخلا متنه من الاضطراب والإشكال ، لكن هذا لم يمنعه من الوصول إلى نتائج في العقيدة الإسلامية مخالفة لما تقرر عند جمهور العلماء ، وأكثر هذه النتائج كانت تخصّ مسألة المعجزات ، وسيأتي بيانها في موضعها .

بقي لنا أن نشير إلى نوع آخر من استدلالات رشيد رضا فيما يخص المصادر الإسلامية اعتمد عليها كثيرا ،وهي :

الفرع الثاني : آراء المتكلمين .

لا نقصد من خلال عرضنا لهذا المصدر الاستدلالي أن نقول إن رشيدا رضا قد جدد أو كانت له رؤية تجديدية في علم العقيدة الإسلامية اعتمادا على آراء المتكلمين ، بل جاءت هذه النقطة في معرض حديثنا عن مصادره الاستدلالية بصفة عامة ، فلقد كان رشيد رضا كثير الرجوع إلى أقوال المتكلمين ، حينما يناقش قضية من القضايا العقدية ، وقد سبق لنا ورأينا جملة من المتكلمين الذين كان يكثر من الاستشهاد بأقوالهم ، كالفخر الرّازي ، وأبو حامد الغزالي ، وعضد الدين الإيجي(*) والزمخشري ، وغيرهم ، ومن بين هؤلاء يبقى الرّازي أهمّ متكلم يعتمد عليه رشيد رضا على الإطلاق ، ويرجع ذلك إلى أنّ تفسير مفاتيح الغيب هو أحد المصادر المعتمدة في تفسير المنار، وكثيرا ما كان رشيد رضا يعرض آراء الرّازي كخلاصة لمذهب الأشاعرة ، وفي المقابل فإننا نجد شخصية أخـــرى من نفس مدرسة الأشاعرة ، وهو الإيجي يحضى بنوع من القبول لديه ، وكثيرا ما كان يعتمد على أقواله ، فنجده مثلا ينقل عنه نصوصا مطولة في قضية عصمة الرّسل عليهم السلام،من دون أن يبدي ملاحظات عليها ، رغم أنها لا تختلف من حيث الطرح مع آراء الرّازي، فكلاهما من متفلسفة الأشاعرة .

---

*- عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار أبو الفضل عضد الدين الإيجي (ت 756 هـ/ 1355 م) عالم بالأصول والمعاني والعربية ، من أهل إيج بفارس ، ولي القضاء وأنجب تلاميذ عظاما ، وجرت له محنة مع صاحب كرمان ، فحبسه بالقلعة فمات مسجونا ، من تصانيفه : المواقف ، والعقائد العضدية ، والرسالة العضدية ، وجواهر الكلام .راجع الزركلي ، الأعلام ، ج3 ، ص295.

لقد سبق ورأينا موقف رشيد رضا من علم الكلام التقليدي وجملة انتقاداته له ، لكننا عثرنا في مجلة المنار على مجموعة مقالات ، هي عبارة عن دروس في العقيدة الإسلامية ألقاها بمقر إدارة جمعية تسمى "جمعية شمس الإسلام " بطلب من رئيسها ، فكان أن نشرها رشيد رضا في المنار ، إتماما للفائدة كما قال لينتفع بها المسلمون. [1]

إن ما يهمنا نحن في هذه الدروس المجموعة هو طريقة الاستدلال فيها على قضايا العقيدة الإسلامية عموما ، والنبوة على وجه الخصوص ، وبنظرة متفحصة نقول إن هذه الدروس تشبه إلى حد بعيد جدا رسالة التوحيد التي كتبها محمد عبده .

فمن النّاحية المنهجية استطاع رشيد رضا أن يتجاوز كل الخلافات التي كانت قائمة بين الفرق الإسلامية في قضايا عديدة من العقيدة الإسلامية ، ويعرضها في أسلوب تقريري كأنه لا خلاف فيها ، فمن يطالع ما كتبه حول مسائل عديدة وخاصة مسائل الصفات ، يرى بوضوح نزعة متحرّرة تحرّرًا كلّيا من العصبية المذهبية ، والطعن في دين العلماء ، أو الحطّ من اجتهاداتهم ، وإذا أردنا أن نستشهد لما قلناه في هذا الصدد نأخذ هذا النّص الذي يقول فيه ، بعد أن ذكر تقاسيم العلماء للصفات :" فلم يرد في الكتاب العزيز ولا في السّنة السّنية، ولا في آثار التابعين شيء من هذه الاصطلاحات ، ولا أن الصفات عين الذات أو غير الذات ، أو لا عين ولا غير ، وأنه لو كشف عنا الحجاب لرأيناها ، ونحن لا نطعن بواضعي هذه الاصطلاحات ، ولا بدينهم"[2]، وهو الشّيء نفسه الذي قام به من قبل أستاذه عبده في رسالة التوحيد وقد نشرنا من قبل رأي فريد وجدي حين قال :" إن رسالة التوحيد تشير إلى أكبر معارك الفلاسفة في الأديان، مع تقرير ما يوافق الإسلام منها وردّ ما يخالفه ، من غير تصريح بأن هنالك مباحث وشبهات مشكلة". [3]

وأما الجانب المنهجي الثّاني الذي تشترك فيه هذه الرسالة مع رسالة التوحيد ، هو أنها كتبت على طريقة تعليمية تلقينية بسيطة ، فقد ظن محمد عبده أن أكثر أهل عصره لا يفهمون اصطلاحات المتكلمين القدامى ، التي كانوا يوردونها في كتبهم[4] ، لذلك بسّط مباحث العقيدة الإسلامية على شكلها الموجودة في رسالة التوحيد، وعلى نفس هذا المنوال تماما سار رشيد رضا في هذه الرّسالة مبينا فيها غرضه الذي هو نفس غرض عبده من رسالته ، يقول:" إذا أنا قرأت

---

[1]- مجلة المنار ، مج 2 ، ج 3 ، ص 438.
[2]- المصدر نفسه ، ص 398.
[3]- محمد عبده ، رسالة التوحيد (المقدمة) ،ص 29.
[4]- سالم يفوت ، قراءة في رسالة التوحيد لمحمد عبده ،www.fikrwanakd.aldjabiriabed.com

لكم العقائد بالبراهين المنطقية ، فلا شكّ في أنه لا يستفيد منها إلا نفر قليل ، مالي ولتقرير الاقتراني والاستثنائي ولبرهان التطبيق والخلف ، أنا أحبّ أن أشرح المسائل بعبارة يفهمها كل سامع ، وأقيم عليها الأدلة الواضحة التي تتقبلها العقول وتشربها القلوب ، وتسكن إليها النفوس ، بحيث يكون متناولها على نور من ربّه ، فلا يرجع عنها ،ولو رجع جميع العالمين ، وبهذا القدر يخرج من مضيق التقليد المذموم الذي هو الأخذ بقول الغير بغير بصيرة".[1]

أما من النّاحية العلمية فإن الرّسالتين تتشابهان في طريقة عرض قضايا العقيدة الإسلامية ، وترتيب مباحثها بدءا بالمقدمات النظرية التي كانت في غالبيتها فلسفية محضة ، كمباحث الوجود وأقسامه ، وأدلة إثبات واجب الوجود ، وغيرها من الأدلة الفلسفية الأخرى إلى بيان مجمل صفات الله على نفس لغة المتكلمين القدامى ، مع اختلاف واضح وجلي لطريقة عرضها من الناحية العلمية ، وذلك باستخدام براهين وحجج علمية جديدة لم تكن موجودة عند المتكلمين سابقا[2] ، انتهاء بمبحث الرّسل والرسالات والحاجة إليهم ، وهنا نلاحظ جليا –كما سنراه لاحقا – تأثر رشيد رضا بأستاذه في هذا المبحث حيث نكاد نجزم أنه ما كان إلا تابعا له فيه ، سواء من النّاحية العلمية (استخدام الحجج والبراهين والعلوم الحديثة) أو من النّاحية المنهجية (طريقة تناول الموضوع) .

وفي المقابل نجد كتاب الوحي المحمدي يخلو تماما من أيّ عرض للمسائل الكلامية التقليدية أو حتى مجرد إشارة لها ، والسّبب واضح ويتمثل في تغير المخاطبين ، وكذا تغير أسلوب الخطاب الذي يقتضي التحرّر من المناهج القديمة إلى مناهج ملائمة لمقتضيات العصر ، وبالتالي فإن ما قرّره المتكلمون القدامى عن النبوة ، لا يفي بإقناع الخصوم الذين ينطلقون من الاكتشافات العلمية الحديثة ، سواء في ذلك العلوم الطبيعية أم الإنسانية على حد سواء .

---

[1]- مجلة المنار مج2 ، ج 3 ص 441.
[2]- المصدر نفسه ، الصفحة 441 وما بعدها .

المطلب الثاني : المصدر اليهودي والمسيحي .

لقد كان للمصدر اليهودي والمسيحي حضور كثيف في استدلالات رشيد رضا ، ليس على قضـــايا النبوة فحسب، بل وفي شتّى القضايا الأخرى ، والأكيد في الأمر أنه كان على اطّلاع واسع ومعرفة كبيرة بحقيقة هاتين الديانتين ، ومهتمّ كذلك بكلّ مستجدّاتهما ، وقد سبق لنا وذكرنا في بداية هذه الرّسالة أنه كان كثير التردد إلى مكتبة المبشرين الأمريكيين ، حيث كان يقرأ جريدتهم الدينية وبعض كتبهم ...ويناقش بعض القساوسة والمبشرين ، وهذا كله أيام كان طالبا في طرابلس ، هذا بالإضافة إلى الكم المعتبر من التآليف والمقالات التي وضعها في هذا المجـــال ، ويمكن أن نذكر كتبا مثل : "عقيدة الصلب والفداء "، " شبهات المسيحيين على الإسلام " ، بالإضافة إلى طبعه لإنجيل" برنابا" وتعليقه عليه ، وكذا المقالات العديدة المنشورة في المنـــار .

ولا شك أنّ اهتمام رشيد رضا بهذا المصدر، وجعله مصدرا استدلاليا لقضايا النبوة، دافعه الأساسي راجع إلى التداعي المسيحي الذي رأيناه من قبل، والذي كان يتهدد الثقافة الإسلامية من خلال أمرين اثنين كان لهما خطر كبير على الإسلام عموما وهما:

– الدراسات الاستشراقية التي كان يقوم بها مجموعة من الباحثين الذين كان لهم في غالب الأحيان هدف موجه ونية ليست سليمة تجاه التراث الإسلامي ، والثقافة الإسلامية عموما ، على غرار درمنغهام ، ومونته ، وحتى من داخل العالم الإسلامي كفرح أنطون .

– واتساع حركة التبشير والتنصير ، ونموها وتغلغلها في الأوساط الأمية من المجتمع الإسلامي ، ومحاولتها زرع الشّك في هذه الأوساط حول العقيدة الإسلامية ، وتقريب المعتقدات المسيحية إلى أذهانهم .

وأمام هذا الواقع الصعب يتبادر إلى ذهننا السّؤال التالي : ما هو منهج رشيد رضا في التعامل مع هذا المصدر ؟

نبتدئ الإجابة على هذا التساؤل بتبيين نقطة مهمة للغاية ، وهي أنّ رشيد رضا كان يتعامل مع هذا المصدر في كثير من الأحيان بصبغة دفاعية ، أي أنّه لم يكن همّه الهجوم على الديانة المسيحية أو اليهودية ، وتفنيد حقائقها بقدر ما كان يهمه الدفـــاع عن العقائد الإسلامية ، لولا أن أصحاب هاتين الديانتين ، هم الذين كانوا يتهجمون على الإسلام ويفترون ،يقول رشيد رضا :" كتبنا في فاتحة الجزء الخـــامس ، أننا طلاب مودة والتئام ، لا عوامل نزاع وخصام ، وأننا لا نود أن يطعن أحد من المسلمين والنصارى في دين الآخر ، لأن إظهار كل فريق محاسن دينه، كافية في

الدعوة إليه من غير حاجة إلى الطعن"[1] ، ويفهم من هذا الكلام أن رشيد رضا لم يكن كارها ولا حاقدا لهاتين الديانتين، ولا لأنصارهما كذلك ، إلا من أعلن عداوته للإسلام جهارا ، وسعى سعيه في هدمه ، لكن ومع كونه قد جعل من الديانتين المسيحية واليهودية مصدرا من مصادره الاستدلالية ، إلا أنه لم يكن يسلّم بصحّتهما ولا بصحّة الكتب المقدّسة المنسوبة إليهما ، مستعينا في ذلك بما وصل إليه أهل هذين الدينين أنفسهم من نتائج علمية ، أثبتت عدم كونهما وحيا ، فقد نشر في مجلة المنار مقالا عنونه " النبأ العظيم " مستعرضا فيه ما توصل إليه علماء آثار ألمان من اكتشافهم لشريعة حمورابي (*) ، والتي أكّدوا أنها الأصل الذي أخذ منه اليهود في كتابة توراتهم ، مؤكدين في ذلك ما كان محل جدل بينهم وهو ضياع التوراة الأصلية في زمن السّبي البابلي .

وهذا المقال هو واحد من مقالات عديدة منشورة في المنار تعرّض فيها رشيد رضا للديانة اليهودية بصبغة استدلالية على قضايا النبوة ، فبالرّغم من أنّ النتيجة العامة التي توصل إليها العلماء في بحثهم هذا والتي ذكرناها سابقا ، تحوي جانبا من الصحّة ، إلا أن نتيجتها الثانية كانت تمثل شبهة أو تحديا فعليا واجه مسألة النبوة ، وتتمثل هذه الشبهة في جزم العلماء أن موسى عليه السلام لم يكن نبيا ، وشريعة قومه لم تكن وحيا [2] ، طالما أن التّوراة الأصلية – المزعومة حسب رأيهم – مفقودة ، وأن إبراهيم عليه السلام هو الذي حمل نسخة شريعة حمورابي من بابل إلى فلسطين عند قدومه إليها ، وأن موسى عليه السلام قد اقتبس منها كل ما رآه يصلح لسياسة بني إسرائيل ، كما اقتبس بعض ذلك من الشريعة المصرية التي تربّى في بيت ملكها ، وبذلك تكون هذه الشريعة التي يفتخر اليهود والنصارى أنها إلهية مقتبسة من الشرائع الوثنية ، ويكون موسى عليه السلام مزورا ، بادعاء أنها أوحيت إليه من الله تعـــالى. [3]

وحتى وإن كانت هذه النتيجة تبدو شبهة وتحديا لنبوة سيدنا موسى عليه السلام، إلا أن رشيد رضا قد حـــاول أن يعكس الموقف وذلك بأن جعل من هذه الشبهة التي تطعن في نبوة سيدنا موسى عليه السلام حجة لنبوة سيّدنا محمد ﷺ وصحة نبوة موسى عليه السلام كذلك ، فإذا كانت التوراة قد زُوِّرَت ، فإن القرآن لم يُزوَّر ، بل على العكس من ذلك ، فحقائقه التي أقرّها قد سبقت الحقائق المكتشفة من قبل هؤلاء العلماء الألمان ، لكنها لا تعني أن النبي موسى عليه السلام قد زوَّر التوراة ، بل إن بني

---

[1]- مجلة المنار ، مج 5 ،ج1 ، ص 379.

* - حمورابي (1792-1750ق م) ملك البابليين ، وهو صاحب الشريعة البابلية المشهورة ، وقد بلغت المملكة البابلية في عهده أوج عظمتها ، شن حمورابي في بداية حكمه حربا على بلاد سومر ، فضمها إلى مملكته ، وأسرع في إخضاع دويلات النهرين وافتتح المدن القريبة من بلاد الشام وسواحلها ، لم تقتصر شهرته على أعماله الحربية ، بل امتدت إلى الإصلاحات التي قام بها وإلى نشره الحضارة البابلية ، وعني عناية شديدة بإدارة المملكة ، وقام بمشاريع عدة خاصة في الزراعة والري ، ونشر الرخاء في البلاد واهتم بالشؤون الدينية ونشر العدل .راجع ،عبد الوهاب الكيلاني وآخرون ، الموسوعة السياسية ، ج2 ، ص586.

[2]- مجلة المنار ، مج6 ، ج3 ، ص 89.

[3]- المصدر نفسه ، ص 90.

إسرائيل هم الذين أضاعوها وحرفوها بعده ، يقول رشيد رضا :" وإنْ تعجب فأعجب العجب أن القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا قد نطق بما أثبته العلم ، وأيّدته الاكتشافات في هذا العصر ، وحل هذا الإشكال حـــلا لا بد أن يرجع إليه جمـــيع العلماء في وقت قريب ، وهذه معجزة ظاهرة أو نبوة باهرة ...حكـــم القرآن بأن بني إسرائيل نسوا حظا من الوحي الذي ذكرهم الله به ، على لســـان موسى عليه السلام، وحفظوا حـــظا آخر ، وقع فيه شيء من التحريف والكذب "[1]قال تعـــالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾[2] هذا فيما يخص التوراة،وأما فيما يخص الأناجيل فقد شبّهها رشيد رضا بكتب السّيرة لدى المسلمين التي لا تدل على أنها وحي ، يقول في هذا :"وقد بينا من قبل حقيقة إنجيل المسيح ، وكون هذه الكتب لم تحو إلا قليلا منه ، كما تحوي كتب السّيرة عندنا على القليل من القـــرآن والحديث ، وهذا القليل من الإنجيل قد دخله التحريف والتناقض".[3]

وما نقوله هنا يتطابق مع ما قلناه سابقا حول المصادر اليهودية فبالرّغم من أن المصادر المسيحية محرفة ، إلا أن رشيد رضا قد استغلها كمصادر استدلالية على قضايا النبوة ، وذلك من خلال مقارنتها دائما بالقرآن الكريم، فبالنسبة له ، فإنه يرى أنّ الصورة التي يقدمها الإنجيل عن الأنبياء بارتكابهم المعـــاصي بمختلف أنواعها هي بالتأكيد صور مشوّهة ، لا تليق بمقام الأنبياء والمرسلين الذين بعثهم الله تعالى ليكونوا هداة للبشرية منقذين لهم ، إن ما تصوره الأناجيل من مواقف الأنبياء يخلّ بميزة عظيمة امتازوا بها دون سواهم من البشر ، وهي العصمة ، وسنعود إلى هذا الموضوع في مكانه .

فحاصل الكلام إذن هو أن التوراة والإنجيل التي بين أيدي أهلها الآن ، هي بالتأكيد ليست التوراة والإنجيل المنّزلة من السّماء ، وكانتا وحيا من الله ، وبقي لنا أن نشير إلى نقطتين مهمّتين في مبحثنا هذا تتعلقان بمنهجية الاستدلال بهذين المصدرين على النبوة :

- الأولى وهي أن كلا من التوراة والإنجيل يحتويان على نصوص وشواهد فيها بشارات تختص بظهور النبي محمد ﷺ كخاتم للأنبياء ، والحقّ إنّ رشيد رضا قد توسع في استخدام هذه البشارات توسّعا كبيرا ، وهذا بفضل معرفته الواسعة بالأناجيل وكتب النصارى عموما ، ولا نريد أن نذكر أمثلة على ذلك هنا لأننا سنعود إليها من دون شكّ في الفصل التطبيقي الذي يخص إثبات قضايا النبوة .

---

[1]- رشيد رضا ، الوحي المحمدي ، ص90.
[2]- سورة المائدة ، الآية 14.
[3]- تفسير المنار ،ج 6 ، ص 288.

– والثانية وهي أن هؤلاء النصارى الطاعنين في شخص النبي ﷺ ، وفي نبوته ، لم يستطيعوا رغم الجهود المضنية التي بذلوها أن يصلوا إلى مبتغاهم ، بل كان الفشل مصير كل من حـــاول أن يسير على هذا النهج إلا بسلوك إحدى السّبيلين ، إما بتحريف النصوص الدينية الإسلامية من قرآن وسنّة ، كما كان الحال مع أحد النصارى الذين ناقشهم رشيد رضا حول بعض تحريفاته في القرآن والتي وضعها في كتاب سماه هذا النصراني :" أبحاث المجتهدين " ، زاعما أنه سيثبت صحة التوراة والإنجيل من خلال آيات قرآنية ، حرفها تحريفا مشينا .[1]

وإما ثانيا بتعمد الاستخدام السّيء لمناهج نقد الأديان ، واستعمالها لدراسة الإسلام ، قصد الوصول إلى نتيجة مقررة سلفا ، والأمثلة على هذه الحـــالة كثيرة ، ولكنّ أقرب مثال يمكن ذكره هنا هو كتاب درمنغهام المعنون بـــ "حياة محمد " والذي رد عليه رشيد رضا كما سنراه لاحقا .

وإزاء هذين السّبيلين لم يكن من رشيد رضا إلا تبيين حقيقة الدّين الإسلامي ، ومناقشة الآراء غير السّليمة التي يقررها هؤلاء حول الإسلام ، والعقيدة الإسلامية خصوصا ، والملاحظ في هذه المناقشات التي عقدها رشيد رضا ، أن فيها نزعة حماسية شديدة ، جعلته في كثير من الأحيان يعتمد أسلوب الإلزامات الذي كان معروفا عند المتكلمين القدامى ، والذي كان محدود الفائدة مع هؤلاء المسيحيين ، ويبدو أنه كان على علم بهذه الحماسة التي لديه،لكنه اعتبرها ضرورية،يقول في ذلك :" ولا شك أننا إذا كلنا لهؤلاء المؤلفين –المسيحيين – الصاع بالصاع،بأن تجاوزنا حدود المدافعة إلى المهاجمة ، يرون شبرنا ذراعا ، وذراعنا باعا ، فإنه إذا لم يثبت دين الفطرة ، لا يمكن أن يثبت دين غيره".[2]

ورغم هذا فإننا نؤكّد في الأخير أن هذا المصدر كان من أهم المصادر الاستدلالية التي اعتمدها رشيد رضا للاستدلال على قضايا النبوة إلى جانب المصدر الإسلامي ، الذي رأيناه سابقا ، والمصدر العلمي الذي سنتحدث عنه الآن .

---

[1]- مجلة المنار ، مج4 ، ج14، ص573.
[2]- المصدر نفسه ، مج 5 ، ج3 ، ص 379.

المطلب الثالث : المصدر العلمي .

وهو النّوع الثـــالث من أنواع المصـــادر الاستدلالية المعتمدة من طرف رشيد رضا ، وأهمها – بالنسبة لنا –على الإطلاق ، وذلك لاعتبارين : الأول يتمثل في كون هذا النوع من الاستدلال حديث في استعماله ، فإذا كان المصدران السّابقان (الإسلامي، واليهودي والمسيحي) معتمدان في علم الكلام التقليدي ، فإن هذا المصدر العلمي لا يوجد له أثر في علم الكلام التقليدي ، لأسباب موضوعية عدة ، أهمها محدودية الحقائق العلمية لدى المسلمين آنذاك ،والتركيز والاعتماد على العلوم الفلسفية والمنطق ، وغيرها من الأسباب الأخرى .

والاعتبار الثاني يتمثل في النظرة السّلبية التي طغت في زمن رشيد رضا لدى كثير من المسلمين وغير المسلمين على السّواء فيما يخص العلاقة بين العلم والدين على وجه العموم ، حيث كانت الفكرة السّائدة لدى الكثير من هؤلاء – وأبرزهم الأزهريين – تقول بتعارض حقائق العلم مع حقائق الدين ، ولا يخفى لدينا طبعا أن لهذه الفكرة جذور مرجعية من خارج البيئة الإسلامية ، وبالتحديد من البيئة الغربية ، التي كانت تعاني من هذا المشكل حقيقة وواقعا ، وكانت ملزمة بالتضحية بطرف لاستبقاء الطرف الآخر .

لقد كان لزاما على رشيد رضا – تطبيقا للمنهج الإصلاحي الذي آمن به – أن يسبح ضدّ تيار هؤلاء القائلين بتعارض العلم والدين ، وطبعا لم يكن لوحده في هذا الميدان ، فقد سبقه إلى هذا العديد من المفكرين البارزين الذين اقترن اسمهم بالتجديد كالأستاذين : الأفغاني وعبده ، والشيخ حسين الجسر ، وبعض علماء الهند الذين أتوا بعده ، كمحمد إقبال(*) ووحيد الدين خان(**) ، ولهذا فلا غرابة أن نجده يلحّ على ضرورة معرفة العلوم العصرية على حد تعبيره ، واستغلالها لخدمة الدين الإسلامي ، ولن نكون مبالغين إن قلنا إن رشيد رضا اعتبر هذه القضية من الأولويات التي يجب على المسلمين الاهتمام بها وأخذها ، للخروج من المأزق الحضاري الذي وقعوا فيه ، ولقد كان حرصه على ضرورة الأخذ بهذه العلوم شديدا إلى درجة أن المشروع التعليمي لمدرسة دار الدعوة والإرشاد التي أنشأها كان مقرّرا فيها جملة من هذه العلوم العصرية .

---

*- ولد محمد إقبال في 9نوفمبر 1877م في مدينة" سيالكوت " بالهند ، من أسرة ذات أصل برهمي ، اعتنقت الإسلام قبل ميلاد إقبال بثلاثة قرون، نشأ نشأة دينية محضة ، تلقى تعليمه الأول على يد والده ثم شقيقه الأكبر ، ثم مدرسه الخاص "مير حسن " ثم دخل مدرسة البعثة الاسكتلندية بسيالكوت ، وتخرج منها في 1885م سافر بعدها إلى أوربا فدرس بجامعة "كامبردج " وعاد إلى بلاده ، فمارس وظيفة المحاماة في "لاهور " وانتخب عضوا في الجمعية التشريعية "للبنجاب " من تصانيفه : تجديد الفكر الديني في الإسلام ، ومحاضرات عديدة كان يلقيها في جامعات الهند،توفي في 21أفريل 1938.راجع :أبو الحسن الندوي ، روائع إقبال ، دط ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، دت ، ص30 وما بعدها .

**- ولد وحيد الدين خان في جانفي 1925 م، بمدينة "أعظم كره " بالهند ، وكان أجداده قد رحلوا من أفغانستان إلى الهند في القرن 16 م ، تلقى دروسه الأولى بالمدرسة العربية ، وتتلمذ كذلك على يد المودودي والندوي ، أسس في سنة 1976م المركز الإسلامي بدلهي ، وأنشأ كذلك مجلة أسماها"الرسالة " باللغة الأردية ، من أهم مؤلفاته : الإسلام يتحدى ، قضية البعث الإسلامي ، الدين في مواجهة العلم .يرجع إلى http/www.alrisala.org .

وبتفحصنا لمجلة المنار وتفسير المنار كذلك نجد أن رشيد رضا كان مهتما أيما اهتمام بهذا الجانب ، ومتتبعا تتبعا شديدا للاكتشافات العلمية الحديثة ، والأهم من ذلك أنه كان دائما يحاول إسقاط هذه الاكتشافات العلمية على حقائق الدين الإسلامي ، بدعوى أن العلم لا يمكنه أن يناقض الدين الصحيح ، وكمحاولة منا للتدقيق في هذا المجال نقول إن المصدر العلمي للاستدلال على قضايا النبوة عند رشيد رضا ، كان على نوعين :

- النوع الأول : الاستدلال بالعلوم الإنسانية .
- النوع الثاني : الاستدلال بالعلوم الطبيعية .

فبالنسبة للعلوم الإنسانية ، نجد رشيد رضا يعتمد على ما توصل إليه الغربيون في مجال علم النفس، وعلم الاجتماع – أو علم السنن كما يسميه – وعلم التاريخ كذلك .

والحقيقة أن توظيفه لهذه العلوم ، كان يقتصر على مجال الاستدلال فقط ، كما أشرنا إليه سابقا ، في حين يبقى مجال استخدام مناهج البحث المتولدة من هذه العلوم بعيدة نوعا ما عن ممارسته لها ، وهذا طبعا في نظرنا له علاقة بتكوينه ، حيث لم يكن له إلمام دقيق بجملة هذه العلوم رغم اهتمامه بها .

لقد تتبعنا منهج رشيد رضا في استدلاله على قضايا النبوة بجملة هذه العلوم الإنسانية فوجدناه على العموم يعتمد على ما يلي :

- ففيما يخص علم الاجتماع، أغلب ما كان يستدل به هو : إثبات الرّسالة السّماوية – أيا كانت – وكذلك إثبات حاجة الإنسانية إلى الأنبياء والرسل .
- وفيما يخص علم النفس فأغلب ما كان يستدل به على إثبات صدق النبي ﷺ في رسالته الخاتمة وهي الإسلام، ذلك أن جلّ طعون غير المسلمين على الإسلام ، كانت موجهة إلى شخص النبي محمدﷺ .
- وفيما يخص علم التاريخ ، فأغلب ما كان يستدل به هو إثبات معجزاته ﷺ وبخاصة معجزة القرآن الكريم .

وأما بالنسبة للعلوم الطبيعية ، فقد كانِ شأنها شأن الأولى هي الأخرى ، وقد ظهر لنا أن رشيد رضا كان أكثر اطلاعا على الاكتشافات العلمية الطبيعية من نظيراتها الإنسانية ، وربما يرجع هذا إلى الجو العام الذي ساد في عصر النهضة الإسلامية التي كانت جل الاهتمامات فيها موجّهة إلى التمكّن من هذه العلوم الطبيعية وإهمال نظيراتها الإنسانية أو ربما عدم تقديرها قدرها في هذا المجال.

وقد كان مجال استخدام هذه العلوم في استدلالات رشيد رضا هو إثبات الوحي ، وكيفية تلقي النبي أو الرّسول الوحي من الملك، وأيضا نجدها كذلك في إثبات المعجزات، فقد حاول تفسيرها تفسيرا علميا سنراه لاحقا.

ولا نستطيع هنا أن نحكم على مدى توفيق رشيد رضا في توظيف هذه المصادر من خلال توزيعها على هذه المجالات ، لأن هذا العمل يأتي بعد الخوض في قضايا النبوة في فصلنا اللاّحق إن شاء الله ،لكننا لا بد أن نشير إلى أمرين اثنين مهمين :

أ- فرغم أنه قد ورث هذا المنهج عن أستاذه عبده ، إلا أننا نلاحظ أنه كان أكثر تطبيقا له منه كما أنه – على ما يبدو – اكثر إطلاعا منه على المستجدات العلمية ، وقد يكون لهذا أسبابه الموضوعية ، وفي مقدمتها التطور الذي حصل لهذه العلوم بين فترة حياة عبده (ت 1905م) وفترة حياة رشيد رضا (ت 1935م)

ب-لم يسلم رشيد رضا – كما حدث لأستاذه عبده – من الوقوع في مزالق فكرية نتيجة استخدامه هذه العلوم في مجـــال الاستدلال ،حيث كان في بعضها متـــابعا لمنهج أستاذه عبده متابعة تامة،كالمعجزات، والرّوح.. وفي بعضها الآخر انفرد بها واستقل بها دون أستاذه، وسنراها في موضعها.

وحسبنا هنا أن نشير إلى أن رشيد رضا قد حاول أن يخرج عن المنهج القديم للتأليف في علم العقيدة الإسلامية ، وعرض قضايا العقيدة الإسلامية إلى منهج يقترب من روح العصر ، وحاجة المسلم المعاصر إلى اعتقاد يُؤسَّس على اليقين مهما كان مشربه ، فإلى أي مدى وفق في مسعاه هذا؟ هذا ما سنراه في الفصل التطبيقي لهذه الرّسالة .

الفصل الثالث : منهجه في إثبات قضايا النبوة وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : منهجه في إثبات الوحي .
- المبحث الثاني : منهجه في إثبات المعجزات .
- المبحث الثالث : منهجه في إثبات صفات الأنبياء .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : منهجه في إثبات الوحي .

المطلب الأول : إثبات الوحي المطلق .

لقد كان لزاما على رشيد رضا – على غرار كل المفكرين في العقيدة في عصر النهضة – عند الحديث على قضايا النبوة ، الوقوف مطولا عند هذه المسألة ، وهي إثبات الوحي السّماوي بصفة عامة ، والسّبب في هذا يعود إلى الحملة العنيفة التي شُنّت على كل الأديان السماوية التي تدّعي الوحي كأهم ميزة تميزت بها ، وقد قاد هذه الحملة جملة من العلماء والمتعلمين تعليما حديثا، خصوصا في العالم الغربي .

وقد كانت حجة هؤلاء المنكرين للوحي نابعة من نظرتين متقاربتين ، الأولى ترى أن العلم الحديث لا يؤمن إلا بما يمكن تفسيره علميا ، والوحي ليس من الأمور العلمية ، بل هو أمر غيبي لا محسوس ومناقض للعلم ، وهذه نظرة الماديين ، والثانية ترى أن البشرية بفضل التقدم الذي أحرزته في مجال العلوم قد دخلت في مرحلة يحتّم عليها الاستغناء عن فكرة الوحي ، ومنه الاستغناء عن فكرة الحـــاجة إلى الدين عموما ، وهذه نظرة الاجتماعيين ، فكيف تعامل رشيد رضا مع هذه الآراء ؟

الفرع الأول : المنهج الاستدلالي في إثبات الوحي المطلق .

لقد انطلق رشيد رضا في إثبات الوحي المطلق من أين توقف فيه المنكرون للوحي ، أي من الشّبهتين اللّتين ذكرناهما ، وحاول من خلال ذلك أن يحوّل ذلك الإنكار إلى إثبات وإقرار باستخدام السّلاح نفسه الذي استخدمه هؤلاء المنكرون في الاستدلال ، وذلك بالاعتماد على ما توصلوا إليه هم أنفسهم من اكتشافات علمية في مجال العلوم الطبيعية والتجريبية ونظريات في مجال العلوم الإنسانية ، ولنبدأ بهذه الأخيرة .

لقد حاول رشيد رضا أن يثبت الوحي المطلق انطلاقا من فكرة يمكن تسميتها " بالحـــاجة الاجتماعية للوحي"، وهي فكرة تقوم أساسا على نظرة سوسيوتاريخية ، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الفكرة ليست من بنات أفكاره بل هي منقولة عن أستاذه محمد عبده ، وقد ذكرها في رسالة التوحيد [1] ، لكنّ رشيد رضا قد اعتنى بهذه الفكرة أكثر من أستاذه ، ليس فقط بمجرّد تبنيها ، بل بمحاولة تأصيلها شرعيا كذلك ، وخلاصة هذه الحجة تقوم على تقسيم تاريخ الحياة البشرية إلى ثلاثة أطوار هي :

---

[1]- محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص 146.

أولا : طور القصور .

وقد كان فيه البشـــر منغمسين في الحسّ والمحسوس ، فإذا تخلصوا منه إلى شيء تخلصوا إلى وهم يثيره الحسّ ..وإذا عجبوا كيف يموت الميت لم يهتدوا إلى فهم معاني الموت ظنّوا أنه يغيب عنهم غيبة ، ولكن لا يزال يتعهدهم بما يؤذيهم ، وإذا سمعوا رعدا أو رأوا برقا ، أو أمطرتهم السّماء أو أذعرتهم الأعـــاصير تخيلوا أشباحا ترسل ذلك كلّه عليهم ، ولم يزالوا كذلك والتجارب تكشف لهم خطأهم فيما يتوهمون ، والحوادث تأتيهم بعلم ما لم يكونوا يعلمون ، حتى عقلوا كثيرا من أصول اجتماعهم .. ووصلوا إلى مترلة الاستعداد لأن يفهموا باطن ما عرفوا ، ولأن يخلصوا من هذا العالم الجسماني إلى العالم الروحاني [1] ، وهنا تنتقل البشرية إلى الطور الثاني وهو :

ثانيا " طور الرشد .

وهو طور تميّز بظهور النبوات تهدي البشر إلى ما يستقبلونه في ذلك الطور الجديد ، ذلك أن البشرية في هذا الطور تبلغ عقولها مترلة من القوة ومقاما من السلطة ، وتبلغ نفوسها من قوة التصرف في المنافع والمضار ما يخشى من ضلالها أن يوقعها في خبالها ، عندما تعظم مطامع العقول والشّهوات ، وتتسع مجالاتها وتبعد مطامحها، فكما كان من حكمة الله أن يهب الشّاب قوّة العقل عند بلوغ السّن التي تعظم فيها الشهوة ، ويقوى فيها الإحساس بالحاجة إلى توفير الرّغائب ، حتى يقوده في تلك الغمار ، كذلك فعل الله بالجمعية البشرية عندما بلغت بمعارف أفرادها ذلك الحد ، وهبها تلك الهداية الجديدة ، وأيّدها بالدلائل التي بلغت من قوة العقول أن تدركها .. فكان الأنبياء عليهم السلام في الأمم بمترلة الرأس من البدن .[2]

وقد اعتبر رشيد رضا – ومن قبله محمد عبده – هذا الطور ، طورا نورانيا،طور خير وسعادة ، وطور هداية ورشاد وأخوة بين المهتدين فيه .. ونزوع إلى تكميل غيرهم بما كملت به أنفسهم ، وهومقتضى قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [3] ونهاية هذا الطور تكون بنهاية بعثة الأنبياء المهديين ، وبعدها تدخل البشرية في طور ثالث وأخير وهو :

---

[1]- رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج2 ، ص 292.
[2]- المصدر نفسه ،ص 293.
[3]- سورة البقرة ، الآية 213.

ثالثا : طور الاستقلال .

في هذا الطور تكون البشرية – بطول الأمد على عهد النبوة وبعد الناس عن مبعث نورها – قاسية القلوب، مظلمة الأنفس ، مغلوبة الشهوات ... تسير في هذه المرحلة ما شاء الله لها أن تسير حتى تذوق وبال أمرها ، وعاقبة بعدها عن منبع هداية الأنبياء ، فتردها الضرورات إلى النظر فيما أغمضت عنه وإلى الرّجوع إلى ما خرجت منه ، فتعود إلى ما عرض من العادات وتنقية القلوب من فاسد الاعتقادات .. فتشرق لها شمس الحقّ الأوّل ، وتقوم على الطريق الأمثل ، وتعود الطمأنينة إلى النفوس ، ويجتمع النّاس على التنزيل ويتحدون على صحيح التأويل [1] ، وهو مقتضى قوله تعالى :﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴾[2]

وحاصل الكلام في هذا الاستدلال الذي وظّفه رشيد رضا أن البشرية لا يمكنها الاستغناء عن الوحي الذي يعد صمّام الأمان في حياتهم ، والمنجي من كل شقاء وتيه يمكن أن تبلغه ببعدها عنه، وأن تمسكها بالوحي واتّباع منهجه ضرورة حضارية لحياة سوية تتوازن فيها مختلف القوى التي أودعها الله في الإنسان من رغائب ودوافع تدفعه لبلوغ الكمال ، قد تؤدي إلى إفناء البشر لبعضهم البعض،إن لم يوجد بينهم هذا المرشد الذي يوفّق بين آثار هذه الغرائز وعوارضها ، بما يذهب بتعارضها ، ويعرف كل فرد من الأفراد حدّه ، ويجعل له من نفسه وازعا يوقفه عنده .[3]

لقد استطاع رشيد رضا أن يخرج على مألوف المتكلمين في طرحهم لهذا الموضوع ، وأن يدخل النبوة بهذا المنهج الاستدلالي الجديد كقضية تهم البشرية في حياتهم المعاصرة ، محاولا بذلك الإجابة على مجموعة من الإشكالات ، تكرّر طرحها من طرف كثير من الفئات المتعلمة ، من مثل:

– إن الإنسان لا يتربى إلا بالكون ، فالذي تثبت الوقائع الكونية أنه ضار يبتعد عنه ، والذي تثبت أنه نافع يرغب في حصوله .

– وأن الحكماء والعقلاء الفلاسفة بالخصوص يمكنهم أن يضعوا للنّاس قوانين وحدودا تغنيهم عن الوحي والشرائع السّماوية .

– وأنّ الأمم التي تحكم بالقوانين اللادينية أحسن حالا من غيرها ، التي لا تحكم بالقوانين والشرائع الدينية.[4]

---

[1]- مجلة المنار ، مج4 ، ج 4 ، ص 140.
[2]- سورة البقرة ، الآية 213.
[3]- مجلة المنار ، مج 4 ، ج 4 ، ص 140.
[4]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

وبرغم ما يمكن أن يقال عن هذه الحجّة – من الناحية العلمية – حول صحّة ذلك التقسيم لأطوار البشرية، وخصوصيات كل طور ، إلا أنها استطاعت أن تستوعب أهم القضايا التي برز فيها فكر رشيد رضا ، كقضية تاريخ النبوة ، ومن هو أوّل نبي وأوّل رسول – وسنراها لاحقا – وكذلك فكرة الاستعداد ، وأن النبوة ذاتها لا يمكنها أن تهدي البشر ما لم يحصل لديهم استعداد لقبولها – وسنراها كذلك لاحقا – وصولا إلى دور المصلحين والمجدّدين في تنقية الشّوائب التي علقت بهداية الأنبياء لطول الأمد عليها ، وابتعاد البشرية عن عهد الوحي .

فالوحي إذن – بالنسبة لرشيد رضا – ثابت تاريخيا لأنه ضرورة اجتماعية حضارية في معناه الواسع، هدفه إعانة البشرية على بلوغ كمالهم النوعي ، ورقيّهم الأدبي بما يحييه من هداية روحية من شأنها جعل الإنسان متوازنا بين دوافعه وغرائزه ، وبين هواه وعقله .

لكن ورغم هذا فإن هذه الحجة التي بنى عليها رشيد رضا تفكيره تبقى غير كافية في نظر البعض الذين ينظرون إلى الحقائق نظرة مادية تجعلهم لا يؤمنون إلا بما هو محسوس ، والوحي كله من أمور الغيب الذي لا يمكن إدراك كنهه ماديا ، فكيف يمكن الإيمان به ؟

الجواب على هذا الإشكال يمكن أن نجده في قضية أخرى تابعة للوحي ، ناقشها رشيد رضا مرارا ، حاول فيها على غرار ما سبق أن يثبت الوحي إثباتا علميا يعتمد على ما توصل إليه العلم الحديث من نتائج ، وهذه القضية سميناها ب :

الفرع الثاني : عناصر الوحي .

نقصد بعناصر الوحي الأطراف الفاعلة المشاركة في عملية الوحي ، وهي أربعة عناصر : الموحي ، والموحى إليه ، والواسطة بينهما وهو الملك ، والرسالة الموحاة ، لكننا سنقتصر على مناقشة عنصرين من جملة هذه العناصر الأربعة،لما لهما من علاقة ببحثنا وهما الموحى إليه والواسطة، وطبيعة العلاقة بينهما ، ونترك العنصرين الآخرين وهما الموحي عزّ وجل ، والرّسالة الموحـــاة ، لأن الأول لا إشكال في وجوده على الأقل بين الأديان السّماوية الثلاثة ، فيما يتوقف إثبات الثاني على إثبات العنصرين الأوّلين ، وبما هو نتيجة مترتبة لترابط سلسلة العناصر الثّلاثة الأخرى .

ولما كان الوحي من أمور الغيب،فإنه يتحتم علينا أن نعرف تصور رشيد رضا للغيب بصفة عامة،فقد ذهب إلى تقسيم الغيب إلى قسمين اثنين:"غيب حقيقي مطلق"وهو:"ما غاب علمه عند جميع الخلق حتى الملائكة"[1] ، وهذا النوع ينفرد به الله عز وجل الذي يقول:﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ

[1]- تفسير المنار ، ج 7 ، ص 425.

وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[1] وغيب إضافي،وهو:"مـــا غـــاب علمه عن بعض المخلوقين دون بعض" [2]، كالذي يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره ، ولا يعلمه البشر مثلا ، والسّمة الأساسية المميزة لهذين النوعين من الغيب ، أنهما ليسا من مقدور البشر معرفته ، ولا تصوّر كيفيته ، فهما شيئان مفارقان تماما لعلم البشر وملكاتهم المعرفية ، ولكن إذا كان الحال كذلك فأين يمكن تصنيف ما توصل إليه البشر من معرفة بعض الأمور الغيبية التي ما كانوا يعرفونها من قبل ؟ يجيبنا رشيد رضا على هذا التّساؤل بأن هذا النوع من الغيب لا يدخل في عموم معنى الغيب الوارد في كتاب الله والمقسّم إلى النّوعين السّالفي الذّكر ، ذلك أن هذا النوع من الغيب :" قد استطاع البشر الوصول إلى معرفته بتمكينهم من أسبـــابه واستعمالهم لها،وهذه الأسباب – يضيف رشيد رضا – منها ما هو علمي كالدّلائل العلمية والعقلية ، فإن بعض علماء الرياضيات وغيرها يستخرجون من دقائق المجهولات ما يعجز عنه أكثر الناس ، ويضبطون ما يقع من الكسوف والخسوف بالدقائق والثواني قبل وقوعه بالألوف من الأعوام ، ومنها ما هو عملي كالتلغراف الهوائي ، أو اللاّسلكي ، الذي يعلم المرء به ما يقع في أقاسي البلاد .. ومنها ما قد يصل إلى حدّ العلم من الادراكات النّفسية الخفية كالفراسة والإلهام ، وأكثر هذا النوع من الانكشاف لوائح تلوح للنفس لا تجزم بها إلا بعد وقوعها .. أو بقوة بعض المدارك العقلية ، وأظهر شروط هذا النوع من الإدراك قوة الاستعداد الفطرية في النفس لذلك ، وتوجيه النفس إلى المدرك توجها قويا لا يعارضه اشتغال قوي بغيرها من المدركات".[3]

وإذا كان هذا حال البشر في العلم الغيبي ومكانهم منه ، فماذا يقال عن الرّسل وادّعاؤهم الوحي الغيبي ؟

إن ادّعاء الرّسل للوحي منطلقه الأساسي الإيمان بوجود مخلوقات غيبية تسمى الملائكة ، هي التي تتصل بهؤلاء الرّسل لتمدّهم بالوحي ، فما هي حقيقة هذه الكائنات ؟ يقول الميداني :" لا نستطيع أن نعرف من حقيقة الملائكة إلا ما جاءنا عن رسول الله ﷺ لأننا بحسب العادة لا نتصل بهم عن طريق الحسّ اتصالا يفيد العلم اليقيني حتى نكتشف حقيقتهم ونحد تكوينهم ، وحسبنا في العقيدة أن نقتصر على ما وردت به النصوص دون أن نجري وراء التكهنات"[4] ، لقد أوردنا هذا القول لأنه مختزل لآراء كل علماء العقيدة الإسلامية تقريبا، لذلك فلا عجب أن نرى رشيد رضا

---

[1]- سورة النمل ، الآية 65.
[2]- رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص 425.
[3]- المصدر نفسه، ص 426.
[4]- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، العقيدة الإسلامية وأسسها ، ص 235.

وأستاذه عبده كذلك يذهبان هذا المذهب التفويضي ، فمثلا يقول محمد عبده :" وقد بحث أناس في جوهر الملائكة ، وحاولوا معرفتهم ، ولكن من وفقه الله على هذا السّر قليلون ، والدّين إنما شرع للناس كافة ، فكان الصواب الاكتفاء بالإيمان بعالم الغيب من غير بحث عن حقيقته ، لأن تكليف الناس هذا البحث أو العلم يكاد يكون من تكليف ما لا يطاق"[1] ، لكن من الواضح أن محمدا عبده يقصد من خلال هذا الكلام عامّة المسلمين الذين قد تضطرب عقيدتهم إن بحثوا في مثل هذه المسائل ، أما هو فقد زاد البحث في هذه المسألة تفصيلا .

لقد اعترض عبده على تعريف بعض المتكلمين للملائكة بأنها أجسام نورانية قابلة للتشكل [2] إذ لو كانت جسمانية لكانت مكونة من مادّة ولأمكن رؤيتها ، وبالتّالي فإن الوصف الذي ينبغي أن توصف به الملائكة أنها مخلوقات روحانية ، يقول في هذا :" فالملائكة والشّياطين إذن أرواح تتصل بأرواح الناس ، فلا يصح أن تمثل الملائكة بالتماثيل الجثمانية المعروفة لنا ، لأن هذه لو اتصلت بأرواحنا ، فإنما تتصل بها من طرق أجسامنا ، ونحن لا نحسّ بشيء يتصل بأبداننا لا عند الوسوسة ولا عند الشعور بداعي الخير من النفس ، فإذن هي من عالم غير عالم الأبدان قطعا ".[3]

لقد أراد عبده من خلال هذا الفهم الجديد أن يفسّر الملائكة تفسيرا علميا يقبله العقل الحديث، الذي ما فتئ يشكّ في كثير من الغيبيات التي لا يمكن دراستها في المخبر ، أو معرفتها عن طريق الحسّ ، وطبعا هذا داخل تحت المنهج العام الذي سار عليه وحرص على تبنّيه ، وهو عدم مناقضة الدين للعلم الحديث ، لذلك فهو كثيرا ما يعطي للحقائق الدينية تفسيرات علمية كما نجده هنا في تفسيره للروح إذ يقول :"وقال بعض العلماء الباحثين في الرّوح ، إن الرّوح إنما تقوم بجسم لطيف أثيري في صورة هذا الجسم المركب الذي يكون عليه الإنسان في الدّنيا ، وبواسطة ذلك الجسم الأثيري تجول الرّوح في هذا الجسم المادي ، فإذا مات المرء وخرجت منه روحه فإنما تخرج بالجسم الأثيري ، وتبقى معه وهو جسم لا يتغير ولا يتبدل ولا يتحلّل ، وأما هذا الجسم المحسوس فإنه يتحلل ويتبدل في كل بضع سنين".[4]

هذا ما وجدناه من أقوال عبده في هذه المسألة ، وقد تبناها رشيد رضا بعد ذلك ، وسار بها إلى ما نهدف نحن إلى تبيينه هنا ، وهي كيفية اتصال الرّسول ذو الطبيعة البشرية بملك الوحي ذو الطبيعة الرّوحية ،فكنتيجة لما توصل إليه عبده يذهب رشيد رضا إلى أن البشر في حالتهم العادية

---

[1]- رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج 1 ، ص 254.
[2]- المصدر نفسه ، ص 270.
[3]- المصدر نفسه ، ص 267.
[4]- المصدر نفسه ، ج2 ، ص 39.

غير مستعدين لرؤية الملائكة والجن في حالتهم التي خلقوا عليها ، ولكن هذا الحكم لا يعممه على كل البشر حيث يقول :" ولكن بعض الأرواح البشرية قد تصل بطهارتها وعلو مكانتها إلى قابلية التلقي عن الملائكة لما بينها وبينهم من القرب والمناسبة".[1]

ومن خلال هذا الكلام يتبين أن رشيد رضا قد حدّد شرط الطّهارة الرّوحية كشرط ضروري لتحقق الاتصال بين هذه الرّوح البشرية ، وبين هذا الملك الرّوحاني ، باعتبار أن الاتصال لا يكون إلا من روح – الملك من طبيعة روحية – إلى روح الآدمي ، ولا يمكن أن يكون من روح إلى جسد كما رأيناه سابقا في كلام عبده،وهذه الطّهارة الرّوحية لا تتوفر إلا في صنفين من البشر هما الأنبياء والرّسل ، والأولياء ، واتصال الملائكة بالصنف الأول يسمى وحيا ، ويسمى اتصالهم بالثاني تحديثا أو إلهاما [2] ، وهذا الاتصال يكون على ثلاثة أنواع:

النوع الأول : ويسمّى الوحي بلا واسطة ، وهذا النوع من الوحي يكون الاتجاه فيه تصاعديا يبدأ من النّبي نفسه :"فالقوة الفائقة التي يملكها النبي من شأنها تمزيق الحجب المادية التي حجبت الرّوح عن معالمها وكسر المقاطر الحسّية التي عاقتها عن الخروج إلى عـــالمها ، فتعرج بإذن الله تعالى إلى الملكوت وتتصل بمن شاء الله تعـــالى من عمّـــاره المقربين ، تتصل بالملك المسمى بروح القدس والروح الأمين"[3] ،وهـــذا النوع يدخـــل فيه قوله تعـــالى :﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [4]فالخاصيةالأساسية المميزة لهذا النوع من الوحي إذن هي مفارقتها للعالم المادي ، فالنبي في هذه الحالة لا يكون حاضرا ببدنه، بل بروحه لأن قوى الرّوح هنا هي التي تكون أفضل من قوى البدن ، لهذا يضيف رشيد رضا :" وهذا النوع من التلقي عن الله تعالى يحصل في روح النبي دفعة واحدة من غير أن تكون الروح متعلقة بشيء من الأشياء التي تشغلها عن الحسّ لتجتمع الهمة ، ويتم الانسلاخ عن العالم المادي والاتصال بالعالم الروحاني".[5]

النوع الثاني: وهو الوحي من وراء الحجاب ، وقد بينه رشيد رضا بقوله :" هو ما يفيض فيه للنبي ما تتعلق به نفسه، ويشتغل به حسّه حتى تجتمع الهمّة ويصح توجّه الرّوح وتبلغ الكمال في قوتها العقلية ، بعد الانقطاع عن الشواغل الكونية ، فيكون ذلك حجـــابا له بين عالم الغيب وعالم

---

[1]- مصدر سابق ، ج 7 ، ص 318.
[2]- نفسه ، ج 4 ، ص 252.
[3]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
[4]- سورة الشورى ، الآية 52.
[5]- تفسير المنار ، ج4 ، ص 253.

الشهادة، ويأتيه الوحي من وراء هذا الحجاب"[1] ، ومثال هذا النوع ، النار التي رآها موسى عليه السلام في الشّجرة ، وكلّمه الله فيها ، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها .[2]

النوع الثالث : وهو الوحي بالواسطة وهو نوع يكون الاتجاه فيه معاكسا للأول ، أي باتجاه تنازلي ، وذلك بأن يتجلى الملك للنبي فيلقي ما يريد الله إلقاءه في قلب ذلك النبي،فهو خطاب الرّوحين لما يكون بينهما من الاتصال[3]،ودليله قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.[4]

ولما كان أمر تجلي الملك للرّسول ، ورؤيته من أهمّ المسائل المتحفظ عليها لدى الماديين في العصر الحديث ، فقد حاول رشيد رضا أن يقرب هذه المسألة إلى المعقول ، وذلك بأن أعطى لها تفسيرات علمية مختلفة ، فالمسألة عنده لا مجال للشّك فيها خصوصا في عصر لم يعد فيه العلم يثبت إلا صحّة أمور الإسلام ، يوما بيوم ، يقول :" وأما تمثل الملك فكانوا يكتفون في إثباته بقولهم إنه ممكن في نفسه ، وقد أخبر به الصادق فوجب تصديقه ، ونقول اليوم إنّ العلوم الكونية لم تبق شيئا من أخبار عالم الغيب غريبا إلا وقربه إلى العقل بل إلى الحسّ تقريبا .. فإذا كان الإنسان الكيميائي يحلل الأجسام الكثيفة حتى تصير غازات لا ترى من شدّة لطفها ، ويكثف العناصر اللطيفة فتكون كالجامدة بطبعها، فكيف يستغرب تكثيف الملك لنفسه ، وهو من الأرواح ذات المرّة والقوة العظيمة بأخذه من مواد العالم المنبثة فيه هيكلا على صورة الإنسان مثلا ؟... دع مخترعات الكهرباء العجيبة التي لا يوجد شيء مما أخبر به الرّسل من عالم الغيب إلا وفيه نظير له يقربه من الحسّ لا من العقل وحده ، وهل الكهرباء إلا قوة مسخّرة للملائكة ؟ "[5] ، وهذا النّص الذي ذكرناه هو واحد من بين نصوص كثيرة استشهد فيها رشيد رضا على ثبوت الوحي بحقائق علمية توصل إليها العلم الحديث ، ومن ذلك استشهاده بأمور الذّرة ، وعالم الجراثيم والبكتيريا ، واللاسلكي وغيرها من الأمور التي لا تدرك بالمحسوسات رغم تيقن وجودها ، انتهاء إلى ما شاع في أوربا في زمنه خاصة من قضية استحضار الأرواح وتشكلّها على هيئة أناس مشهورين ، وكل هذه في نظره أمور غيبية تؤكد إمكانية وقوع الوحي ، ووجود الملائكة التي هي واسطة الوحي فعلا ، ومن هنا فإن رشيد رضا يذهب في النهاية إلى أن الإيمان بالملائكة ، أصل الإيمان بالوحي، يقول :" إن الإيمان بالملائكة أصل الإيمان بالوحي ، لأن ملك الوحي روح عاقل عالم يفيض

---

[1]- مصدر سابق ، ص 253 .
[2]- مجلة المنار ، مج 4،ج5، 253.
[3]- تفسير المنار ، ج 4 ، ص 253.
[4]- سورة الشعراء ، الآية 192.
[5]- تفسير المنار ، ج 1 ، ص 120.

العـــلم بإذن الله عـــلى روح النبي بما هو موضوع الدّين ، ولذلك قدّم الله ذكـــر الكتـــاب والنبيئين — يقصد قوله ﷻ - ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [1] — فيلزم من إنكار الملائكة إنكار الوحي والنبوة ، وإنكار الأرواح وذلك يستلزم إنكار اليوم الآخر"[2]

وخلاصة القول فإن ما توصل إليه رشيد رضا في نهاية المطاف عن هذا الوحي الذي جاء به الرّسل ، أنه يشمل أمرين اثنين هما :

1- أن ما يظهره الله تعالى عليه الرّسل هو من علم الغيب الإضافي ، لا الحقيقي المطلق الذي لم يؤت أحدا من خلقه الاستعداد لعلمه .

2- أنّ إظهاره تعـــالى إيّاهم على شيء خاص من هذا الغيب لا يجعل ذلك داخلا في علومهم الكسبيّة ، فإنّ الوحي ضرب من العلم الضّروري يجده النّبي في نفسه عندما يظهره ، وهو مقتضى الإجماع ، على أن النبوة غير مكتسبة .[3]

---

[1]- سورة البقرة ، الآية 285.
[2]- تفسير المنار ،ج 2 ، ص 113.
[3]- المصدر نفسه ، ج7 ، ص 425.

المطلب الثاني : إثبات الوحي المحمدي .

لم تكن مسألة إثبات الوحي المحمدي تقل أهمية من حيث الطرح ، وضرورة التطرق إليها عن سابقتها ، بل ربّما كانت من بعض النواحي أكثر خطورة من الأولى ، ذلك أن الوحي المطلق كان محل شك من طرف الماديين أو بعضهم فقط ، في حين أن إنكار الوحي المحمدي كان واسع الدائرة ويشمل اتجاهات عدة ، على غرار كثير من الماديين والعلمانيين والمسيحيين ، لذلك فقد وجد رشيد رضا نفسه كغيره من المدافعين عن قضايا الإسلام في العصر الحديث ملزما بأن يطرح هذه المسألة على بساط البحث والنقاش ويدلي بدلوه فيها ، وهدفه فيها واضح ، وهو إثبات الوحي المحمدي وصدق الرّسالة التي جاء بها محمد ﷺ، فما هو منهج رشيد رضا في هذه المسألة ؟

لا بد أن نشير أوّلا إلى أن لهذه المسألة حضور كثيف في إنتاج رشيد رضا الفكري ، وهذا الحضور يبرز مدى ما كانت تحظى به هذه القضية ، كأولوية من أولويات التّحدي الفكري الذي يواجهه المسلمون ، لذلك وانطلاقا من هنا فإن رشيد رضا قد حاول أن يوسّع دائرة البحث حول هذه المسألة معرفيا ومنهجيا ، الأوّل في مجال إثبات الوحي المحمدي ، والثّاني في مجال الرّد على منكريه، وسنترك هذا الأخير الذي سنتحدث عنه فيما بعد لأننا خصصنا له مطلبا خاصا به ، ولنتحدث الآن عن الأول وهو إثبات الوحي المحمدي ، فنقول : إن مجمل الحجج التي استخدمها رشيد رضا في إثبات الوحي المحمدي يمكن تصنيفها وردها إلى نوعين اثنين وهما : الحجج التاريخية الاجتماعية ، والحجج الدينية .

الفرع الأول : الحجج التّاريخية الاجتماعية .

تعدّ هذه الحجّة حجّة تمهيدية لما بعدها من الحجج ، انطلق فيها رشيد رضا من نظرة تاريخية اجتماعية للمجتمع العربي الذي ظهر فيه النّبي محمد ﷺ بدعوة الإسلام الذي كان — بتعبير رشيد رضا — إصلاحا للإنسانية من ظلمات الفتن ، وفساد الأخلاق [1] ، محاولا الإجابة على تساؤل طرحه هو : لماذا اختار الله الأمة العربية للإصلاح الإسلامي على سائر الأمم ؟ ولم تكن إجابته على هذا التساؤل تتميز بالعمق في التحليل بل على العكس من ذلك ، لكنها استطاعت أن تحصر أهم الأسباب التي خوّلت الأمة العربية لحمل هذه الرّسالة وهي :

---

[1]- مجلة المنار ، مج 4 ، ج 10 ، ص 183.

1-أنها كانت ممتازة باستقلال الفكر وسعة الحرّيّة الشّخصية ، لأنه لم يكن لها رؤساء في الدين والسّياسة يحكمونها بالجبروت والاستبداد ، فتفنى إرادتها في إرادتهم ، وتتلاشى آراء أفرادها في آرائهم .

2- وأنها كانت ممتازة بعزّة النّفس ، وشدّة البأس وقوة الأبدان وجرأة الجنان ، أيّام كانت الأمم مؤلّفة من رؤساء أفسدهم الإسراف في الترف ، ومرؤوسين أضعفهم البؤس والشظف .

3- كانت العرب أقرب إلى فضيلة المساواة بين الأفراد ، من غير شرائع تحترم بالاعتقاد ، ولا قوانين تكلّفها قوة الأجناد ، في وقت كانت الأمم تنقسم إلى طبقات يرتفع بعضها على بعض عدّة درجات .

4- كانت العرب ممتازة بالذّكاء واللّذوعية ، وكثير من الفضائل الموروثة والكسبية ، كقرى الضيوف ، وإغاثة الملهوف ... أيام كانت الأمم مرهقة بالأثرة والأنانية ، ورؤسائها منغمسين في الشّهوات البهيمية ، وفساد الأخلاق قد عمّ الرّاعي والرّعية .

5- وأنها كانت قد بلغت أوجّ الكمال في فصاحة اللّسان ، وبلاغة المقال ، وكادت تتّحد لغات قبائلها ولهجاتها العربية ، فاستعدت بذلك للوحدة القومية ، أيام كانت الأمم تنقصم عرى وحدتها بالتعصبات الدينية والمذهبية ، وتتفرق وشائجها بالعداوات الجنسية ، وتتمزق دولها بالحروب الأهلية .[1]

هذه الأسباب التي أوردها رشيد رضا هي أمهات مزايا الأمة العربية ، التي أعدها الله تعالى للبعثة المحمدية ، والسّيادة الدينية والمدنية بعد أن طال العهد على مدنيتهم العادية ، وبعد أن غلبت عليهم الأمية ، وخرافات الوثنية ، وعصبية الجاهلية [2] ، وقد استطاع محمد ﷺ - بإلهام من الله تعالى – أن يجمع في نفسه كل تلك الخصائص والمميزات التي تجعله إنسانا متميزا ليس بين قومه فحسب ، بل وفي كل العالم ، ذلك أنه لو نشأ في أمة من الأمم الحضارية الأخرى – وجاءه الوحي بكل ذلك العلم الغيبي – لقيل إنه عالم نقّح العلوم وهذبها ، وحرّر الشرائع وشذبها ، وحكيم نظر في تاريخ البشر فاستخرج منها الحكم والعبر [3]، لذلك جاءت الآية توضح هذه الشبهة ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [4]

---

[1]- رشيد رضا ، ذكرى المولد النبوي ، ص 4.
[2]- المصدر نفسه ، ص 6.
[3]- المصدر نفسه ، ص 7.
[4]- سورة العنكبوت ، الآية 48.

إن رشيد رضا بهذه الحـــجّة وكأنّه يحاول أن يتابع أو يمهّد لما أورده أستاذه عبده في رسالة التّوحيد [1] ، لذلك فهو لم يزد في هذه الحجة التي اتّبع فيها منهجه إلا أن توسع فيما ضيقه ، وفصّل فيما أجمله ، فقد راح عبده يوازن بين شخصية النبي ﷺ وسماته التي نما فيها ، مسقطا إياها ومقارنا بها الحالة الاجتماعية للمجتمع العربي الذي وجد فيه ، فخلص إلى أن أخلاقه ﷺ وفضائله كانت تفوق وتزيد على أخلاق العرب وسماتهم ، وكانت الخلاصة التي توصل إليها :" من السنن المعروفة أن يتيما فقيرا أميًّا مثله تنبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لاسيما إن كان من ذوي قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده، ولا أستاذ ينبّهه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ،فلو جرى الأمـــر فيه على جاري السّنن لنشأ على عقائدهم، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن بلغ مبلغ الرّجال ، ويكون للفكر والنظر مجال فيرجع إلى مخالفتهم ، إذ قام له الدّليل على خلاف ضلالتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده ، ولكن الأمر لم يجر على سنّته ، بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعالجته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء في الكتاب من قوله تعالى :﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّاً فَهَدَىٰ ﴾ [2] لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد ، أو على غير السّبيل المقيم ، قبل الخلق العظيم ، حاش لله إن ذلك لهو الإفك المبين ، وإنما هي الحيرة تلمّ بقلوب أهل الإخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السّبيل إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهـــالكين ، وإرشاد الضّالين، وقد هدي الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرســـالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته".[3]

هذا ما يمكن أن يقال عن هذا النّوع الأوّل من الاستدلال على ثبوت الوحي المحمدي ، ولا نزعم طبعا أن محمدا عبده أو رشيد رضا هما أول من أورداه ، لكننا نؤكد أن منهج عرضهما لهذه الحجة كان يتميز بنوع من الجِدّة يختلف إلى حدٍّ كبير عن طرح السّابقين له ، خصوصا وأنهما قد حاولا طرحها من زاوية اجتماعية تاريخية، وقد وفقا في ذلك إلى حدّ كبير ، وإذا كان هذا حـــال الاستدلال الأوّل ، فكيف الحال مع الاستدلال الثاني ؟

الفرع الثاني : الاستدلال المقارن .

هو نوع ثان من أنواع الاستدلال على إثبات الوحي المحمدي ، والأكثر استعمالا عند رشيد رضا ، والمقصود بالاستدلال المقارن ، جملة النصوص والشواهد التي استقاها من كتب النصارى ،

---

[1]- انظر ، محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص 183.
[2]- سورة الضحى ، الآية 6 .
[3]- محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص 188.

والتي تعد حسبه دلائل قاطعة على ثبوت الوحي والنبوة لمحمد ﷺ ، وقد سميناها بهذا الاسم اقتباسا من المنهج المقارن الذي يستخدم بشكل واسع في دراسات الأديان ، ومقارنتها بعضها ببعض .

لقد ظهر لنا من خلال استقرائنا لمجمل أعمال رشيد رضا الفكرية مدى الأهمية التي كان يوليها لهذا النوع من الدّراسات — أي الدّراسات المقارنة — وقد ساعده في ذلك استعابه الكبير ومعرفته الواسعة بتفاصيل هذه الأديان ، نقصد بها الأديان السّماوية الثلاثة — عقيدة وشريعة وتاريخا — وكنا قد رأينا في الفصل الأول كيف أنّه كان يتردد إلى مكتبة المبشرين الأمريكيين في طرابلس الشّام ، ليطّلع على أهم المستجدات التي كانت تنشر فيما يخص الدّيانة المسيحية ، وليس هذا فحسب بل هناك عمل آخر قام به ، ويكتسي أهّمية بالغة ، وهذا العمل يتمثل في قيامه بتحقيق ونشـــر إنجيل برنابا ، وهو إنجيل لا تعترف به الكنائس المسيحية ، ويضاف إلى هذه الأعمال أخيرا مجموعة المقالات المتعلقة بمسائل في هذا المجال ، وأهمها الكتاب الذي نشره في المنار على شكل مقالات لصديقه الدكتور محمد توفيق صدقي(*) ، ويتضمن مسائل عديدة في الدّيانة المسيحية ،طرحها وحقّقها بمنهج علمي حديث ، وقد أظهر فيها رشيد رضا من خلال تعليقاته عليها موافقته الكاملة لهذا الطرح ، رغم بعض النتائج الغريبة التي توصل إليها صدقي .

إن رشـــيد رضا وإن كان قد ردّ على المسيحيين وشبهاتهم ، واستعمل نصوص كتبهم المقدسة في إثبات الوحي المحمدي إلا أنه في المقابل قد سعى وإن بطريق غير مباشر ، ودون تصريح منه ، لإقامة حوار إسلامي مسيحي أو ما يعرف في أيامنا هذه ، بحوار الأديان ، ولا نزعم طبعا أنه قد نظّر في هذا الميدان ، ولكنّ أعماله في هذا تدلّ على أنّ له رؤية خاصّة فيه ، ولعلّ أهمّ عمل يحتفظ به في تاريخ الفكر العربي الحديث ، هو ما قام به من نشر مقالات في المنار كانت على شكل حوار ديني بين أستاذه محمد عبده ، وبين الأديب فرح أنطون [1] ، ويمكن القول إن المسائل التي ناقشها الطرفان في هذا الحوار الفكري ، هي أهمّ الدعـــائم التي يمكنها أن تبني هذا الحوار بين الطائفتين الإسلامية والمسيحية ، ليس فقط لأنها كانت نقاط اختلاف وتباين بين الديانتين ، بل لأنها كانت مسائل ذات بعد حضاري ، عليها تستند الحضارات في نموّها أو تخلّفها ، ومن هذه المسائل التي وردت في هذا الحوار نذكر قضية التســـامح الديني ، الحـــرية بمعناها الواسع (الحرية

---

*- محمد توفيق صدقي (1298-1338هـ/ 1881-1920م) طبيب مصري من العلماء الباحثين في الإصلاح الإسلامي ، تقلب في الوظائف الطبية إلى أن كان طبيب مصلحة السجون في القاهرة ، وأولع بالأبحاث الدينية وتطبيقها على العلوم العصرية ، فنشر مقالات كثيرة في المجلات والجرائد الراقية كالمنار ، والمؤيد ، واللواء ، والشعب ، والعلم ... من كتبه : دين الله في كتب الأنبياء ، ودروس سنن الكائنات ، والدين في نظر العقل الصحيح ، وعقيدة الصلب والفداء ، أنظر ، الزركلي ، الأعلام، ج 6 ، ص 65.

[1]- مجلة المنار ، مج 5 ، ج 10 ، ص 361.

الدينية ، الفكرية ، السياسية ...) العلم والدّين وطبيعة العلاقة بينهما ، ولنا الآن أن نتساءل ما الذي أضافه رشيد رضا لتطوير هذا الحوار ؟

لقد واصل رشيد رضا على منهج أستاذه في إقامة هذا الحوار وتوسّع فيه ، وقد بدا لنا أنّه كان أبعد نظرا منه ، إذا ما نظرنا إلى النّتائج التي حققها ، وكانت بحق نتائج ذات أثر واضح ، رغم أنها لم تكن خارجة عن إطار القضايا الكبرى التي ذكرناها آنفا ، ولنبدأ كلامنا في إثبات ما قلناه بهذا النص من رشيد رضا والذي لا يمكن فهمه أو تأويله إلا على أنه المنهج العـــام للحوار الذي ينبغي أن يكون عليه ، حيث يقول :" كتبنا نبذة في الجزء الخامس – من المنار – ذكرنا فيها أننا طلاب مودّة والتئام ، لا عوامل نزاع وخصام ، وإننا لا نود أن يطعن أحـــد من المسلمين والنصارى في دين الآخر ، لأن إظهار كل فريق محاسن دينه كافية في الدعوة إليه من غير حاجة إلى الطعن" [1] وقد حاول رشيد رضا أن يلتزم بهذا المنهج ، لكنه اضطر إلى مقارعة القوم ، ومجادلتهم دحضا لما كانوا يسوقونه من شبهات حول الإسلام ، ومع هذا فإننا نجد هناك جانبا آخر تجلّت فيه هذه الروح المتفتحة عنده ، ويتمثل هذا الجانب في المساعي السياسية التي كان يقوم بها انطلاقا من الجمعيـــات فرشيد رضا وإن كان يقر بالاختلاف الديني إلا أنه كان من المؤمنين بأن المصلحة الوطنية المتمثلة في إصلاح حـــال المجتمعات العربية هي مهمّة كل المواطنين العرب باختلاف توجهاتهم ، لذلك فلا غرابة أن نجده ينضمّ إلى جمعيات أو يؤسّسها هو بنفسه ، وفيها مسيحيون يعملون جنبا إلى جنب مع المسلمين في تحقيق الصالح العام .

لقد أدرجنا قضية الحوار الديني هذه لأنها أضحت من أمهات القضايا المعاصرة التي ينبغي لعلم الكلام الجديد الذي يسعى المسلمون لإيجاده ، أن يحدّد منهج التعامل معها ، وأن يجيب عن كل الإشكالات المتضمنة فيه ، وقد رأينا كيف أن رشيد رضا قد جمع بين المنهج النظري والمنهج العملي في هذه القضية ، ولا شك أن هذا المسعى كان له أثره الإيجـــابي في محاولة التقريب بين المسيحيين والمسلمين بوجه عام ، ونترك هذه القضية التي ذكرناها باختصار لنعود إلى موضوعنا الرئيسي في هذا الفرع .

إن المعرفة الواسعة التي أحاطها رشيد رضا بالكتب المقدسة المسيحية واليهودية ، قد مكّنته من توظيفها على أحسن وجه ، في إثبات أهمّ القضايا التي تخص العقيدة الإسلامية ، وفي مقدمتها إثبات نبوة محمد ﷺ ، ولن نستطيع الإتيان بكل الشواهد التي ساقها في هذا المجال لكثرتها وتنوعها، ولكننا سنقتصر على ذكر نموذج واحد أو نموذجين منها ، فمن الشواهد التي وظفها

---

[1]- مصدر سابق ، مج 6 ، ج 10 ، ص 179.

لإثبات الوحي المحمدي من العهد القديم "التوراة " ما ورد في سفر التثنية :[قال موسى للشعب : قال لي الرب ، قد أحسنوا فيما تكلموا ، أقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيتكلم بكل ما أوصيه به][1] وقد علّق رشيد رضا على هذه الفقرة بقوله :" و لم يُقِم الرّب من بعد موسى نبيا مثله صاحب شريعة مستقلة غير محمد ﷺ ، فجميع أنبيائهم كانوا تابعين لشريعته، حتى عيسى عليه السلام ، وإنما نسخ الله تعالى على لسان عيسى قليلا من أحكام التوراة"[2] ، وهناك نص آخر أكثر أهمية كثيرا ما استشهد به وهو : [جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران][3] يقول رشيد رضا :" وفاران مكة كما يعلم من سفر التكوين ، إذ يقول في إسماعيل واسكن في برية فاران".[4]

ومن الشّواهد التي وظفها لإثبات الوحي المحمدي من العهد الجديد "الإنجيل " ما أورده مثلا تحت عنوان : بشائر يوحنا لمحمد لا للمسيح :[ثم رأيت السّماء مفتوحة ، وإذا فرس أبيض ، والجالس عليه يدعى أمينا وصادقا وبالعدل يحكم ويحارب ، وعيناه كلهيب من نار وعلى رأسه تيجان كثيرة ، وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو ، وهو متسربل بثوب مغموس بدم ويدعى اسمه كلمة الله ، والأجناد الذين في السّماء كانوا يتبعونه على خيل لابسين بزا أبيض نقيا ومن فمه يخرج سيف ماض لكي يضرب به الأمم ، وهو سيرعاهم من جديد][5] ، ويعلق رشيد رضا على هذه الفقرات بقوله :" فأنت ترى أن هذه الأوصاف لا تنطبق على المسيح ، وإنما تنطبق على أخيه محمد ﷺ ، فمن أسمائه الصادق والأمين وبالعدل كان يحكم ويحارب ...و لم تكن للمسيح شيء من هذه الصفات لأنه لم يحكم و لم يحارب".[6]

إن هذا النوع من الاستدلال وإن كان معروفا ومستعملا من قبل في حقل الفكر الإسلامي ، إلا أن رشيد رضا قد حاول من خلاله إلى جانب سعيه لإثبات صحة قضايا العقيدة الإسلامية ، أن يدخله في مجال الحوار بين الأديان ، بدعوته النصارى لفهم الإسلام فهما معتدلا ، لأن هذا الفهم من شأنه أن يؤثر إيجابا على العلاقة بين الأديان السّماوية الثلاث ، وبين أهلها ، يقول :" إن أفضل خدمة للدين المطلق أن يعرف الإسلام حق المعرفة لتعرف اليهودية والنصرانية أيضا على الوجه المقبول ، وذلك بالتوفيق بين التوراة والإنجيل والقرآن .. لا بالاستدلال بالقرآن على صدق التوراة والإنجيل ، ثم بالاستدلال بما يسمونه توراة من تلك الكتب الكثيرة التي ألّف أكثرها بعد

---

[1]- الكتاب المقدس (التوراة) ، سفر تثنية الاشتراع ، إصحاح 18 ، فقرة 17، دار الكتاب المقدس في العالم العربي ، د م ن ، ص 307.
[2]- تفسير المنار ، ج6 ، ص 310.
[3]- سفر التثنية ،إصحاح33،فقرة2 ،ص334.
[4]- تفسير المنار ، ج6 ، ص 311.
[5]-إنجيل يوحنا ، الإصحاح 19 ، فقرة11، ص 355 .
[6]- تفسير المنار ، ج 6 ، ص 310.

صاحب التوراة ، وبالكتب والرسائل الكثيرة التي يسمّون مجموعها إنجيلا على تكذيب القرآن ، لأن هذا الصنيع يعود على الموضوع بالنقض فيبطل الدليل نفسه ، وأقل ما يقال فيه تعارضا تساقطا ، وتكون النتيجة إبطال الجميع ، أي أن القرآن هو الدليل على صحة التوراة والإنجيل، والقرآن ليس من الله بزعمهم ، فشهادته غير حق ودلالته غير صحيحة".[1]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]- مجلة المنار ، مج 6 ، ج 10 ، ص 386.

المطلب الثالث : الرّدّ على منكري الوحي المحمدي (نموذج درمنغهام)

أشرنا سابقا إلى أننا اخترنا مسألة النبوة عن غيرها من المسائل العقدية الأخرى ، لأنها من أكثر المسائل التي تعرّضت للتحديات الداخلية والخارجية التي تمثلت في شبه وأغاليط المتصوفة والمستشرقين والمسيحيين والمستغربين.

لقد اجتهد رشيد رضا كما رأينا في تجديد طرح قضايا الوحي (الوحي المطلق ، والوحي المحمدي) واستطعنا أن نبين بعض زوايا التجديد في هذا الطّرح ، وأمامنا الآن مسألة أخرى من مسائل الوحي التي تطرق إليها ، واجتهد في منافحتها ، فهل يمكننا العثور على جانب من جوانب التّجديد في عرض هذه القضية ؟

سنحاول أن نأخذ نموذجا واحدا – هو الأهم في نظرنا — من نماذج الطعن في نبوة سيّدنا محمد ﷺ ، ذلكم هو نموذج المستشرق درمنغهام ، ولنبدأ بعرض رأيه في نبوة محمد ﷺ أولا .

الفرع الأول : تصوير شبه درمنغهام في الوحي المحمدي .

استعرض رشيد رضا رأي درمنغهام في نبوة محمد ﷺ في كتابه "الوحي المحمدي " [1] ويبدو من خلال ذلك العرض أن درمنغهام كان على اطلاع واسع بسيرة النبي ﷺ وحياته ، ويضاف إلى هذا أنه قد رتّبها ونظمها مستعينا بمناهج حديثة ، كانت تعتمد بدرجة كبيرة على دراسات الأديان والشّخصيات الدينية ، كالمنهج التاريخي النقدي ، ومناهج علم النفس ، وعلم الاجتماع ، فما هي هذه الشبه التي وظفها درمنغهام لتفنيد الوحي المحمدي ؟

لقد أجمل رشيد رضا شبه درمنغهام في عشر شبه وسماها " مقدمات " [2] لأنها حسبه تؤول كلها إلى شبهة واحدة كبرى وهي أن ما كان يدعيه محمد ﷺ من الوحي واتصال الملك به ، ما هو إلا حالات نفسية مختلفة كانت تنتابه بين حين وحين ، ولها أسبابها المنبثقة منها ، وهي ثلاثة أقسام :

أولا : القسم الأول .

ما يتعلق بالبيئة الاجتماعية التي كان يعيش فيها محمد ﷺ ، وتتفرع عنه ثلاث شبه :

---

[1]- رشيد رضا ، الوحي المحمدي ، ص 95.
[2]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

1- رحلة الشّتاء والصيف لتجار قريش : فقد زعم درمنغهام أن العرب كانوا يجتمعون فيهما بالنصارى ، كلما مروا بدير أو صومعة للرهبان ، وكان هؤلاء النصارى يتحدثون بقرب ظهور نبي من العرب .[1]

2- تصوير مجامع قريش بمكة وشأن محمد فيها : لخص رشيد رضا هذه الشبهة بقوله :" ثم ذكر درمنغهام أن العرب – ولا سيما أهل مكة – كانوا يصرفون معظم أوقاتهم بعد ما يكون من تجارة أو حرب في الاستمتاع باللّذات من السّكر والتسرّي ، وغير ذلك ، وأن التاريخ يشهد بأن محمدا كان يراهم و لم يكن يشاركهم في ذلك لا لفقره وضيق ذات يده ، بل لما صوره بقوله –أي درمنغهام – لكن نفس محمد كانت شغوفة بأن ترى وأن تسمع وأن تعرف ، وكأنّ حرمانه من التعليم الذي كان يعلمه أنداده جعله أشدّ للمعرفة شوقا وبها تعلقا ، كما أن النّفس العظيمة التي تجلّت فيه من بعد ذلك آثارها ، وما زال يغمر العالم سلطانها كانت في توقها إلى الكمال ترغب عن هذا اللّهو الذي يطمح إليه أهل مكة إلى نور الحياة المتجلي من كل مظاهر الحياة لمن هداه الحق إليها لاستكناه ما تدل هذه المظاهر عليه وما تحدث الموهوبون به".[2]

3- ضعف الوثنية في العرب وتعبّد محمد في الغار : لخصها رشيد رضا بقوله :" زعم درمنغهام أن ما ذكره من تغلغل النصرانية في بلاد العرب أوجد فيها حالة نفسية أدت إلى زيادة إمعانهم فيما كانوا يسمّونه في الجاهلية " التحنث أو التحنف " وزاد عليه – أي درمنغهام – بقوله : وكان محمد يجد في التحنث طمأنينة لنفسه أن كان له بالوحدة شغف ، وأن كان يجد فيها الوسيلة إلى ما برح شوقه يشتد إليه من نشدان المعرفة ، واستلهام ما في الكون من أسبابها ، فكان ينقطع في كل رمضان طول الشهر في غار حراء بجبل أبي قبيس ، مكتفيا بالقليل من الزاد يحمل إليه ليمضي أياما طويلة بالغار في التأمل والعبادة بعيدا عن ضجة الناس وضوضاء الحياة".[3]

ثانيا : القسم الثاني .

ما يتعلق بشخصية محمد ﷺ ونفسيته ، ويتفرع عنه شبهتان .

1- أميته ﷺ أو نشوءه أميا ، واستفادته من رحلاته التجارية ، وخلاصة هذه الشّبهة كما صورها رشيد رضا أن درمنغهام زعم فيها أن أبا طالب – كافل النبي ﷺ – لم يكن غنيا ، فلم يتح له تعليم الصبي – يعني محمد – الذي بقي أميّا طول حياته .. ولكنه كان يصطحبه وإياه في التجارة فيسير والقوافل خلال الصحراء يقطع هذه الأبعاد المتنائية ، وتحدق عيناه الجميلتان بمدين ،

---

[1]- مصدر سابق ، ص 99.
[2]- المصدر نفسه، ص 101.
[3]- المصدر نفسه ، ص 105.

ووادي القرى ، وديار ثمود ، وتستمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب والبادية عن هذه المنازل وحديثها وماضي نبيئها .. وفي الشام عرف محمد أخبار الرّوم ونصرانيهم وكتابهم ، ومناوأة الفرس من عباد النار لهم ، وانتظار الوقيعة بهم .[1]

2- موت أبناء محمد وما أثاره في نفسه : قال درمنغهام بعد أن تحدث عن موت أبناء محمد الثلاثة – حسب ما يذهب إليه – :" فمن حقّ المؤرخ أن يجعل لهذا الحادث بل الحوادث الثلاثة التي أصابت محمدا في بنيه ما هي جديرة بأن تتركه في حياته وفي تفكيره من أثر ، والأمر كذلك بنوع خاص أن محمدا كان أميا ، فلم تكن المضاربات الجدلية لتصرفه عن التأثر بغير الحوادث ودروسها، وحوادث أليمة – كوفاة أبنائه – جديرة بأن تستوقف تفكيره ، وأن تصرفه كل واحدة منها إلى ما كانت خديجة تتقرب به إلى أصنام الكعبة ، وتنحر لهبل واللات ، والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، وتريد أن تفتدي نفسها من ألم الثكل ، فلا تفيد القربان ولا تجدي النحور".[2]

ثالثا : القسم الثالث .

القسم الثالث من هذه الشبه وهي تتعلق بالحالة الدينية للمجتمع العربي ، وتتفرع عنه خمس شبه .

1- دعوى انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب : لخصها رشيد رضا بقوله إن محمدا ادعى النبوة والوحي اتباعا لبعض المتنصرين من العرب حيث :" ذكروا – درمنغهام وأتباعه – ما كان من انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب قبل الإسلام ومن تنصر بعض فصحاء العرب وشعرائهم، كقس بن ساعدة الإيادي ، وأمية بن أبي الصّلت ، وإشادة هؤلاء بما كانوا يسمعون من علماء أهل الكتاب عن قرب ظهور النبي الذي بشّر به موسى وعيسى ، وغيرهما من الأنبياء".[3]

2- ما قيل عن وجود يهود ونصارى بمكة ، فقد زعم درمنغهام أنه كان بمكة نفسها أناس من اليهود والنصارى ولكنهم كانوا عبيدا وخدما، وكان رؤساء قريش لا يسمحون لهم أن يسكنوا في مكة حرمهم المقدس الخاص بوثنيتهم وأصنامهم ، بل كان هؤلاء يسكنون في أطراف مكة في المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء ، وكانوا يتحدثون بقصص عن دينهم لا تصل إلى مسامع رؤساء قريش وعظمائهم [4]، ولكنها كانت تصل محمدا الذي اقتبس ادّعاؤه للوحي منهم.

---

[1]- مصدر سابق ، ص 100.
[2]- المصدر نفسه ، ص 102.
[3]- المصدر نفسه ، ص97.
[4]- المصدر نفسه ، ص 97.

وأما الشبه الثلاثة المتبقية ، فهي منضوية تحت الشبهة التي ذكرناها أخيرا وهي :

- دعوى الأخذ عن بحيرا الراهب .
- دعوى الأخذ عن ورقة بن نوفل .
- دعوى الأخذ عن سلمان الفارسي[1] ، وهذه الشبه معروفة لكل المسلمين فلا حاجة لتفصيلها هنا .

يقول رشيد رضا عن هذه المقدمات :" إنما مقدمات يذكرها كتاب الإفرنج لتعليل ما ظهر به محمد ﷺ ، من دعوى النبوة يعنون أنه سمع من أخبارها ، فتعلقت نفسه بها ، على طريقتهم في الاستنباط وما يسمونه " النقد التحليلي " ، ويقرنون بها مقدمات أخرى في وصف حالته النفسية والعقلية ، وحالة قومه ، وما استفاد منها من تأثير وغيره".[2]

إذا كان رشيد رضا قد أدرك المنهج الذي استخدمه درمنغهام في صياغة آرائه على نبوة محمد ﷺ ، وهو المنهج النقدي التحليلي الذي كان معتمدا عند الغربيين بصفة كبيرة ،خصوصا في مجال نقد الأديان ، وكان له تأثير كبير في نتائج استخدامه إلى درجة أنه قد اعترف بخطورته التي تركها في أوساط المسلمين حيث قال :" قد فصّل إميل درمنغهام الشبهة التي أجملها مونتيه بما لم نر مثله لغيره من كتاب الإفرنج ، حتى اغتر بكلامه كثير من المسلمين"[3] ، فقد حاول بدوره أن يرد على تلك الشّبه التي أوردها درمنغهام في هذا المجال ، فكيف كان منهجه في الرد عليها ؟

لقد اعتبر رشيد رضا منذ البداية أن الآراء التي ذكرت من قبل باطلة من أساسها [4] ، وأنها عبارة عن أغاليط وأكاذيب حاكها درمنغهام وأمثاله من المستشرقين الحاقدين ، لذلك فقد سعى إلى إبطالها كما قال بأدلة النقل والعقل والتاريخ والصحيح من حالته ﷺ .[5]

وأول ما ابتدأ به ردّه هو ذكره لحديث بدء الوحي كاملا ، مع بعض الأحاديث التي فيها وصف طرق الوحي وأنواعه ، وأول ما نزل فيه عليه ﷺ وشرحها ، ولعله فعل هذا للقرّاء المسلمين الذين اغتروا كما قال بكلام درمنغهام وأمثاله ، لأنهم يثقون بالمنهج النقلي ويطمئنون إليه.

وانتقل بعدها إلى المنهج العقلي والحجج العقلية ، ورد فيها على شبه درمنغهام ، ومن خلال رده هذا بالمنهج العقلي يمكننا استخلاص ما يلي :

1- الوحي المحمدي ، ص 95.
2- المصدر نفسه ص 95.
3- المصدر نفسه ، ص 95.
4- نفسه ، ص 120.
5- المصدر نفسه ، ص 118.

1- رغم أنّ النوع الأوّل من الشبه التي ذكرناها سابقا -- المتعلقة بالبيئة الاجتماعية للعرب قبل البعثة – لها أهمية بالغة ووزن كبير من الناحية العلمية ، خصوصا وأنها تبدو شبها جديدة مقارنة بباقي الشبه الأخرى ، إلا أننا لم نجد رشيد رضا قد ردّ عليها ، بل قد أهملها كلية ، في حين نجده من جانب آخر قد ركز كثيرا على الشّبه المتعلقة خصوصا بدعوى أخذه ﷺ من النصارى ، وتلقيه منهم .

2- وإذا كان رشيد رضا قد أدرك كما قلنا المنهج الذي استعمله درمنغهام في دراسته تلك عن نبوة محمد ﷺ وهو النقدي التحليلي ، فإن المتوقع منه في هذه الحالة أنه سيحاول الرد على تلك الشبه بنفس المنهج الذي استخدمه درمنغهام ، خصوصا وأن ذلك المنهج كان سيكون في صالحه من دون شك ، لأنه إلى جانب معرفته لهذا المنهج الذي يعتمد على تحليل النصوص ونقدها ، كان يمكنه الاستعانة بالمنهج النقلي للمسلمين ، وبالتالي فإن نتائجه ستكون أكثر دقة من نتائج درمنغهام ولكننا لاحظنا أن رشيد رضا قد خلا رده من المنهج الأول الذي اعتمد عليه درمنغهام ، وكأنه لم يستطع توظيفه ، أو لم يشأ الاعتماد عليه ، ظنا منه أن المنهج النقلي الإسلامي سيفي بالغرض ، ويكون كافيا ، لذلك فإن مجمل رده في هذا الجانب كان على شكل نتائج مقررة سلفا، جزم بقطعيتها وصحتها ، دون أن يفصل فيها ، لذلك فالقارئ الذي لا يكون على اطلاع مسبق بتلك الشبهات ، لن يكفيه رد رشيد رضا عليها لفهمها ، وهذا ما سنفصله في الملاحظة الثالثة.

3- فكما أن رشيد رضا رغم أنه حاول أن يرد على شبه درمنغهام بمنهج عقلي وحجج عقلية ، إلا أن رده ذاك لم يكن عميقا ومركزا بما فيه كفاية،بل كان في كثير من الأحيان سطحيا ومبسطا، ولكنه مع ذلك استطاع أن يبطل آراء درمنغهام وشبهه ، ويمكننا أن نذكر نماذج لذلك :

- يقول رشيد رضا في رده على دعوى تلقي النبي محمد ﷺ عن علماء النصارى :" لو كان النبي محمدﷺ تلقى عن علماء النصارى في الشّام شيئا أو عاشرهم لنقل ذلك أتباعه الذين لم يتركوا شيئا علم عنه أو قيل فيه ، ولو لم يثبت إلا دونوه ، وأوكلوا أمر صحته أو عدمها إلى إسناد ، وما علم من سيرة رواته".[1]
- ويقول في نفس سياق الشبهة [2]:" لو وقع ما ذكر لاتخذه أعداؤه من كبار المشركين شبهة يحتجون بها على أنّ ما يدعيه من الوحي قد تعلّمه في الشّام من النصارى ، فإنهم كانوا يوردون عليه ما هو أضعف وأسخف من هذه الشبهة، وهو أنه كان في مكة قين (حداد)

1- رشيد رضا ، الوحي المحمدي ، ص 122.
2- المصدر نفسه ، ص 122.

رومي يصنع السيوف وغيرها ، فكان النبيﷺ يقف عنده أحيانا يشاهد صنعته ، فاتهموه بأنه يتعلم منه ، فرد الله عليهم بقوله :﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[1]

- ويقول في ردّه على شبهة رجائهﷺ وانتظاره للنبوة :" لو كانت النبوة أمرا كان يرجوه محمد ويتوقعه ، وكان قد تم استعداده له باختلائه وتعبده في الغار ، وما صوروا به حاله فيه من الفكر المضطرب ، والوجدان الملتهب ، والقلب المتقلب ، حتى إذا كمل استعداده ، تجلى له رجاؤه ، واعتقاده ، بما تم به مراده ، لظهر عقب كل ما كانت تنطوي عليه نفسه الوثابة ، فكرته الوقادة في سورة أو سور من أبلغ سور القرآن ... ولكنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على النّاس سورة ، ولم يدعهم إلى شيء ، ولا تحدث إلى أهل بيته ولا إلى أصدقائه بمسألة من مسائل الإصلاح الديني الذي توجهت إليه بزعمهم نفسه، فهذا السّكوت وحده في فترة الوحي ، برهان قاطع على بطلان ما صوّروا به استعداده للوحي الذاتي الذي زعموه ، واستعداده لعلومه من التلقي الذي اختلقوه ، والاختيار الذي توهموه".[2]
- ويقول عن دعوى أخذه من المصادر اليهودية والنصرانية :" إن في القرآن ما هو مخالف للعهدين العتيق والجديد ، وهو مما لا يعلم إلى الآن أن أحدا من اليهود والنصارى قال به كمخالفة سفر الخروج فيمن تبنّت موسى ، ففيه أنها ابنة فرعون ، وفي القرآن أنها امرأته ، وفيما فيه من عزو صنع العجل الذي عبده بنو إسرائيل إلى هارون عليه السلام بعزوه إيّاه إلى السّامري وإثباته لإنكار هارون عليهم فيه ، وغير ذلك ، بل ما جاء به محمد أكبر وأعظم من كل ما في الكتب الإلهية ما صحّ منها وما لم يصح".[3]

إن رشيد رضا رغم الجهد الذي بذله ، والحماسة التي أبداها في الدفاع عن نبوة محمد ﷺ والرّدّ على منكريها إلا أنه في نموذجنا هذا كان بعيدا عن كل تجديد ، سواء من الناحية المنهجية أو من ناحية صياغة الحجج ، وربما يكون السّبب في هذا أنه كان ينوي القيام بهذا الذي ذكرناه في مؤلف آخر يكون تتمة لما كتبه في كتاب الوحي المحمدي ، وقد صرح بنفسه بذلك في مواضع متعددة ، إلا أن القدر عاجله ، فحال دون قيامه بهذه المهمة .

---

[1]- سورة النحل ، الآية 103.
[2]- الوحي المحمدي ، ص 126.
[3]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

المبحث الثاني: منهجه في إثبات المعجزات .

. لقد كانت مسألة المعجزات من أكبر المسائل التي ثار حولها كلام كثير بخصوص موقف المدرسة العقلية الحديثة منها ، فهناك كثير من الباحثين الذين يرون أن أعلام المدرسة العقلية – خاصة محمد عبده ، ورشيد رضا- ينكرون المعجزات، بعضهم بإطلاق وبعضهم بالتخصيص.

وسنحاول بإذن الله تتبع هذه المسألة واستقرائها في التراث الفكري لهذين الرجلين، مع تركيزنا طبعا على موقف رشيد رضا خاصة، قصد الوصول إلى المذهب الحقيقي لهما في هذه المسألة وتبيين أوجه التجديد في طرحهما إن كان هناك وجه للتجديد، فما هو رأي رشيد رضا في المعجزات؟

المطلب الأول: مذهب رشيد رضا في المعجزات:

لقد كان لرشيد رضا موقف خاص، ومذهب جريء فيما يخص المعجزات، وقد كان هذا الموقف الذي التزمه سببا في رفض بعض المفكرين المسلمين تصنيفه في دائرة الفكر السّلفي النصوصي – رغم ميله الشديد له- وقبل أن نغوص في خصوصيات هذا الموضوع سنحاول أن نتطرق بصفة عامة لبعض النقاط المتعلقة بالمعجزات ، تكون كتمهيد عام يقرب لنا صورة موقف رشيد رضا بشكل أكثر وضوحا، فما هو مذهب المسلمين في المعجزات؟

الفرع الأول: مذهب المتكلمين في المعجزات:

يذهب بعض الباحثين في الفكر العقدي الإسلامي على غرار حسن حنفي[1] وأحمد المشرقي،إلى أنّ ظهور المعجزات كمبحث منتظم في مصنفات الكتب الكلامية يعود إلى عهد متقدم جدًّا من تاريخ الفكر الإسلامي، فقد ذهب المشرقي[2] إلى القول إن ظهور هذا المبحث عند المسلمين كمبحث ذو أهمية منهجية يعود أساسا إلى عامل خارجي عن البيئة الإسلامية ، يتمثل في موقف طائفة البراهمة الذين كانوا ينكرون النبوات ويقولون ببطلانها،ويورد في ذلك قولا للبغدادي عبد القاهر (ت 429 هـ) يقول فيه إن هناك من المسلمين من أعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات[3]وأما على سامي النّشار فإنه يقرر أن المسألة قد بدئ بالخوض فيها منذ عهد الشافعي الذي ألّف كتابا سماه "تصحيح النبوة والرّد على البراهمة"[4]،فالبراهمة إذن بإنكارهم للنبوة

---

[1]- حسن حنفي ، من العقيدة إلى الثورة ، ج 4 ، ص 6.
[2]- أحمد المشرقي ، النبوة في الأديان الكتابية ، ص 75.
[3]- المرجع نفسه ، ولعل البغدادي يقصد بكلامه هذا كلا من أبو بكر الرازي ، وأبو علي بن سينا ، الطبيبان المشهوران يراجع : محمد شلبي شتيوي، (دفاع عن النبوة) ، مجلة الشريعة ، الكويت ، ع14،السنة 6 ، أغسطس 1989 ، ص 55.
[4]- علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ط9 ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، 1995 ، ج1 ، ص 244.

أنكروا كل مستلزماتها ولواحقها ومن بينها المعجزات الدّالة على نبوة الأنبياء،وقد كانت حجتهم في هذا كما أوردها الشهرستاني هي قولهم :"إن أكبر الكبائر في الرّسالة إتباع رجل هو مثلك في الصورة والنفس والعقل، يأكل مما تأكل ويشرب مما تشرب، حتى تكون بالنسبة إليه كجماد يتصرف فيك رفعا ووضعا،أو كحيوان يصرفك أماما وخلفا، أو كعبد يتقدم إليك أمرا ونهيا،فأي تميّز له عليك، وأي فضيلة أوجبت استخدامك؟ وما دليله على صدق دعواه؟ فإن اغترتم بمجرد قوله فلا تميّز لقول على قول،وإن انحسرتم بحجته ومعجزته،فعندنا من خصائص الجواهر والأجسام ما لا يحصى كثرة ، ومن المخبرين عن مغيبات الأمور من ساوي خبره".[1]

و لم يكن البراهمة وحدهم في ميدان حياكة الشّبه ضد المعجزات ، بل هناك فرقة أخرى من داخل العالم الإسلامي لها نصيب في هذا الموضوع، و هذه الفرقة هي فرقة الباطنية[*] ، فقد أورد البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق قوله: "و الباطنية يرفضون المعجزات ، وينكرون نزول الملائكة من السّماء"[2] ، فهذا النّص إذن يبّين لنا بوضوح أن شبهة إنكار المعجزات كانت مطروحة بقوة على ساحة الفكر الإسلامي في عهود متقدمة من التاريخ الإسلامي، لهذا فلا عجب أن نجد معظم الكتابات المتقدمة في النبوة تركز على الرّد على شبه هؤلاء البراهمة، و الباطنية و من شابههم...

تعرف المعجزة عند المتكلمين بتعريفات متنوعة، لكنها تتفق كلها على المبدأ و الوظيفة والغرض، و إذا أردنا أن نذكر هنا تعريفا للمعجزة فإن التعريف الذي يبدو جامعا لسائر التعاريف الأخرى هو التعريف الذي وجدناه عند ابن تيمية، حيث يذكر فيه الشروط التي اتفق العلماء على وجوب توفرها في المعجزة حتى تكون كذلك، يقول ابن تيمية :"المعجزة هي الفعل الخارق للعادة المقرون بالتّحدي السّالم من المعارضة".[3]

يتبين لنا من خلال هذا التعريف أن للمعجزة شروطا لا بد أن تتوفر فيها حتى تكون معجزة ، وقد كانت هذه الشّروط محل اتفاق بين معظم المتكلمين ، لكننا سنركز حديثنا على شرطين نراهما أهم شروطها وهما :

---

[1]- عبد الكريم الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج 2 ، ص 601.

* - الباطنية مذهب نشأ منتصف القرن الثالث الهجري ، وضعه قوم أسرب في قلوبهم بغض الدين وكراهية النبي ﷺ، من الفلاسفة والملاحدة والمجوس واليهود ، ليصرفوا الناس عن دين الله ، وكانوا يبعثون دعاتهم إلى الآفاق لدعوة الناس إلى مذهبهم ، ومن أشهر دعاتهم : ميمون بن ديصان القداح الثنوي . يراجع : الشهرستاني ، الملل والنحل (تعليق المحقق) ج1 ، هامش ص 228.

[2]- عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، تحقيق : محمد زاهد الكوثري ، دط مكتبة نشر الثقافة الإسلامية ، 1948، ، ص 177.

[3]- ابن تيمية ، كتاب النبوات ، دط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، 2005 ، ص 20.

- أن تكون المعجزة فعلا خارقا للعادة.

- أن تكون مقرونة بالتحدي.

1/ فلقد اتفق المسلمون على أن المعجزة لا تكون إلا فعلا خارقا :"و الفعل يعد خارقا للعادة، إذا قدر عليه الأنبياء، و عجز عنه غيرهم من غير حاجة إلى أن نحدّد ذلك بعدد معين، أو نحصره في كمّية بعينها، فمتى وجد من الأفعال ما لا نظير له عند غير الأنبياء علمنا أنه فعل معجز ، وسواء بعد ذلك أوجد نظيره من الأنبياء أم لم يوجد لأنّ الأنبياء يصدق بعضهم بعضا".[1]

2/ واتفق العلماء على أن المعجزة إنما جاءت ليتحدَّى بها الأنبياء معارضيهم الذين ينكرون نبوتهم فتدل على صدق دعواهم فيها، يقول الجويني :"والشريطة الثالثة للمعجزة أن تتعلق بتصديق دعوى من ظهرت على يديه، وهذه الشريطة تنقسم إلى أوجه منها أن يتحدى النبي بالمعجزة، وتظهر على وفق دعواه، فلو ظهرت آية من شخص وهو ساكت صامت، فلا تكون الآية معجزة".[2]

وقد اعترض ابن حزم على هذا الشّرط، فلم يعده من الشروط الملزمة للمعجزة، لأن إدخاله يسقط معجزات كثيرة ثبتت للأنبياء لم تكن مقرونة بدعوى النبوة، ولا تحدى بها الأنبياء غيرهم يقول ابن حزم:" ولو كان ما قالوا (يقصد الباقلاني و أتباعه) من ضرورة التحدي لسقطت أكثر آيات رسول الله ﷺ كنبعان الماء من بين أصابعه، وإطعامه المئين والعشرات من صاع شعير... لأنه عليه السلام لم يتحد بذلك كله أحدا ولا عمله إلا بحضرة أهل اليقين من أصحابه عليهم السلام ولم يبق لـه آية حاشا القرآن، ودعاء اليهود إلى تمنى الموت، وشق القمر فقط، وكفى نحسا بقول أدّى إلى مثل هذا".[3]

وانطلاقا من هذين الشّرطين أخذ العلماء يقسّمون المعجزات ويصنفونها، ويمكننا أن نورد تقسيمات مختلفة ذكرها هؤلاء العلماء.

1- عبد الفتاح أحمد الفاوي ، النبوة بين الفلسفة والتصوف ، دط ، مكتبة الزهراء ، القاهرة ، مصر ، 1996 ، ص 154.
2- أبو المعالي الجويني ، كتاب الإرشاد، تحقيق أسعد تميم ، ط1 ، دار الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان ، دت ، ص273.
3- ابن حزم الأندلسي ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، تحقيق أحمد السيد سيد أحمد علي ، دط ، المكتبة التوفيقية ، مصر ، 2003 ، ج3 ، ص 176.

فقد قسمها بعضهم إلى أفعال معتادة و أفعال غير معتادة: الأولى كمعجزة زكريا عليه السلام منعه عن الكلام ثلاث ليال بعد أن كان معتادا له والثانية ضربان: ما يدخل جنسه تحت قدرة العباد مثل القرآن، وما لا يدخل مثل اختراع الأجسام، و إحياء الموتى.[1]

وقسمها الغزالي أبو حامد إلى ثلاث أقسام: حسّي وعقلي وخيالي، فالحسّي مثل تسبيح الحصى، وتكليم الذراع، و العقلي مثل القرآن، و الخيالي أن يتمثل للأنبياء في يقظتهم ما يتمثل لغيرهم في منامهم، و تفيض أشعّة الولاية فيهم على خيالات الحاضرين ، حتى يروا ما يراه ويسمعوا ما سمعه.[2]

وقسّمها آخرون إلى معجزات حسّية كانشقاق القمر، و انفلاق البحر أمام موسى عليه السلام وقومه...وعلمية مثل إخبار النبي محمد ﷺ عن الأنبياء المتقدمين بما يوافق ما عند أهل الكتاب من غير تعلم له منهم، و إخبارية غيبية كإخبار النبي ﷺ عن زوال فارس و الروم.[3]

هذا بإجمال ما يمكن أن نقوله عن مذهب المتكلمين في المعجزات، و بالتأكيد فإن هناك قضايا أخرى لم نذكرها لأننا سنتطرق إليها فيما بعد ، كالفرق بين المعجزة و الكرامة، و العلاقة بينهما، ودلالة المعجزة على النبوة،و هي لا تفيدنا هنا بقدر ما يفيدنا ما ذكرناه، على معرفة موقف رشيد رضا من المعجزات، و سنبدأ بالحديث عنه الآن.

الفرع الثاني: تقسيم رشيد رضا للمعجزات:

نقول بداية إنه لا يمكننا فهم مذهب رشيد رضا في المعجزات مبتورا عن سياقه الفكري والمنهجي كذلك وبتعبير آخر:لا يمكننا أن نعرف موقف رشيد رضا من المعجزات ما لم نعرف موقف المدرسة العقلية الحديثة من هذه المسألة، ونخص بالذكر هنا محمد عبده، باعتباره زعيمها بدون منازع والأقرب لرشيد رضا من غيره.

ففي رسالة التوحيد، تحدث محمد عبده عن المعجزات في مبحث الرّسالة العامة بشكل موجز، بيّن من خلالها موقفه العام، ومن أوّل وهلة يبدو فعلا أن لمحمد عبده رأي خاص في المعجزات، ذلك أنها بالنسبة إليه :"ليست من نوع المستحيل عقلا، فإن مخالفة السّير الطبيعي المعروف في

---

[1]- عبد الفتاح الفاوي ، مرجع سابق ، ص 169.
[2]- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
[3]- محمد قطب ، منهج علم التوحيد ، ط4 ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، 1990، ج3 ، ص 149.

الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته، بل ذلك مما يقع كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات"[1] ، وما دام :"واضع الناموس هو موجد الكائنات فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات"[2]، ولا شك أن ما يفهم من كلام عبده هنا هو أنه يخالف جمهور العلماء في أهم نقطة امتازت بها المعجزات و هي خرق العادة، فإن كان العلماء قد أقروا بأن المعجزة لا تكون إلا خارقة للعادة بمعنى أنه ليس لها قانون طبيعي تسير وفقه، فإن محمد عبده يذهب إلى أن المعجزة يمكن أن تأتي وفق قانون طبيعي يمكن فهمه أو استنتاجه، ما دام أن هناك أمور مماثلة تحدث للبشر.

وبعد هذا فإننا نجد عبده يتابع المتكلمين في الشّرطين الأخيرين للمعجزات، و هما إدعاء النبوة والتحدي، جاعلا دلالتها-المعجزة- وضعية معناها التصديق بالقول[3] ، لذلك يقول :"فالمعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدّي عند دعوى النبوة... فمتى ظهرت المعجزة، و هي مما لا يقدر عليه البشر، وقارن ظهورها دعوى النبوة، علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقا لمن ظهرت على يديه".[4]

وبدوره سار رشيد رضا على المنهج نفسه في البداية، لكنه فيما بعد أعطى للمسألة أبعاد أخرى مستقيا إيّاها من أستاذه عبده ، جعلت رأيهما يبدو وكأنه خروج على إجماع المسلمين في هذه المسألة.

لم نتمكن من العثور على تعريف مستقل للمعجزة عند رشيد رضا، رغم أنه كتب في موضوع المعجزات كثيرا، لكننا عثرنا في كلامه على ما يمكن أن نجعله مفهوما للمعجزة وذلك حين يقول :"الآية أو المعجزة أمر يؤيد الله تعالى به نبيه، ويخضع له به النفوس، وكان يختلف باختلاف الأمم و معارفها، ودرجات ارتقائها"[5] ، ونلاحظ على هذا المفهوم أنه بعيد عن تعريف المتكلمين الشّائع، و لم يوف بالشّروط التي وضعوها حتى تكون المعجزة معجزة ، ولكن هذا لا يعني أن رشيد رضا ينكر تلك الشّروط أو يرفضها، بل على العكس من ذلك فقد التزم بالبحث في هذه المسألة داخل الشروط الثلاث للمعجزة وتقيّد بها، خاصة شرط التحدي الذي له علاقة كبيرة بموقفه من المعجزات.

---

[1]- محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص 142.
[2]- المصدر نفسه ، ص 143.
[3]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
[4]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
[5]- مجلة المنار ، مج4 ، ج 10 ، ص371.

وإذا كان محمد عبده قد ذهب إلى أن دلالة المعجزة وضعية فإن رشيد رضا لم يتابعه في هذا ولا في غيره ، بل رفض الخوض في هذه المسألة بحجة أنها لا تعدو كونها خلافات نظرية، لذلك يقول : "واختلفوا – المتكلمون- في وجه دلالة المعجزة على صدق النبي الذي ظهرت على يديه، هل هي عقلية أو عادية أو وضعية... ولا نبحث في مثل هذه الخلافات النظرية، وإنما نقول أن القصد منها الحمل على قبول الدّعوة والإذعان للرسالة عند استعداد الأمة لذلك وإقامة الحجّة البالغة على المعاندين بحيث ينقطع لسان الاعتذار من أهل الجحود والإنكار".[1]

ويمكننا الآن بعد هذا التمهيد القصير أن ننتقل إلى لبِّ مسألتنا وهي تقسيم المعجزات فنقول : إن رشيد رضا يذهب إلى أن الآيات أو المعجزات مهما اختلفت وكثرت فإنما ترجع إلى نوعين، وهذان النوعان هما :

أولا : الآيات الكونية الآفاقية.

ويسميها أيضا المعجزات التكوينية[2]، وقد عبر عن هذا النوع بأنه :" قسم لا يعرف له سنّة إلهية يجري عليها".[3]

وواضح من خلال هذه التسمية أن رشيد رضا يقصد بهذا النوع تلك المعجزات التي لها علاقة بالكون والطبيعة المادية، أو ما عبر عنها علماء العقيدة الإسلامية بالمعجزات الحسّية، وأعظم هذه الآيات الكونية بالنسبة له هي الآيات التي أيد الله تعالى بها موسى عليه السلام ، كالآيات التسع بمصر، وكذلك الآيات الأخرى التي ظهرت في أثناء خروجه ببني إسرائيل مدّة التّيه، فهذه الآيات كما يقول لم يكن شيء منها بكسب له – موسى عليه السلام – حقيقي ولا صوري، بل كان ذلك بفعل الله تعالى، بدون سبب كسبي لموسى عليه السلام، إلا ما أمره الله تعالى به من ضرب البحر أو الحجر بعصاه التي هي آياته الكبرى[4] ، إن هذه الآيات التي أيد الله تعالى بها موسى عليه السلام أدل على قدرته تعالى ومشيئته، واختياره في أفعاله في نظر البشر لبعدها عن نظام الأسباب والمسببات التي تجري عليها أفعالهم".[5]

---

[1]- مصدر سابق ، ص371 .
[2]- رشيد رضا ، الوحي المحمدي ، ص 221.
[3]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
[4]- المصدر نفسه ،الصفحة نفسها.
[5]- المصدر نفسه ، ص 224.

إنّ ما يمكن أن نلاحظه من خلال هذا الكلام كلّه هو تركيز رشيد رضا الشّديد على كون المعجزات التكوينية لا تسير وفق نظام الأسباب و المسببات التي أودعها الله تعالى في الكون، مما يعني بوضوح أنه يرى أن المعجزات – أو على الأقل هذا النوع منها– هو فعل خارق للعادة يأتي به النبي ليصدق في دعواه ، وهو نفس ما ذهب إليه جمهور المتكلمين، ولكن إذا كانت هذه المعجزات وهي تدل على صدق الأنبياء ممتازة بخرق العادات، فإلى أي صنف يمكن وضع الكرامات ، وهي شبيهة إلى حد كبير بالمعجزات؟

سؤال اهتم رشيد رضا بالإجابة عليه اهتماما بالغا ، وقد رأينا من قبل أن اهتمامه بهذا السؤال راجع إلى جملة التحديات الداخلية المطروحة على السّاحة الفكرية والعملية الإسلامية، وتمسّ بصفة مباشرة عقيدة النبوة.

لقد نظر رشيد رضا إلى هذا الموضوع من زاوية عامة ، باعتبار أنه ليس خاصا فقط بالبيئة الإسلامية ، بل هو موضوع مشترك خاض فيه البشر جميعهم، لذلك نجده يقول :"يعلم الناظرون في تاريخ الأمم المختلفة والأديان والنحل أن كل أمة منها تدّعي وقوع خوارق العادات وأنواع الكرامات على أيدي رجال الدّين ورؤسائها الروحيين"[1] ، ويزيد الكلام تعميقا حين يقول :" يذهب كثير من الناس إلى أن جميع الأديان وثنية وسماوية قائمة على قواعد الخوارق، فإذا تزلزلت هذه القواعد في دين انقض الجدار وخرّ السّقف، و ذهب بناء الدين على أن لا يبقى له أثر"[2] ، ولاشك أن رشيد رضا يشير بهذا الكلام إلى أن الإيمان بالكرامات قد أصبح عند الناس من الأمور العقدية الرّاسخة في عقول البشر، أي أصبحت مسألة مقررة إلى جانب مسائل العقيدة الأخرى، كالأيمان بالله وغيرها من المسائل العقدية الأخرى.

لكن وإن كان رشيد رضا قد انطلق في معالجته لهذا الموضوع من زاوية عامة ، إلا أنه كان يهدف من خلالها إلى تصحيح نظرة المسلمين في هذه القضية من جهة، و الرّد على بعض التحديات التي كانت مفروضة من طرف المسيحيين الذين كانوا يطعنون في نبوة محمد ﷺ فقد ذكر قول أحد القسيسين :" إننا نفضل الإنجيل على القرآن بما فيه من كثرة الخوارق والعجائب المنسوبة إلى صاحبه ، على أن القرآن لم يسند إلى من جاء به عجيبة واحدة، و إنما ذكرت فيه

[1]- مجلة المنار ، مج 2 ، ج 26 ، ص 401.
[2]- المصدر نفسه ، مج 6 ، ج 2 ، ص 12.

العجائب حكاية عن السابقين"[1] ، والخلاصة التي وصل إليها رشيد رضا من خلال هذا الكلام وغيره : "أن أهل الأديان يرون أن الخوارق التي تجري على أيدي رجال الدين فائدة عظيمة ، وهي تأييد الدين بها في أثنائه كما قام بها في أوّل ظهوره".[2]

لم يكن رشيد رضا بطبيعة الحال موافقا على هذا الرأي، لأنّ جعل الكرامات في هذه المرتبة من الأهمية يضع المعجزات في وضع غير لائق، و وظيفة بلا غرض فما هو رأيه فيها يا ترى؟

يورد رشيد رضا في تعريف الكرامة مذهب الجمهور من أنها : " الأمر الخارق للعادة يظهر على يد العبد الصالح وهو من يقوم بحقوق الله تعالى و حقوق العباد"[3] ، والملاحظة المستخلصة من هذا التعريف تبين لنا اشتراك الكرامة مع المعجزة في شيء مهم جدًّا وهو خرق العادة ، لكن من السهل جدا أن نرى بأن رشيد رضا لا يوافق المتكلمين في هذا التعريف بسبب هذا الشرط – خرق العادة – وذلك لاعتبارات عديدة أهمها:

1/ أن الكرامة لا يمكن أن تكون خارقة ، لأن خرق العادة لا يكون إلا بمعجزة ، وواضح من هذا الكلام أن رشيد رضا يريد أن يضع معجزات الأنبياء في مكانها الصحيح في سلم المنظومة العقدية ، لهذا نجده ينتقد آراء المتكلمين الذين ذهبوا إلى القول:"إن كرامات الأولياء شعبة من معجزات الأنبياء "، فلقد انتقد رشيد رضا هذا الرّأي موضحا أنّ هؤلاء العلماء بقولهم هذا يجعلون المعجزات أصلا يبنى عليه الاعتقاد ، والكرامات فرعا من فروع ذلك الأصل " فيخشى على منكر الفرع أن ينكر الأصل" [4] ، لهذا السّبب نجده قد توقف في قضية جواز الكرامة من عدمها و لم يبد في ذلك رأيا صريحا ، يقول :" أما الخلاف في جواز الكرامات ووقوعها ، فليس من أصول الدين وقواعده الاعتقادية ، ولذلك لم يكفر الأئمة من أنكرها وهم المعتزلة وأبو إسحاق الإسفراييني والعلامة الحليمي من أكابر علماء أهل السنة "[5] ، كما انتقد كذلك قول العلماء الشائع : " ما جاز أن يكون معجزة لنبي ، جاز أن يكون كرامة ولي" ، وبهذا يتساوى الأنبياء مع الأولياء في الإتيان بالآيات، و هو ما لا يمكن تصوره ، لهذا علّق على هذا القول بقوله :" إذا جاز ذلك في تصور العقل فإنه ما وقع ولا يقع بالفعل"[6] ، وكما أن المعروف عن الكرامات المنقولة

1- مصدر سابق ، ص 15.
2- المصدر نفسه ، ص 16.
3- المصدر نفسه ، مج 2 ، ج 27 ، ص 417.
4- نفسه ، مج 6 ، ج 2 ، ص 17.
5- نفسه ، مج 2 ، ج 26 ، ص 421.
6- نفسه ، الصفحة نفسها .

عن الأولياء أنها تتكرر إلى أن تصبح في حكم العادة، وخارق العادة لا يتكرر ،لأن كل ما يتكرر يكون معتادا ، سواء عرف سببه أو لم يعرف".[1]

2/ أن الكرامة حتى وإن تحققت فإنه لابد أنْ يكون لها سبب أو تفسير علمي ، وهذه النقطة في الحقيقة تعد المدار الذي يتحرك فيه فكر رشيد رضا في هذه القضية ، فهو ما فتئ يصرّح أنّ هذه الأمور العجائب التي يأتي بها هؤلاء لا تتحقق إلا في ضوء الأسباب والمسببات ، وهي علمية بالدّرجة الأولى : " ذلك أن الأصل في كل ما يحدث في الكون ، أن يكون له سبب ، وأن يجري على سنة من سنن الله تعالى في الخلق ...وتلك السّنن ثابتة لا تتبدل ولا تتحول ، كما علم بالمشاهدة والاختبار ، وبنص القرآن ، فهي مسألة اتفق فيها الحسّ والعقل مع نصوص الشرع فهي قطعية"[2] ،كما أن :" العلم قد كشف أسبابا لأمور كثيرة كانت تسمى خوارق وكرامات ، فإذا علم أن شيئا من هذه الغرائب وقع لا محالة ، فينبغي الرجوع لالتماس الأسباب من مظانها في العلم الطبيعي ، وعلم النفس".[3]

إن أهم ما نلمحه في هذه النقطة تصريح رشيد رضا الضمني بنفي الكرامات إطلاقا ، فقد وضع شروطا معينة لقبولها والأخذ بها ، لا تتوفرها كثير من الكرامات المأثورة عن الأولياء الصالحين :" فمن رأى بعينه خارقة للعادة أو نقلت إليه بطريقة التواتر الصحيح ، وعرف أنها لم تكن خداعا ، ولا تخيلا، وعلم أن من ظهرت على يديه ليس من أهل التكبيس والشعوذة ، ولا من طلاب المال والجاه ، واستمالة القلوب إلى الاعتقاد به ، وصعب عليه أن يحملها على وجه من وجوه التأويل ، فإن له أن يقيسها على ما عرف تأويله بأن يقول إن كثيرا من الغرائب وخوارق العادات المألوفة ، قد كان يظن أنها خارجة عن نظام الخليقة وسنن الكون ، ومنتشرة من سمط الأسباب الكونية وهذا الذي أراه الآن هو مثل تلك في ذلك الزّمان ، فيجوز أن يظهر له مثل ما ظهر لها من السّبب ، وتزول الغرابة ، ويبطل العجب".[4]

3/ وأمّا النقطة الأخيرة التي كانت محلا لإنكار رشيد رضا للكرامات ، فهي أنها ليست لها وظيفة أو هدف أو غاية دينية ، عكس المعجزات التي لها غاية محددة واضحة ، فإذا كانت المعجزة وهي تصديق النبي في دعواه ، وتأييده لحمل الناس على الإيمان بما جاء به من رسالة وتشريع ، فهل

---

[1]- مصدر سابق ، ص421.
[2]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
[3]- المصدر نفسه ، مج 2 ، ج 26 ، ص 421.
[4]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

الغرض من الكرامة التي تأتي على يد الولي هي نفس غرض المعجزة التي يأتي بها النبي ؟ إن جواب رشيد رضا على هذا السّؤال هو النفي المؤكّد ، فقد انضم في هذا إلى الرأي القائل :" لو جـــازت الكرامة لاشتبهت بالمعجزات ، فلا تدل المُعجـــزة على الكرامة" ، ويعلّق على هذا القول بقوله : " أين هذا مما هو مستفيض بين الناس في هذه الأزمنة من أن الكـــرامات صارت عند الشيوخ من الأمور العادية بحيث ينقلون عن الواحد منه الألوف منها... "[1] ، فصارت الكرامة بذلك شـــبهة على المعجزات بدل أن تكون دلالة على مرتبة الإيمان التي وصل إليها الولي أو العبد الصالح ، ومع هذا فإن وضع حدودا فاصلة للتمييز بين كلا النوعين :" فمعجزة النبي لا بد أن تكـــون مقرونـــة بدعوى النبوة وطلب المعارضة الذي يسمّونه التحدّي ، والثانية لا تكون كذلك ، كما أن الأولى يجب إظهارها لإقامة الحجة ، والثانية يجب إخفاؤها خوف الفتنة".[2]

وبهذا فإن كرامات الأولياء بالنسبة لرشيد رضا لا يمكن أن تكون خارقـــة كمعجـــزات الأنبيـــاء ، ولا ينبغي أن تكون محل اهتمام وتصديق ، بل يجب إبعادها تماما من الحـــيز العقدي ، لأن ذلك أسلم للعقيدة وأحفظ لمنزلة المعجزات وأبعد عن الشّبهة .

ثانيا : الآيات النفسية العلمية :

وهو النوع الثاني والأخير من المعجزات أو الآيات التي جاء بها الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وقد عبر رشيد رضا عن هذا النوع بقوله :" هي ما تدل على صدق النبي دلالة حقيقية بالبرهـــان الذي يجزم العقل بأن صاحبها مؤيد من الله تعالى ، وموحي إليه ما بلغه ودعا إليه ، لأنها عبارة عن كون حـــال النبي وما جاء به يشهدان بأنهما لا يمكـــن أن يكونـــا إلا بإمـــداد إلهـــي ووحـــي سماوي"[3]،ولعلّه يقصد بالبرهان الجازم ، البرهان الذي لا يحتمل أيّ وجه من وجوه الشـــبهة أو التأويل ، أو ما شابه ذلك ، طالما أن النوع الأول من الآيات الكونية ، كان محل اعتراض ومحـــل شبهة الذين لا يريدون الإيمان بما جاء به الأنبياء المرسلون عليهم السّلام ، فما هي هذه الآيات التي لا شبهة فيها،والتي يرى رشيد رضا أنها تمثل الآيات النفسية العلمية ؟

---

[1]- مجلة المنار ، مج 2، ج 29، ص450.
[2]- نفسه ، ص 61.
[3]- نفسه ، مج 4 ، ج 10 ، ص 380.

لقد وجدنا أن رشيد رضا يسمي الآيات النفسية العلمية في مواضع أخرى بالآيات الرّوحية أو الرّوحانية[1]، ولكن الباحث في هذه المسألة يجد صعوبة في تمييز الآية الكونية عن النفسية عندرشيد رضا – في كثير من الأحيان– وذلك من حيث أنها في الأخير لها وجه شبه مع الآيات الكونية ، لاشتراكهما في إمكانية حملهما على نظام الأسباب والمسببات ، ولكن قبل هذا ما مقصود رشيد رضا بالآيات الروحانية؟

يقصد رشيد رضا بالآيات الرّوحانية تلك الخوارق التي كان الأنبياء والمرسلون يأتون بها ، والتي ليست لها علاقة بالطبيعة والعالم المادي – من حيث مصدر ورودها – أي أنها صادرة من نفس النبي أو الرّسول على شكل قوّة نفسية خارقة لمقدور البشر ، بعيدة على حملها بأنها أمور كسبية ، وأعظم هذه الآيات الرّوحانية في نظره هي الآيات التي جاء بها المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، بدءا بميلاده : " فقد حملت أمه به بنفخة من روح الله عز وجل – وهو الملك جبريل عليه السّلام – كانت بسبب علوقها به بفعلها في الرّحم ما يفعل تلقيح الرّجل بقدرة الله عز وجل ، فلا غرو أن كانت مظاهر آياته أعظم من مظاهر سائر الرّوحانيين من الأنبياء والأولياء كالكشف وشفاء بعض المرضى ، وغير ذلك من التأثير في المادة التي اشتهر عن كثير منهم ، والفرق بينه وبين الرّوحانيين من صوفية الهنود والمسلمين ، أن روحانيته عليه السلام، أقوى وأكمل وأقدس وأفضل ، و أنها لم تكن بعمل كسبي منه ، بل من أصل خلق الله عز وجل إياه بآية منه".[2]

وقد كان لمحمد ﷺ بعض الآيات الرّوحانية كآيات عيسى عليه السلام:" فمما نقل عنه – عيسى عليه السلام—وعن نبينا، إطعام العدد الكثير من الطعام القليل بخلق الله والزيادة فيه، وروي عن نبينا أيضا استسقاء العدد الكثير من الماء القليل ، إذ وضع يده فيه فصار يزيد ويفور من بين أصابعه".[3]

وكما قلنا سابقا فإن رشيد رضا يؤكد أن هذه الآيات الرّوحانية رغم كونها بعيدة ظاهريا عن نظام الأسباب والمسببات ، إلا أنها كسابقتها الآيات الكونية لا تخلو من معارضة وشبه ، وذلك من حيث كونها عسيرة الحمل على التصديق من طرف الناس ، لاشتباهها بخوارق العادات التي يأتيها البشر المسمّاة عند المسلمين كرامات ، وعند غيرهم بالخوارق النفسيّة ، ولهذا فقد ذهب إلى القول بفكرة الاستعداد التي أشرنا إليها في المبحث السّابق ، أي أن هذه الآيات لا يؤمن بها إلا

---

[1]- رشيد رضا ، الوحي المحمدي ، ص 121.
[2]- المصدر نفسه ، ص 222.
[3]- تفسير المنار ، ج 6 ، ص 253.

من أعطاه الله استعدادا عقليا للهداية ، بحيث يستطيع إيجاد تفسير مادي لها أو علم أن نمط الآيات لا يمكن أن يأتي بها الرّسول أو النبي بمحض قدرته كما حدث مع سحرة فرعون وحواريوا عيسى عليه السلام، وأصحاب محمد ﷺ [1] ، الذين اطمأنوا أن هذه الآيات هي محض قدرة الله تعالى ، فآمنوا بها عن قناعة ويقين .

لكن هناك واحدة من هذه الآيات تختلف اختلافا كبيرا عن الآيات التي ذكرناها ، هي من جملة الآيات العلمية النفسية ، لكنها ليست روحانية ، إنها آية القرآن الكريم .

يذهب رشيد رضا في هذه الآية إلى أبعد تصور ممكن ، فكل آيات الأنبياء السّابقين لمحمد ﷺمرجوحة أمام آية القرآن الكريم لأسباب عدة منها:

1/ فلقد كانت آيات الأنبياء السّابقين حسّية في أغلبها ، وذلك لأن البشر في ذلك الطور – طوري الطفولة والرشد – لم يكونوا قد استعدوا لمعرفة الحق من الباطل بالبرهان والتمييز بين الخير والشّرّ بالدليل والحجة[2] ولم يكونوا قد وصلوا بالعلم إلى درجة يمكن معها تفسير كثير من ظواهر الكون ، ولا عرفوا أن له نظاما مطّردا يقوم على الأسباب والمسببات ، لذلك كانت الآيات الحسّية وحدها كافية لإظهار صدق الأنبياء المرسلين في دعواهم ولحمل الناس على جعلها دليلا يؤمنون به ، وبما جاء به الرسول أو النبي أو على تعبيره : " أودع الله في فطرة الإنسان الاعتقاد بقوة غيبية تعلو جميع القوى وقدرة علوية تفوق جميع القدر ، فإذا رأى شيئا لا يعرف له سببا طبيعيا ولا منشأ كسبيا يحيله على تلك القوى الغيبية والسلطة السّماوية ، ويعبد المظهر الذي قام به ، ويخذي ويستخذي الرجل الذي برز على يده ، وذلك الاعتقاد كان أصلا للوثنية ، ثم به جذب الإنسان إلى الإيمان".[3]

لكن لما وصل الإنسان في طور الاستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه لإتّباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوفة في سنن الكون ، جاءهم خاتم الأنبياء بآية فريدة تختلف كل الاختلاف عن سابقاتها، فجعلت حجّة نبوة محمد ﷺعين موضوع نبوته وهو كتاب الله المعجز للبشر بهدايته ، وبعلومه وبإعجازه اللفظي والمعنوي ، وبأنباء الغيب الماضية والحاضرة

---

[1]- مصدر سابق ، ج1 ، ص 216 ومجلة المنار ، مج 4 ، ج 10 ، ص 372.
[2]- المصدر نفسه ، الصفحة 373.
[3]- نفسه ، ص 371.

ليربي البشر على الترقي في هذا الاستقلال إلى مـــا هم مستعدون له من الكمـــال "[1]، أي أن الله تعالى جعل نبوة محمد ﷺ قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها .

2- وبناء على ما سبق من أن اعتقاد الناس بالخوارق الكونية هو الذي كان جاذبا لهم للاعتقاد بصحة المعجزات الحسّية للأنبياء ، فإن رشيد رضا يرى بأن الآيات التي جاء بها المرسلون كانت حجة للجاحدين المعاندين الذين لم يستطيعوا التمييز بين الآيات الحقيقية التي هي من عند الله ، وبين ما هو حيل وصناعة يتلقاه بعض الناس بالتعليم والتمرين ، فسمّوا كل ذلك سحرا وشعوذة ، ولما كان محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء المرسلين ، كان لا بد أن تكون آيته في مستوى مرتبته في النبوة باعتبارها آخر الرّسالات السّماوية إلى الأرض ، فكانت آيته الكبرى علمية حتى لا يبقى مجال لارتياب أحد من طلاب الحق المخلصين فيها ، وهي إتيان رجل أمي عاش بين الأميين إلى سن الكهولة بكتاب فيه أعلى العلوم الإلهية والأدبية والاجتماعية والشرعية ، وأخبار الأمم والأنبياء السّابقين الذين لم يقرأ هو ولا قومه عنهم شيئا ، وغير ذلك من أخبار الغيب التي ظهر صدقها في زمنه وبعد زمنه "[2] ، وبهذا فإن الآية العلمية القطعية ، لا يمكن المراء فيها كالمراء في الآية الكونية التي هي أمر غريب غير معتـــاد يشتبه بكثير من الأمور النّادرة التي لها أسباب خفية كالسّحر وغيره [3] ، بل إن رشيد رضا يذهب إلى أبعد من هذا وهو أنه : لا يمكن إثبات آيات النبيين السّابقين إلا بثبوت آية محمد ﷺ النّفسية ، لأنها الحجة الوحيدة عليها في هذا الطور العلمي الاستقلالي ، ولأن الكتب الأخرى التي نقلتها لا يمكن إثبات عزوها إلى من عزيت إليهم ، إذ لا يوجد نسخ منها منقولة عنهم باللغات التي كتبوها بها لا تواترا ولا آحادا .[4]

إن قول رشيد رضا إنّ الآيات الحسّية أو الكونية كما يسميها ، كانت شبهة على الأنبياء أكثر ما كانت حجة لهم دفع بالكثير من أعلام الفكر العقدي في العصر الحديث إلى القول إن رشيد رضا ، كما أستاذه محمد عبده ينكران المعجزات الحسّية التي جاء بها الأنبياء عليهم السّلام ، ويرفضانها ، أو في أحسن الأحوال يؤولانها تؤويلا علميا عصريا يخرجها عن كونها معجزات خارقة دالة على نبوة الأنبياء ، فهل هذا صحيح ؟ هذا ما سنعرفه في المطلب اللاحق .

---

[1]- رشيد رضا ، الوحي المحمدي ، ص 79.
[2]- تفسير المنار ، ج 6 ، ص 254.
[3]- المصدر نفسه ، ص 379.
[4]- الوحي المحمدي ، ص 83.

المطلب الثاني : مذهب رشيد رضا في المعجزات الكونية (معجزة انشقاق القمر نموذجا)

لقد أكد رشيد رضا في معرض حديثه عن المعجزات بصفة عـــامة أنه قد أتى بالجديد فيها فقد قـــال: " وما ذكرناه من التفرقة بين الآية الكونية والآية النفسية العلمية ، لا يوجد مثلـــه في كتب العقائد المتداولة"[1] ، وهذا كلام مهمّ جدا بالنسبة لنا لأننا نبحث عن أوجه التجديـــد في علم العقيدة الإسلامية في فكره ، وقد سبق ورأينا مذهبه في كلا النوعين السّـــابقين من أنـــواع المعجزات ، كما رأينا أيضا وجه تفريقه بينهما ، وأنه يعطي أهمية كبرى للآية العلمية النّفسية دون الآيات الكونية الحسّية ، وتوقفنا عند الإشكال الآتي ، هل ينكر رشيد رضا المعجـــزات الكونيـــة الحسية ؟

حتى نعرف الإجابة على هذا السّؤال سنختار نموذجا من نماذج المعجزات الكونية التي ناقشها رشيد رضا طويلا ، وهذا النموذج هو معجزة انشقاق القمر في عهد محمدﷺ ، وقد اخترنا هـــذا النموذج لأنه ببساطة الأكثر حضورا من غيره ، و الأشهر بالنسبة لغيره كما أنه من جهة أخـــرى عمدة رأيه في المعجـــزات الكونية بصفة عامة .

الفرع الأول : عرض معجزة انشقاق القمر عند رشيد رضا.

لقد ناقش رشيد رضا هذه المعجزة في بحث مطول وافٍ لجميع الجوانب التي يمكن إيرادها في هذه المسألة ، ولنا أن نقول في بداية الحديث عن هذه المعجزة إنّ رشيدا رضا قد أنكرها إنكارا صريحا ، ورفض عدّها آية من آيات النبي ﷺ، وذلك لعدة اعتبارات ذكرها في آخـــر بحثه ذاك[2] و هي :

1/ إن الروايات الواردة في انشقاق القمر أحادية لا متواترة .

2/ أنها مختلفة متعارضة ، لا متفقة مؤتلفة .

3/ أنه ليس فيها حديث مرفوع إلى النبي ﷺكالأحاديث الناطقة بخصائصه .

4/ وأنه ليس في الصحيحين منها إلا حديث واحد مسند إلى من صرح بأنه رأى ذلك .

---

[1]- مجلة المنار ، مج 4 ، ج 10 ، ص 375.
[2]- المصدر نفسه ، مج 30 ، ج 5 ، ص 371.

5/ وأن الحديث المعول عليه في هذه المسألة – وهو حديث أنس بن مالك – مرسل(*)،والأصل في المرسل أنه من المردود غير المقبول .

6/ وأنه على ذلك معارض بنص القرآن الكريم ، وسنة الله في الرسل وأقوامهم .

إن هذه الاعتبارات التي ذكرها رشيد رضا هي حاصل لجانبين اثنين اعتمدهما في إنكاره لمعجزة انشقاق القمر ، وهذان الجانبان يتمثلان في نقد السند ونقد المتن للأحاديث الواردة في هذه المعجزة ، فما هي حقيقة هذه الانتقادات ، وكيف وظفها رشيد رضا للوصول إلى ما وصل إليه ؟

أولا : نقد السند .

أول ما بدأ به رشيد رضا في حديثه عن معجزات انشقاق القمر هو نقده لأسانيد الرّوايات المأثورة عن النبي ﷺ في هذا الباب ، وقد أقرّ بعدم تواترها خلافا لمن قال عكس ذلك[1] ، بل ذهب إلى حد القول إنه زعم باطل، وانتقل بعد ذلك إلى حصر الروايات الثابتة عند كبار المحدثين فأثبت أن الذي صحّ عند الشّيخان – البخاري ومسلم – على شرطهما مداره على واحد من الصحابة ، وهو عبد الله بن مسعود من طريق سفيان بين عينيه عن أبي نجيح مجاهد عن أبي معمر، أما باقي الروايات الأخرى التي صحّت عندهما فمرسلة ، ومدارها على أنس بن مالك وابن عباس، والخلاف في الاحتجاج بالمرسل معروف كما قال.[2]

وبالنسبة للرّوايات الأخرى الموجودة في غير الصحيحين ، فإنها كذلك لا تخلو من مقال ، سواء من ناحية سلامة السند من الضعف ، أو من ناحية تلقي الرواة ، وخاصة الصّحابة لها ، إذ أن هناك من الصحابة من رواها على اعتبار حضورها ، لكن حاله تدل على أنه كان صغير السّن آنذاك كعبد الله بن عمر الذي كان ابن ستّ سنين ، وابن عباس الذي لم يكن قد ولد ، وأنس بن مالك الذي كان في المدينة وهو ابن خمس سنين وبهذا فإن أول أساس للمسألة بالنسبة لرشيد رضا لا يخلو من مقال ، ولا يمكن قبوله دون تحفظ ، فما بالك إذا أضيف إليه الاعتبار الثاني وهو مكمل للأول وهذا الاعتبار هو :

---

*- الحديث المرسل : هو ما رفعه التابعي إلى الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، صغيرا كان التابعي أو كبيرا . يراجع : محمد عجاج الخطيب، الوجيز في علوم الحديث ، دط ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الرغاية ، الجزائر ، 1989 ، ص 311.

[1]- مجلة المنار ، مج 30 ، ج 4 ، ص 262.

[2]- المصدر نفسه ، الصفحة 263.

ثانيا : نقد المتن .

لقد كانت جملة استشكالات رشيد رضا حول متون أحاديث انشقاق القمر متمحورة حول أمرين اثنين هما: مكان رؤية هذه المعجزة ، وكيفية حدوثها .

فبالنسبة للأولى ، نجد رشيد رضا قد ركز على اختلاف متون روايات ابن مسعود إلى ثلاثة أوجه ، ففي بعضها أنه صرّح أن الانشقاق كان بمنًى، وفي أخرى كان بمكة ، وفي الثالثة لم يعين لها مكانا، وهو ما يوهم بوجود تعارض بين الروايات الثلاث.[1]

و بالنسبة للثاني ، فقد أورد جملة من الروايات حول كيفية انشقاق القمر ، وكل واحدة منها تبدو مختلفة عن الأخرى على النحو الآتي :

- انشقاق القمر إلى شقتين : شقة على جبل (أبي قبيس) وشقة على جبل (السويداء) .

- انشقاق القمر على فرقتين : فرقة فوق الجبل وفرقة دونه .

- انشقاقه إلى فرجتين يتوسطهما جبل .

- انشقاقه إلى فرقتين ، فرقة أمام الجبل وفرقة خلفه.

- انشقاقه إلى شقين يتوسطهما غار حراء .

- انشقاقه إلى نصفين : نصف على الصفا ونصف على المروة.[2]

وكل هذه النّماذج المذكورة من رواية ابن مسعود ، ماعدا الأخيرتين ، فهما من رواية أنس بن مالك،وهي كلها كما تبدو للعيان يخالف بعضها بعضا بتعبير رشيد رضا ، الذي بالرّغم من أنه أورد أقوالا للعلماء في الجمع والتقريب بين هذه الروايات باحتمالات قريبة أو بعيدة كقولهم : يحتمل أن يكون القمر استمر منشقا حتى رجع ابن مسعود من منًى إلى مكة فرآه كذلك ، واحتمال أن يكون رآه كذلك وهو بمنًى كأن يكون على مكان مرتفع بحيث رأى طرف جبل أبي قبيس[3]، إلا أنها تبقى ضعيفة ومردودة بالنسبة إليه طالما أن مجال الاحتمال قد دخل فيه ، و ليس

1- مصدر سابق ، ص264.
2- نفسه ، الصفحة نفسها .
3- مصدر سابق ، ص 267.

هنالك بالتـــالي دقة في ألفاظه ، وهو علامة من علامات ضعفه ، وعلى هذا فإن الخلاصـــة الـــتي وصل إليها في هذه النقطة هي قوله :" وجملة القول أن الروايات الواردة في كون القمر انشقّ وهم في مكة لا تتفق مع الروايات المصرّحة بأنهم كانوا في منًى ، لأنّ كلّ ما ذكـــر في بعضـــها مـــن التفصيل والبيان للجبلين الذين أبهمـــا في البعض الآخـــر يفيد أنه لا يمكن أن يراهما من كـــان في منًى ...لذلك لجأ بعضهم إلى تعدد الانشقاق".[1]

الفرع الثاني : موقف رشيد رضا النهائي من معجزة انشقاق القمر.

بعدما عرفنا جملة استشكالات رشيد رضا حول معجزة انشقاق القمر من خـــلال نقـــده للأحداث الواردة فيه سندا ومتنا ، نواصل معرفة الجانب الأخـــير الذي أدى به إلى إنكار هـــذه المعجزة وهو ما سماه بالنقد الأصولي ، ونود أن نشير إلى أن هذا الجانب هو الذي يمثل خلاصـــة رأيه في هذه المسألة ، فما هي حقيقة هذا الإشكال الأصولي يا ترى ؟

يمكن القول إن سبب إنكار رشيد رضا لمعجزة انشقاق القمر مرده إلى أمرين اثنين متتاليين :

الأمر الأول : ويتعلق بقضية التّحدي : فقد ذهب رشيد رضا إلى أن هذه المعجزة لم يتحد بها النبي ﷺالمشركين ، أي أنها لم تكن موضوعة موضع الإعجاز للمشركين ، وهذا الكـــلام يستـــــلزم بالضرورة – انطلاقا من تعريف المعجزة الشّائع – أن المشركين لم يطلبوا من النبي ﷺأن يشقّ لهم القمر نصفين أو شقين ، وقد استند رشيد رضا في هذا الرّأي إلى دليلين اثنين أولهما : أن الروايات الواردة في انشقاق القمر لم تذكر أن سبب وقوع هذه الحادثة كان بطلب مـــن المشـــركين ، إلا رواية واحدة انفرد بها الحافظ أبو نعيم تقر بذلك وهي ضعيفة السّند.[2]

وثانيهما : أن هذه الحادثة – إن صحّت الأحاديث الواردة فيه – فإنها مخالفة للمبدأ العام الـــذي اتخذه رشيد رضا منهجا له في مســـألة المعجزات بصفة عامة ، فقد عرفنا سابقا أنه يذهب إلى أن المعجزة الكبرى التي لا يمكن المراء فيها هي الآية النفسية التي أيد بها محمد ﷺ وهي القرآن الكريم، فهي بالنسبة إليه الآية الوحيدة التي تحدّى بها المشركين ، و لم يتحداهم بآية حسّية أو كونية أخرى، وقد استند في هذا الرأي إلى الحديث الوارد عن النبي ﷺالذي قال فيه : ﴿مَا منَ الأَنْبيَاء نَـــبيّ إلاَّ أُعطي ما مثلَهُ آمَنَ عَلَيْه البشر ،وَإنَّمَا كَانَ الذّي أُوتيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إلَيَّ فَـــأَرْجُو أَنْ أَكُـــونَ

---

[1]- نفسه ، الصفحة نفسها .
[2] - نفسه ، ص 366.

أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ﴾[1] ،و قد علق على الحديث بقوله : " فقوله ﷺ(وإنما كان) من شرح يفيد الحصر ، وقد تؤولوه بأنه لما كان القرآن أعظم معجزاته وأدومها ، كان غيرهم منها كأنه غير موجود ، ولا حاجة إلى هذا التأويل إذا اشترط في المعجزة التحدّي ، فإنه ﷺ لم يتحد العرب ولا غيرهم إلا بالقرآن".[2]

كما استند كذلك في هذا الرّأي إلى قاعدة عامة ، مفادها أنه ثبت بالآيات المحكمة الكثيرة القطعية الدلالة أن الكفار طالبوا النبي ﷺ بآية من الآيات الكونية التي أوتي مثلها الرّسل على الإبهام،وأنهم اقترحوا عليه آيات معينة أيضا فلم يجابوا إلى طلبهم[3]،فمن ذلك اقتراحهم في قوله ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [4] ، وقوله تعالى :﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[5] وقوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [6]، فجملة هذا الآيات التي ذكرناها تفيد أن الله سبحانه وتعالى لم يجب المشركين إلى الاقتراحات التي اقترحوها المتضمنة الآيات الكونية ،وهناك آيات أخرى تفيد أمرا آخر أبعد من هذا ، هو السّبب الذي جعل رشيد رضا ينكر معجزة انشقاق القمر وهو :

الأمر الثاني : والمتعلق بإنزال العذاب على الكافرين بالآيات الكونية ، فقد ذهب رشيد رضا إلى أن سنة الله قد مضت بأن يترل عذاب الاستئصال بكل قوم اقترحوا آية على رسولهم و لم يؤمنوا بها بعد حدوثها[7]وقد استند في ذلك إلى آيات عديدة كقوله تعالى:﴿قَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [8] أي لقضي الأمر بهلاكهم[9]وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا

---

[1] - رواه البخاري ، كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي بعثت بجوامع الكلم ، ج8، ص138، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺإلى جميع الناس ، ج1،ص93 ، وأحمد ، كتاب باقي مسند المكثرين ، باب باقي المسند السابق ، رقم 8135و9453.

[2] - مجلة المنار ، مج 30 ، ج 5 ، ص 364.

[3] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

[4] - سورة يونس ، الآية 20.

[5] - سورة العنكبوت ، الآية50.

[6] - سورة الإسراء ، الآية 93.

[7] - مجلة المنار ، مج 30 ، ج 5 ، ص 364. وتفسير المنار ، ج7 ، ص 387.

[8] - سورة الأنعام ، الآية 8.

[9] - ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ط1 ، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع بالأزهر ، القاهرة ، مصر ، 2001 ، ج 2 ، ص 126.

كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا

هذه الآيات فإن رشيد رضا قد صرّح أنه " لو صحّ أن قريشا سألوا النبيﷺ آية تدل على صدق نبوته ، وأن الله تعالى أجابهم إلى طلبهم فجعل انشقاق القمر آية كما هو نص الحديث ، لعذّب أمة محمد وقومه باستئصالهم على حسب القاعدة الصحيحة الثابتة بالنص القطعي ، أو لعذب من رأوها وكذبوها ...لكن لم ينقل أن الله تعالى عذب أحدا منهم عقب ذلك التكذيب ، بل نقل خلافه ، فإن منهم من مات بعد ذلك بكثير ، ومنهم من قتل ببدر بعد بضع سنين ، ومنهم من آمن بعد إصراره على التكذيب".[2]

هذا هو رأي رشيد رضا في معجزة انشقاق القمر التي تعد أكبر معجزات النبي ﷺالكونية ، لكن يبدو أن رأيه هذا لم يحض بقبول لدى كثير من المسلمين ، فما هو السّبب يا ترى ؟ هذا ما نعرف فيما سيأتي من الكلام.

---

[1]- سورة الإسراء ، الآية 60.
[2]- مجلة المنار ، مصدر سابق ، ص 368.

المطلب الثالث : موقف العلماء المسلمين من منكري المعجزات الكونية :

لقد سبق لنا القول في بداية هذا المبحث بأن مذهب المدرسة العقلية الحديثة في المعجزات الكونية كان محل اعتراض كبير لدى طائفة واسعة من المسلمين ، على اختلاف توجهاتهم ، وسوف نحاول في هذا المطلب عرض أهم الانتقادات التي وجّهت لهذه المدرسة، وفي مقدمتهم محمد عبده ورشيد رضا ، وقد لاحظنا بعد استقراء مجمل تلك الانتقادات أنها تؤول إلى إحدى اتجاهات ثلاث، وهذه الاتجاهات هي:

الفرع الأول : الاتجاه النصوصي.

هناك من انتقد رشيد رضا في موقفه من معجزة انشقاق القمر من زاوية نصوصية ، فلقد استعرض شفيق بن عبد الله شقير[1] رأي رشيد رضا الذي رأيناه سابقا ، وعلّق على النتائج الأربعة التي توصل إليها و هي :

- اختلاف متون الحديث .
- عدم تواتر الحادثة.
- معارضتها لنصوص من القرآن .
- عدم مطالبة المشركين بها .

فبالنّسبة للأولى : فقد رأينا أن رشيد رضا قد اعترض على أمرين اثنين : أولهما اختلاف أماكن وقوع حادثة انشقاق القمر بين مكّة ومنىً ، وثانيهما هو اختلاف طريقة انشقاق القمر إلى الأوجه السّتة التي سبق ذكرها، وقد اعترض شفيق شقير بدوره على رأي رشيد رضا بقوله : " فالشيخ يورد التعارضات الموهومة التي سبق أن جمع الأئمة بينها ، فابن حجر قد جمع بين هاتين الروايتين، بأن منًى من جملة مكة ، لأنها تابعة لها ، ولأن من كان بمنىً كان بمكة من غير عكس ، ولكن على ما يبدو فإن هذا الجمع لم يرض الشيخ"[2] ويقول عن الثاني:" إنّ قول الشيخ رشيد عن هذا الجمع تكلّف " مكابرة " ، فمن المعلوم أن موازنة الشيء لآخر تختلف تبعا لاختلاف

[1]- في أطروحته حول : موقف المدرسة العقلية الحديثة من الحديث النبوي الشريف ،433.
[2]- المرجع نفسه ، ص 342.

موقع الشاهد ، فلو نصّبت عصا في وسط الغرفة ، ونظرت إليها موازية لفتحة البـــاب مثلا ، ثم انتقلت إلى مكان آخر لرأيتها موازية لعمود النّافذة مثلا ، وهكذا كلمـــا تنقّلـــت والعصـــا في مكـــانها لم تتحرك وكذا الباب والنافذة ...إذن فلا عجب في أن يرد من الروايات مـــا يصـــف انشقاق القمر بكونه شقّة على أبي قبيس وشقّة على جبل السّويداء ، أو يرى آخـــر والـــرّاوي نفسه إذا مـــا تحرّك من مكـــانه نصفا على الصفـــا ونصفا على المروة ، أو يرى حراء بينهما أو غير ذلك من روايات ، وكلّهم صادق فيما قال ، فالشيخ غفر الله قد تكلّف ضرب النصـــوص ببعضها البعض ثم يتّهم الحافظ في الجمع بينهما".[1]

وبالنّسبة للثّاني : فقد ذهب رشيد رضا إلى القول إن روايات انشقاق القمر غير متـــواترة ، وإنّ القول بتواترها زعم باطل ، إلا أن شفيق شقير يذهب إلى عكس ذلك فيقول : " إن جمعا من العلماء حكى التواتر فيها مثل الإمام الشوكاني وابن حجر وابن كثير".[2]

وبالنسبة للثالث : فقد ذهب رشيد رضا إلى أن هذه الحادثة معارضة لبعض نصوص القـــرآن الكريم كقوله تعـــالى :﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾[3]،وهي نصوص تقر بأن لله سبحانه ســـنة في نظام الكون لا تتبدل ولا تتحول لأجل أحد ، وبدوره يعلق شفيق على هذا بقوله : " إن الخارق للانتظام الحاصل في الكون من سنّة الله كما أن الانتظام في حد ذاته سنّة من سننه عزّ وجـــل ... وقد أخبرنا الله كذلك بأن المعجزات والخوارق وانقلاب موازين الكون من سننه الإلهية".[4]

وبالنسبة للرّابع : فقد ذهب رشيد رضا إلى أنّ المشركين لم يطلبوا هذه الآية ، وأن الله تعالى لم يجبهم في أيّ طلب بأن يريهم آية كونية ،واستدل على ذلك بآيات كثيرة ذكرناها ســـابقا ، وقد علّق النّاقد على هذا بقوله :" عجيب من الشيخ رضا هذا الخلط ، فكل ما في الأمر أن أمـــر الآيات موكول لله تعالى إن شاء أجاب وإن شاء منع ، وكون الرّسول ﷺ لم يجبـــهم إلى طلـــب طلبوه مرّة لا يعني عدم جوازه مطلقا ، فلا مانع عقلا من جوازه ؛ وإنما نحن بصدد الحديث عـــن وقوع الانشقاق فعلا ، هل ثبت وقوعه أم لا ؟ والنقل هو الفيصل في هذا الشأن ".[5]

---

[1]- مرجع سابق ، ص 343.
[2]- المرجع نفسه ، ص 344.
[3]- سورة الرحمن ، الآية 5.
[4]- شفيق شقير ، مرجع سابق ، ص 345.
[5]- المرجع نفسه ، ص 346.

وانطلاقـــا من هذا كلّه ، وصل شفيق شقـــير إلى خلاصة مفادها : " أن ما أورده الشّيخ رضا من إشكالات خاصة على أحاديث انشقاق القمر لا تساعده على نفي حدوث هذه المعجزة كما يريد ، إلا أنها تتماشى مع موقفه من عموم المعجزات الخارقة لنظام الكون ، حيث يقـــول الشيخ :" ولولا حكاية القرآن للآيات الله التي أيدها موسى وعيسى عليهما الســـلام ، لكـــان إقبـــال الإفرنج عليه أكثر ، واهتداؤهم به أعمّ وأسرع وأما تلك العجائب الكونية فهـــي مثـــار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها".[1]

لم يضف شفيق شقير – حسب رأيي- شيئا جديدا في نقده لموقف رشيد رضا من معجـــزة انشقاق القمر ، ذلك أن جلّ الاعتراضات التي ذكرها ، والتي ما كانت إلا إتباعا لنصوص العلماء السابقين أمثال ابن حجر وابن كثير ووقوفا عند أقوالهم ، هي نفسها التي كانت محـــل اعتـــراض لدى رشيد رضا ، وربما هذا راجع إلى أمر كنّا قد ذكرناه سابقا، وهو أن شفيق عبد الله شـــقير يرى أن رشيد رضا محدود باعه في علم الحديث، وهو ليس من البارعين فيه، وهو ما لا يمكننـــا التسليم بصحته، فمن يطالع أعماله يرى عكس ذلك تماما.

الفرع الثاني: الاتّجاه الاستشراقي:

بعدما عرفنا سابقا زاوية من زوايا الانتقادات التي وجهت لرشيد رضا حول رأيه في المعجزات الكونية وعلى رأسها معجزة انشقاق القمر، نرى الآن زاوية أخرى انتقد فيها الباحثون موقـــف رشيد رضا والمدرسة العقلية ككل المعجزات الكونيـــة، وقـــد ارتـــأينا أن نســـميه بالاتجـــاه الاستشراقي، فما هي حقيقة هذا الاتجاه ، وما هي أهم انتقاداته.

لقد ذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى القول إن السّبب الذي أدّى بالمدرســـة العقليـــة الحديثة إلى إنكار المعجزات الكونية ، إنمـــا هو مسايرتهم لأفكـــار المستشرقين الـــذين يســـعون للطعن في شخصية النبي ﷺوفي نبوته ، ولا يكون ذلك إلا بإنكار معجزاته، بدعوى أنها لم تثبت، أو أنها ثبتت وهي مخالفة للحقائق العلمية اليقينية الحديثة التي توصلت إليها الدراسات الحديثـــة، فكان لزاما على أعلام المدرسة العقلية الحديثة أن يوفّقوا بين الدّين والعلم ، وذلك بمحاولة تفسير بعض حقائق الدّين تفسيرا علميا، والمعجزات واحدة منها ، يقول محمد سرور زين العابـــدين : "صحيح أنّ محمد عبده وتلاميذه كـــانوا قد ردوا على بعض المستشرقين والمبشـــرين، لكنهم في

[1]- مرجع سابق ، ص 347.

الوقت نفسه كانوا يحتفظون بعلاقات متنية ومشبوهة مع مبشرين ومستشرقين آخرين"[1]، ويقول في موضع آخر:"تصدى الشيخ محمد عبده لبعض المستشرقين، فردّ عليهم واحتفظ بعلاقات قوية مع بعضهم الآخر، وكان من أبرز الذين يدافعون عن الإسلام في عصره، والدّفاع عن الإسلام ليس دليلا على سلامة المنهج"[2] ، إنّ كلام محمد سرور هذا هو نتيجة لمقدمة ذكرها من قبل ، يرجع فيها سبب إنكار المدرسة العقلية الحديثة أو المدرسة الإصلاحية كما يسميها هو للمعجزات إلى مسايرتهم للمستشرقين، أو بتعبير آخر: تطييبا لخاطرهم، هذا ما يستشف من قوله:"لقد تأثر الشيخ محمد عبده بالمستشرقين الذين اتصل بهم في لبنان وباريس ولندن، وقد استمرت صِلاته بهم وتعاونه معهم بعد عودته من منفاه، وكانت أوربا وقتئذ تعكف على عبادة إله جديد اسمه العقل، فكل شيء فيها يجب أن يعرض على العقل، ولا يكون مقبولا ومنطقيا إلا إذا شهد له العقل ووثّقه... وفي مصر بعد عودة محمد عبده من منفاه ، أراد أن يثبت أنّ للعقل مكانة كبيرة في الإسلام، وأنّ المعجزة القطعية الوحيدة التي يؤمن بها المسلمون هي القرآن الكريم، ولهذا أسّس الشيخ مدرسة وشاركه في إقامة أعمدتها تلامذة لا يختلفون عنه في أفكارهم وتصوراتهم، ومعظمهم تتلمذ على أيدي المستشرقين"[3]، وعلى الرّغم من أن محمد سرور يؤكّد بشكل قطعي أن هدف المدرسة الإصلاحية هو ما ذكرناه آنفا، إلا أنه يعود في خاتمة البحث ليستدرك شيئا واحدا فيقول:"يختلف محمد رشيد رضا عن شيخه محمد عبده، فالأول أسلم منهجا، وأصفى عقيدة، وأبعد عن مواطن الشّبهات، ومع ذلك فلنا عليه بعض الملاحظات – وذكر منها- تأثره بشيوخه فأوّل بعض المعجزات، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، تأويله لمعجزة انشقاق القمر، رغم تخريج البخاري ومسلم لها".[4]

وبدوره يذهب مصطفى صبري وهو من المعاصرين لرشيد رضا إلى الاتجاه نفسه الذي ذهب إليه محمد سرور، فقد حمل على أعلام المدرسة العقلية الحديثة وفي مقدمتهم رشيد رضا حملة عنيفة واتهمهم كسابقه بمولاة المستشرقين ، فمن أقواله مثلا :"ومثل الناقدين الأجانب – المستشرقون – الناقدون من أبناء المسلمين، الذين لا تعجبهم معجزات نبينا الكونية المنسوبة إليه في كتب الحديث

---

[1]- محمد سرور بن نايف زين العابدين ، دراسات في السيرة النبوية ، ط4 ، دار ابن تيمية ، الجزائر ، 1990 ، ص 334.
[2]- المرجع نفسه ، ص 336
[3]- نفسه ، ص325.
[4]- نفسه ، ص 336.

والسّيرة ولا يقنعهم التبرؤ منها ، وتكون مصانعتهم واسترضاؤهم بالتنازل عما في كتب الحديث والسّيرة من روايات المعجزات أشدّ مساسا بكرامة الإسلام و أشأم".[1]

وكما انتقد مصطفى صبري باقي أعلام المدرسة العقلية الحديثة في موقفهم من المعجزات الكونية، انتقد كذلك وبلهجة شديدة أراء محمد رشيد رضا في المعجزات الكونية ، وعلى رأسها معجزة انشقاق القمر ، فقد انتقد بشدّة رأيه في أن المعجزات الكونية شبهة لا حجة بقوله : " القول بأن المعجزات الكونية شبهة لا حجة الذي عزاه الشيخ رشيد رضا إلى علماء العصر الغربيين، هو مذهب الشيخ نفسه أيضا"[2]،و يقول أيضا :" رغم الشّيخ صاحب المنار الذي زاغ قلمه مع القلوب الزّائغة ، فاعتبر المعجزات الكونية شبهة وقال لأنها موجودة في زماننا ككل زمان مضى وأن المفتونين بها هم الخرافيون... كيف تجرّدون القرآن من المعجزة الكونية المضافة إلى نبينا ونبيكم مع سائر الأنبياء ألا وهي على الأقل الوحي والنبوة، وإنزال الملك والكتاب، وكل ذلك يخالف سنّة الكون ويأباه العلم الحديث المبني على التجربة الحسّية الحاضرة على الزائغي القلوب"[3]، ويقول في موضع آخر :" فكأن الشيخ وقد ذكر في كتابه – يقصد الوحي المحمدي – أمثلة مما يأتي به صوفية الهندوس، وفيها إحياء الموتى يسعى في مقابل ذلك إلى ما يدعيه المستشرقون أعداء الإسلام من أن محمدا ﷺ لم يأت بمعجزة كما أتى موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء ، يسعى لأن يدّعي في مقابل ذلك أنّ معجزات أولئك الأنبياء لم تكن بمعجزات... عجيب هذا الجدال المحدث بين المستشرقين والمستغربين المسلمين ، المبني على تعصب كل من الطرفين لدينه على دين الطرف الآخر، فالمستشرقون يعيبون الإسلام بأن نبيّه لم يأت بمعجزة... وهم لا يعدّون القرآن بمعجزة، والمستغربون الغافلون يقابلون اعتداء المستشرقين بالاعتداء قائلين : إنّ معجزات المرسلين الأولين لم تكن جديرة بأن تعدّ معجزات للأنبياء ، لأنها موجودة في زماننا ككل زمان مضى وأن المفتونين بها الخرافيون"[4] ويقول أيضا في رده على إنكار معجزة انشقاق القمر :" ورأيت للشيخ رشيد، تلميذ محمد عبده تأويلا في قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[5] والمعنى عنده اقتربت السّاعة وظهر الحق، ثم أتى لتأويله بدليل من لسان العرب وهو قولهَ : انشق الصبح إذا طلع... ولكن الشّيخ شيخ منكري

---

[1]- مصطفى صبري ، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، ط3 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، 1983 ، ج4 ، ص 106.
[2]- المرجع نفسه ، ص 124
[3]- المرجع نفسه ، ص 106.
[4]- نفسه ، ص 124.
[5]- سورة القمر ، الآية 26.

المعجـــزات الكونية ، قاس انشقاق القمر على انشقـــاق الصبح والفجـــر... أما تـــأويله فهـــو لغو في القـــرآن من أنواع اللغو الذي توســـل به الأولون إلى عـــدم السّمـــاع للقـــرآن حـــين قالوا : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ [1] وكان لغو الشيخ في القرآن كيلا يسمع له بعد أن أتى بألوان من اللّغو ،كيلا يسمع أحاديث معجزة شقّ القمر".[2]

لقد كان رأي هذا الاتجاه الثاني إذن مركّزا على جعل الدّافع الرئيس لمنكري المعجزات الكونية هو مسايرة المستشرقين، وتفسير حقائق الإسلام وفق منهجهم، ولكن قبل أن نعلّـــق علـــى رأي أصحاب هذا الاتجاه الثاني، تختم عرض الانتقادات الموجّهة للمدرسة العقلية، برأي يمثّل أبعد تصور لهذه القضية وهو :

الفرع الثالث : الاتجاه السّياسي الاستعماري.

إذا كان محمد سرور وهو من أعلام المدرسة النصوصية، ومصطفى صبري وهو مـــن أعـــلام المدرسة العقلية المعتدلة قد أرجعـــا سبب إنكار المعجـــزات الكونية لـــدى العقليين المحدثين إلى مسايرة المستشرقين، فإن نموذجنا الأخير وهو محمد سعيد رمضان البوطي، له تصور أبعـــد مـــن تصور سابقيه، حيث نقد هذه المدرسة من زاوية بعيدة ، ارتأينا أن نسميها الاتجـــاه السّياســـي الاستعماري.

فقد أرجع محمد سعيد رمضان البوطي نشأة تيّار السّلفية العقليـــة الحـــديثة إلى المســـتعمر الأوربي، وبالخصوص إلى الاحتلال الإنجليزي، الذي رأى أنه لا يمكنه احتلال مصر بالخصوص إلا بفرض سيطرة أخرى إلى جانب السّيطرة العسكرية، فراح يستعين بمنهج فكري يغير من تفكـــير المسلمين تغييرا يقصيهم عن شدّة التمسّك بالدين، ويجعلهم يلتقون مع الفكر الأوربي في أوســـع قدر ممكن من سبل الحياة ، فقامت بتطبيق ما سمته بالإصلاح الاجتماعي والديني ، فكان الميـــدان الأول لهذا الإصلاح "الجامع الأزهر"، أكبر هيئة علمية في مصر والعالم الإسلامي آنذاك[3] ،وكان مخطط الإنجليز حسب البوطي هو تنبيه قادة الفكر العربي الإسلامي ، إلى أن وجود مثل هـــذه النهضة في العالم الإسلامي متوقف على تطوير الطريقة التي يتم بها فهم الدين والعقيدة الإسلامية

---

[1]- سورة فصلت ، الآية26.
[2]- مصطفى صبري ، مرجع سابق ، ص 172.
[3]- محمد سعيد رمضان البوطي ، كبرى اليقينيات الكونية ، ط8 ، دار الفكر الجزائر ، دار الفكر دمشق ، سوريا ، 1985 ، ص 224.

بشكل يتفق مع الفكر العلمي المقبول، وهو ما يعني ضرورة تخليص الفكر الديني من كل حقيقة غيبية غير مفهومة أو داخلة في قوالب العلم الحديث.[1]

وقد رأى الإنجليز – حسب البوطي دائما – أن الشخص الوحيد الذي يمكن التعويل عليه في هذا المخطط هو الشّيخ محمد عبده، فجيء به وأعطيت له مقاليد الأمر ليقوم بإصلاح شامل في ميدان الأزهر متبعا الأساس الذي رسمه الإنجليز، فكان أن نصب عددا من تلاميذ الأزهر الذين سيكونون وقود هذه الحملة كالشيخ مصطفى المراغي(*) ومحمد فريد وجدي(**)...وما هو إلا أن تسلم هؤلاء و غيرهم مراكزهم الجديدة حتى بدأ التبشير بالمنهج الجديد في فهم العقيدة الإسلامية ، وهو المنهج الذي يهدف إلى تجاهل كل المسائل الغيبية التي لا تقع تحت مجهر العلم التجريبي المحسوس، وفي مقدمتها المعجزات على اختلافها.[2]

فبدأ أعلام هذه المدرسة بدءا من محمد عبده يكتبون عن المعجزات بمنهج لم يسبق للمسلمين أن كتبوا به انتهت بهم إلى:" تفسير المعجزات تفسيرا قرّبوها به إلى الظواهر الطبيعية العادية التي ادّعوا أنهم بهذا قد فسّروها تفسيرا علميا، و قربوها إلى العقل ، وهم في الحقيقة قد ضربوا المعجزات في قلب خصائصها وهي خرق العادة".[3]

فأنكروا بذلك المعجزات الكونية وأنكروا وظيفتها، ولك أن تسأل – يقول البوطي- كيف أنكر أقطاب الإصلاح الدّيني المعجزات من دون معجزة القرآن مع أنهم يؤمنون بالله عزّ وجل؟ والجواب أن أحدا منهم لم ينته إلى هذا الإنكار بواسطة تفكير عقلي أو علمي تمسّكوا به، ولكنهم انتهوا إلى هذه النهاية بتأثير نفساني جرفهم إليها، لقد بهرهم مرأى الحضارة الغربية، وغشيت أعينهم من النظر إليها، وفتنوا بكلمة العلم في الوقت الذي لا يملكون أي قدر مفيد من معناها، وصادف أن استغل الإنجليز فيهم هذه الحالة، فأفهمهم أن العلم لا يرقى إليه إلا بإنكار

---

[1]- مرجع سابق ، الصفحة نفسها .

*- مصطفى المراغي (1298-1364هـ/ 1881-1945م)هو محمد بن مصطفى بن محمد بن عبد المنعم المراغي ، باحث مصري ، من دعاة التجديد والإصلاح ولد بالمراغة بالصعيد ، وتعلم في القاهرة ، وكان من تلامذة محمد عبده ، وولي أعمالا منها : القضاء الشرعي ، وقضاء القضاة في السودان ، وعين شيخا للأزهر سنة 1928م ، فمكث عاما ، وأعيد سنة 1935م فاستمر إلى أن توفي بالإسكندرية ، ودفن في القاهرة ، له تصانيف كثيرة منها : ترجمة للقرآن إلى اللغة الأجنبية ، بحوث في التشريع الإسلامي ..أنظر :الزركلي ، الأعلام ، ج 7 ، ص 103.

**- محمد فريد وجدي (1295-1373هـ/1878-1954م) من الكتاب الباحثين ، ولد ونشأ بالإسكندرية ، وأقام زمنا في دمياط ، كان أبوه وكيلا محافظا فيها ، وانتقل بعد ذلك إلى السويس ، ثم القاهرة أين عمل في وظيفة صغيرة بديوان الأوقاف ، وأنشأ بعدها مطبعة أصدر بها جريدة الدستور ، تولى تحرير مجلة الأزهر نيفا وعشرين سنة ، كان مترفعا عن غشيان المجالس العامة ، قلما يرى في محفل أو مجمع ، توفي في القاهرة ، وله من التصانيف : دائرة معارف القرن العشرين ، الإسلام في عصر العلم ، ما وراء المادة ، أنظر : الزركلي ، الأعلام ، ج6 ، ص 329.

[2]- رمضان البوطي ، مرجع سابق ، ص 225.

[3]- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

المعجزات والمغيبات، فاتخذوا من كلمة العلم صابونا يغسلون به أدمغتهم وأبحاثهم من كل شيء اسمه معجزة أو خارقة.[1]

هذه هي خلاصة الاتجاه الثالث الذي تزعمه محمد سعيد رمضان البوطي الذي رأى أن إنكار المعجزات الكونية لدى المدرسة الإصلاحية كان مخططا غربيا محضا، و لنا أن نقول بدورنا بعد هذا كله: لقد أنكر معظم أعلام المدرسة العقلية الحديثة بعض المعجزات الكونية فعلا، كما أوّلوا كثيرا من المعجزات الأخرى تأويلا علميا كان في بعض الأحيان بعيدا عن مقتضيات وشروط التأويل المتعارف عليها عند أهل الاختصاص، وردوا كذلك بعض الرّوايات الصّحيحة التي أثبتت بعض المعجزات الكونية، ولم يقبلوها حتى وهي آحاد، وهذا ما لا يمكن جحوده أو مخالفة الناقدين لهم فيه، ولكن فيما يخص نقدهم المتعلّق بالمستشرقين، فإننا نقول إن هؤلاء الناقدين رغم أنهم مصيبون في أن الهدف من هذا الإنكار هو مسايرة الغرب، إلا أننا ننوّه إلى ضرورة التعامل مع هذه المسألة في سياقها التاريخي، وبتعبير أخصّ، إن الفكر الإسلامي في زمن المواجهة المباشرة مع الغرب يختلف هدفا وغاية وموضوعا ومنهجا عنه في زمن العولمة والحداثة اختلافا كبيرا، ولا شك أن كثيرا من أعلام المدرسة العقلية الحديثة، كانت غايتهم خالصة، ونيتهم صافية لخدمة الإسلام، ومعالجة مشاكل عصرهم ومواكبة التحديات التي تعترض دينهم، رغم النتائج التي تبدو خاطئة فيما وصلوا إليه، وهذا الذي قلناه يحتاج إلى تحليل أعمق ليس من اختصاص هذه الرّسالة، ولكننا سنتحدث عمّا له علاقة بها، وما هو من موضوعها، أي سنتحدث عن رأي هؤلاء الناقدين فيما وصلوا إليه حول محمد عبده ورشيد رضا.

لقد توصّل بعض هؤلاء الناقدين إلى أن محمد عبده،كان على علاقة مشبوهة ببعض المستشرقين، هذه العلاقات المشبوهة هي التي تفسر اتجاه محمد عبده إلى موقفه ذاك من المعجزات، وهذا ما يعني في نظرنا أن هؤلاء المستشرقين كانت لهم قوة تأثيرية على حمل عبده لأن يقف من المعجزات ذلك الموقف المشهور، وهذا طبعا ما لا يمكن التسليم به بسهولة، فصحيح أن محمد عبده كان على علاقة وطيدة بكثير من الشخصيات العلمية، لكن هذا لا يعني أنه إنما ذهب إلى ما ذهب إليه تطبيا لخاطرهم، فمن يطّلع على موقف عبده من الفيلسوف الفرنسي رينان(*) وكذلك

---

[1]- مرجع سابق ، ص232.

*- إرنست رينان (1892-1923م)مستشرق ومفكر فرنسي عني خصوصا بتاريخ المسيحية ،وتاريخ شعب إسرائيل ، أتقن اللغة العربية ، وأقام في لبنان أكثر من عامين وتجول في فلسطين ومصر ، وكان مشغولا بحياة المسيح ، وبالآثار الفينيقية هناك ، له مؤلفات كثيرة أهمها : تاريخ اللغات السامية ، الإسلام والعلم، وهي عبارة عن محاضرة ألقاها بالسربون وقد رد عليها جمال الدين الأفغاني في المناظرة المشهورة بينهما ، وله بحث سماه : أسطورة محمد في الغرب ، وكتب كثيرا عن العلماء والفلاسفة المسلمين كابن رشد ، المسعودي ...أنظر : عبد الرحمن بدوي ، موسوعة المستشرقين ، ط3 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، 1993، ص 311.

مع الأديب المسيحي فرح أنطون، يعرف أن كلّ مواقفه كانت في إطار علمي بدافع ديني محض. غايته الدّفاع عن الإسلام، في إطار أولويات المرحلة الزّمنية المعاشة آنذاك، أمام تصاعد حمّى الإيمان بالعلم كمقياس وحيد للحقائق الكونية وغير الكونية، وربما حاول عبده أن يقرب بعض المسائل الإسلامية ليفهمها هؤلاء فوصل إلى ما وصل إليه.

ومن الغريب كذلك أن نجد علما بارزا مثل البوطي يذهب إلى أنّ محمد عبده:" إنما كان وسيلة من الوسائل التي اعتمد عليها الإنجليز في تحقيق طموحاتهم، فأغروه بمنصب شيخ الأزهر وزيّنوا له القول بإنكار المعجزات الكونية..." نقول إنّه من الغريب وليس غرضنا هنا الدفاع عن محمد عبده وتبرير مواقفه، ولكن ينبغي علينا أن نحيط رأي البوطي بنظرة أوسع، وفهم أعمق لشخصية محمد عبده ومنهجه الاصطلاحي، فمن المعروف جليا لدى العام والخاص أنّ محمد عبده كان له موقف واضح جدا من السّياسة والعمل السّياسي، وقد كان على خلاف مع أستاذه الأفغاني حول هذه النقطة بالذات، وكان اتجاهه في المقابل منصبّا على التعليم، وكانت له رؤية شاملة للوضع التعليمي في مختلف الهيئات التعليمية على اختلاف مشاربها، ومن هنا فإنّنا نرى أنه من البديهي جدا أن يقبل منصب مشيخة الأزهر الذي قلّده إيّاه الإنجليز، بغض النظر عن هدفهم غير النبيل، فما دامت قد منحت له الفرصة لتحقيق آماله فليس عليه تضييعها، وأما قول البوطي بعد كلامه عن مجيء عبده إلى مشيخة الأزهر ... "ورأينا كيف يكتب محمد عبده في مسائل العقيدة على طريقة غريبة عجيبة، يخرج فيها على إجماع المسلمين وبديهيات العقيدة الإسلامية الصحيحة، وذلك حينما يعرف النبي و الرّسول في تعليقاته على شرح الجلال الديواني[1]، فهو بالنسبة لنا ما يبين أن محمد عبده إنما كان يحمل هذه الآراء قبل تعيينه في مشيخة الأزهر ، إذ من المعلوم أن كتاب شرح الجلال الديواني على العقائد العضدية قد كتبه في وقت مبكر من حياته العلمية، أي دون تأثر بالإنجليز كما صرّح بذلك البوطي.

ونقطة أخيرة نود الحديث عنها ، يتفّق معظم النّاقدين على أن محمد عبده ينكر المعجزات، ويستدلون على ذلك برأيه المشهور حول آية سورة الفيل حين فسّر الطير الأبابيل بداء الجدري[2] إن هذا الرّأي وغيره من الآراء المماثلة في مواضع أخرى[3]، إنما هي تأويلات للمعجزات الكونية بإعطائها تفسيرا غير التفسير المتبادر إلى الذّهن، ونحن نتسائل الآن لقد أوّل بعض السّلف آيات

---

[1]- البوطي ، كبرى اليقينيات الكونية ، ص 225.
[2]- محمد عبده ، تفسير جزء عم ، دط ، دار الكتب ، الجزائر ، 1982، ص 160.
[3]- أنظر مثلا نماذج ذكرها محمد سرور ، دراسات في السيرة النبوية ، ص 272وما بعدها .

عديدة تخصّ صفات الله تعالى، فهل نقول أنهم بهذا قد أنكروا تلك الصفات، إنّه من الواضح أن هناك فرقا بين التأويل والإنكار، ولا معنى واحد لهما ، فالتأويل شيء و الإنكار شيء آخر وإنّ بعض ما وصلنا عن محمد عبده - نتكلم عن محمد عبده- لا يخرج عن كونه تأويلات لتلك المعجزات، ولا يمكن عده بأي حال من الأحوال إنكارا لها.

هذا ما يمكن أن نقوله عن محمد عبده ، فماذا نقول عن رشيد رضا ؟

إن مانؤكّده بيقين فيما يخص محمد رشيد رضا ، أن إنكاره لمعجزة انشقاق القمر لم يكن له علاقة بالمستشرقين، ومسايرة أفكارهم ، ولا بأمر مخالفتهما للعلم الحديث ، فلقد سبق لنا ورأينا أنه قد ردّ هذه الحادثة بمنهج إسلامي ، وذلك لعدم توفر شروط الصحّة في بعض أسانيد روايات انشقاق القمرحينا ، وحينا آخر لاضطراب متونها وعدم وضوحها، وثانيا فإن علينا أن نبين أنّ رشيد رضا لم يكن أول من ردّ هذه المعجزة ، فلقد كانت محل أخذ ورد بين العلماء السّلف ، وأسالت كثيرا من الحبر، دون أن يستطيع أي طرف إقناع الطرف الآخر بصحة معتقدة، وقد اعتمد رشيد رضا اعتمادا كبيرا على طائفة من أولئك العلماء الذين ردّوا معجزة انشقاق القمر للأسباب التي ذكرناها مجملة أثناء عرضنا للمسألة، وإلى هنا فإننا نقرّ أنه لا توجد أيّة لمحة فكرية أو منهجية نقول أنها من لمحات التجديد لدى رشيد رضا ، لكن النقطة الثالثة لها دخل كبير، وعلاقة وطيدة بمنهج التجديد عنده وهي : تصريحه بأن القرآن الكريم هو المعجزة التي تفوق كل المعجزات، ولا يمكن إثبات المعجزات الأخرى إلا به ، والقرآن نفسه لم يذكر من المعجزات الكونية سواء لمحمد ﷺ أو لباقي الأنبياء إلا النّزر القليل ، بالرّغم من موقع هذه المسألة في المنظومة العقدية ككل ، وأنّ القرآن نفسه صرّح أن الآية الكونية الكبرى تكون دائما متبوعة بعذاب الاستئصال في حال تكذيبها ، وهو ما يتنافى مع طبيعة رسالة محمد ﷺ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [1] ، وكذلك طبيعة العقلية البشرية التي أصبحت في طور لم تعد الخوارق قادرة على دفعه للوصول إلى حقيقة الدين ، إلا من كان له استعداد ، وبذلك أصبحت المعجزات الكونية شبهة لا حجة...، لاشك أن هذا رأي جريء لم يسبق إلى مثله في تاريخ الفكر الإسلامي، وهو يتضمن بوضوح إنقاصا من قيمة المعجزات الكونية كدلالات إلهية على صدق نبوة الأنبياء فيما دعوا إليه، هذه النتيجة التي توصل إليها رشيد رضا كانت مدفوعة بمنهج تجديدي يعتمد أساسا على رؤية مقاصدية للقرآن الكريم، تجعله محورا للفهم والمنطلق الذي

[1]- سورة الأنبياء ، الآية 107.

يرتكز عليه في فهم قضايا الإسلام المختلفة، ومن هنا فإن من الخطأ القول إن رشيد رضا قد أنكر المعجزات الكونية، بل بالعكس من ذلك فلقد أثبت كل المعجزات التي أثبتها القرآن الكريم ، لكنه أعطى أهمّية كبرى لمعجزة القرآن الكريم العقلية النّفسية على معجزات الأنبياء الكونية الحسية ، وهو ما يفيده قوله الذي ذكرناه سابقا : أنّ نبوة محمد ﷺقد ثبتت بنفسها أي بالبرهان العلمي والعقلي الذي لا ريب فيه ، لا بالآيات والعجائب الكونية، وأن هذا البرهان قائم ماثل للعقول والحواس، في كل زمان ، وأنه لا يمكن إثبات آيات النّبيين السّابقين إلا بثبوت نبوة محمد ﷺ، وهذا القرآن الذي جاء به ، فالحجّة الوحيدة عليها في هذا الطور العلمي الاستقلالي من أطوار النوع البشري هو شهادة لها"[1] ، ولا ننكر من جهة أخرى أن منهج رشيد رضا التجديدي في هذا كان ينطلق من رؤية عصرية تعتمد على محاولة التوفيق بين الدّين والعلم ، لسدّ ثغرة كان يمكن أن تكون لها آثار كبيرة على الإسلام ، لو لم يستعن هو وأعلام المدرسة العقلية بعده بهذا المنهج الجديد ، ولا غرو فالتاريخ يعيد نفسه ، فلقد استعان المسلمون الأوائل بمناهج دخيلة على الإسلام كالفلسفة والمنطق، حققوا بها أشياء وسدّوا بها ثغورا ، دون أن يسلموا من أعراض التأثيرات الجانبية لذلك المنهج ، كذلك كان الحال مع المنهج الذي اعتمدته المدرسة العقلية الحديثة، فلقد استعانوا بالحقائق العلمية لسدّ ثغرات الهجوم الاستشراقي ، فحققوا جانبا من النّصر ، لكنهم ضحوا —بقصد أو بغير قصد – ببعض الحقائق الإسلامية التي كانت محل إجماع لدى الأمة الإسلامية.

[1]- رشيد رضا ، الوحي المحمدي ، ص 83.

المبحث الثالث : منهجه في إثبات صفات الأنبياء.

نأتي الآن إلى آخر مسائل النبوة التي أردنا أن نبحثها في موضوعنا هذا ، وهي صفات الأنبياء، ولن يكون حديثنا فيها مطولا لسببين : أولهما لأن هذه المسألة ليس فيها من الخلاف ما يجعلها مسألة موسعة أو متشبعة ، و ثانيا لأنه لم يصلنا فيها عن رشيد رضا كلاما كثيرا أو آراء جديدة يمكن أن نتوسع في ذكرها ، لكن هذا لا يعني أنها تخلو من بعض القضايا المثيرة التي وصل إليها في بحثه فما هي هذه القضايا ، وهل لها مكان في التجديد الكلامي الذي نسعى لإبرازه؟

المطلب الأول: إثبات صفة العصمة.

أردنا أن نبدأ حديثنا في هذا المبحث عن صفة العصمة لما لها من علاقة مباشرة بما قبلها (المعجزات) أولا، ولما تمثله من مكانة مهمة بين باقي الصفات الأخرى التي قد تكون العصمة مفتاحا لها أو شاملة لها.

لقد ناقش رشيد رضا صفة العصمة – كباقي المسائل العقدية الأخرى – من منظور مزدوج ، أي من منظور إسلامي ومنظور مسيحي ، وقد كان الهدف من هذا واضحا للعيان ، وهو الرّدّ على منكري عصمة الأنبياء عليهم السّلام ، وبخاصة عصمة نبينا محمد ﷺ، إذ دأب المسيحيون كعادتهم على خلق المزاعم المفتراة حول عصمة النبي ﷺمن الذنوب والأخطاء ، وهو ما يعني في نظرهم عدم سلامة التشريع الإسلامي ، والعقيدة الإسلامية من الزيغ و الضلال ، فكيف تعامل رشيد رضا مع هذه الشبهة ؟

الفرع الأول: إثبات مطلق العصمة.

لقد سعى رشيد رضا حين مناقشته هذه المسألة من المنظور الإسلامي أن يوضّح الخطوط العامة التي يعتقدها المسلمون فيها ، بهدف الوصول إلى أرضية ميّسرة لمناقشة المستشرقين فيما يحوكونه ضدها ، لهذا فإننا نجده في أول تعليقاته على هذه المسألة في مجلة المنار ، يعتمد كل الاعتماد على التراث الكلامي وبخاصة على ما أورده عضد الدين الإيجي في كتابه المواقف ، وقد برّر رشيد رضا هذا المنهج بقوله : "وإنما نقلنا عبارة كتاب المواقف الذي هو أعظم كتب الكلام ، لئلا يظن قليل الإطلاع من المسلمين أن الأقوال التي أوردناها في الخلاف ، هي أقوال شاذة أو مسندة إلى غير أصحابها سهوا أو جهلا "[1] ، وانطلاقا من هذا الكلام يمكننا تلخيص رأيه في العصمة كالتالي :

---

[1]- مجلة المنار ، مج 5 ، ج 1 ، ص 18.

يذهب رشيد رضا في تحديد مفهوم العصمـــة ، إلى اختيار التعريف الذي أورده الجرجاني من أن العصمة :"ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها"[1] ، وقد استنتج من هذا التعريف أن العصمة لا يختص بها الأنبياء وحدهم، فقد تكون لغيرهم كذلك مع فارق مهمّ ، وهو أنها عند الأنبياء أمر فطري جبلوا عليه ، بخلاف غيرهم من البشر الذين يحصلونها بحسن التربية وغيرهـــا مـــن الأمـــور الكسبية كالتحـــلي بالفضيلة، والابتعاد عن الفجور والدنايا...أو ما عبر عنه بقولـــه: " بالتربيـــة الفاضلة بين الفضلاء مع مساعدة الوراثة و اعتدال المزاج "[2] ، وقد سمى المتكلمون هـــذا النـــوع الثاني بـــ" الحفظ" تفريقا بينه وبين العصمة الحقيقية.

بعد هذا الكلام ينتقل رشيد رضا إلى تعداد مجالات العصمة لدى الأنبيـــاء[3] ، الـــتي أثبتـــها المتكلمون و هي :

- العصمة في التبليغ.
- العصمة من الكفر.
- العصمة من الكبائر.
- العصمة من الصغائر.
- العصمة قبل النبوة.

مركزا فيها على ذكر أهم الاختلافات التي وردت عند المتكلمين ، معتمدا فيها كما قلنا سابقا على ما أورده الإيجي ، ونحن بدورنا سنورد ما كتبه ابن حزم في هذا ، لأنه يوجز لنا كل ما أورده رشيد رضا من الاختلافات في هذه المسألة ، يقول ابن حزم : " اختلف الناس في هـــل تعصـــي الأنبياء عليهم السلام أم لا ؟ فذهبت طائفة إلى أن رسل الله صلـــى الله عليهم وسلم يعصون الله عز وجل في جميع الكبائر والصغائر عمدا حاشا الكذب في التبليغ فقط ، وهذا قول الكراميـــة(*) من المرجئة(**) ، وقول ابن الطيب الباقلاني من الأشعرية .. وهو قول اليهـــود والنصـــارى ، وسمعت من يحكي عن بعض الكرامية أنهم يجوزون على الرّسل عليهم السّلام الكذب في التبليـــغ

1- مصدر سابق ، ص18.
2- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
3- صدر نفسه ، مج 4 ، ج 1 ، ص 20.
*- الكرامية هم أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام ، وهم طوائف بلغ عددهم اثنتي عشرة فرقة ، وأصولها ستة : العابدية ، والتونية ، والزريرنية ، والإسحاقية ، والواحدية ، وأقربهم الهيصمية ، ولكل واحدة منهم رأي إلا أنه لم يصدر ذلك عن علماء معتبرين ، بل عن سفهاء أغتام جاهلين ، راجع : الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص 124.
**- الإرجاء على معنيين : أحدهما بمعنى التأخير كما في قوله تعالى :﴿ قالوا ارجه وأخاه ﴾ (الأعراف ، 11)أي أمهله ، والثاني إعطاء الرجاء ، أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح،لأنهم كانوا يؤخرون العمل على النية والعقد، وأما بالمعنى الثاني،فظاهر ،فإنهم كانوايقولون : لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، والمرجئة أربعة أصناف : مرجئة الخوارج ، ومرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة .راجع :الشهرستاني ، مرجع سابق ، ج 1 ، 161.

أيضا ... وذهبت طائفة إلى أن الرّسل عليهم السّلام لا يجوز عليهم كبيرة من الكبائر أصلا. وجوزوا عليهم الصغائر بالعمد ، و هو قول ابن فورك الأشعري(*) ، وذهب جميع أهل الإسلام من أهل السّنة والمعتزلة والخوارج والشيعة، إلى أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبي معصية بعمد لا صغيرة ولا كبيرة".[1]

لقد ذكر رشيد رضا كل هذه الاختلافات التي اختلفها المتكلمون في تقرير مبحث عصمة الأنبياء باختلاف مجالاتها التي ذكرناها سابقا ، لغرض رآه أنه مهم ، يخدم هذه المسألة من الزاوية المقابلة للمنظور الإسلامي ، وهو تفنيد آراء المسيحيين حول مسألة عصمة الأنبياء ، وذلك من حيث :" إن المسلمين لم يتكلفوا القول بعصمة الأنبياء تكلّفا لإثبات قدرهم على إنجاء الناس من العذاب في اليوم الآخر "[2]، ومن هنا يتبين لنا محاولة رشيد رضا ضرب العقيدة المسيحية في صميمها ، وفي الأصل الذي قامت به منذ دخلها التحريف :" فالنصارى يجعلون معاصي الأنبياء دليلا على عقيدهم، وهي أن المسيح وحده هو المعصوم ، لأنه رب وإله ، ولأنه هو المخلص للناس من العقاب على الخطيئة اللازبة اللازمة لكل ذرية آدم بالوراثة له ، وأنه لا شفيع ولا مخلص لهم غيره ، لأن المخطئ لا يخلص المخطئين وهو منهم "[3] ، وهذا القول من النصارى جعلوه مبدأ لهم يسيرون وفقه لتبرير عقيدهم ، وهو الذي حملهم الطعن في كل الأنبياء وإلصاق التهم بهم خصوصا بالنبي الخاتم محمد ﷺ ، الذي رموه بكل الصفات التي تدل على عدم عصمته ، بل وبارتكابه لبعض الذنوب والخطايا ، فكيف تعامل رشيد رضا مع هذا الموقف ؟

لئن كان رشيد رضا ينطلق في مناقشة هذه المسألة من خلال ما أورده المتكلمون فيها رغم الاختلافات الكبيرة الواردة فيها ، فانه بهذا يقر بأن الدّليل السّمعي وحده غير كاف لإثبات عصمة الأنبياء عليهم السّلام،والسّبب في ذلك أنه يمكن الاستنباط من كثير من الآيات القرآنية ما يدل على نزاهة الأنبياء وكونهم قدوة في الخير والفضائل، ولكن ليس فيها نص صريح على العصمة من الذنوب مطلقا [4] لهذا فقد لجأ إلى الاستدلال العقلي لإثبات عصمة الأنبياء عموما حيث يقول: " يؤخذ الدليل من عصمة الأنبياء من وجه الحاجة إليهم في الكمال الإنساني ، ومن

---

* - ابن فورك :(ت 1015هـ)هو محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني الشافعي ، فقيه متكلم أصولي أديب نحوي واعظ عارف بالرجال، أقام بالعراق مدة وورد الرّي ، وكثر سماعه بالبصرة وبغداد ، وحدث بنيسابور ، من تصانيفه : دقائق الأسرار ، مشكل الآثار ، أسماء الرجال ،النظامي في أصول الدين ، وقد ألفه للوزير نظام الملك ، راجع : عمر كحالة ، معجم المؤلفين ، ج 3 ، ص 230.

[1]- ابن حزم ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج 2 ، ص 292.

[2]- مجلة المنار ، مج 5 ، ج 1 ، ص 19.

[3]- شيد رضا ، الوحي المحمدي ، ص 51.

[4]- مجلة المنار ، مصدر سابق ، ص 51.

وظائفهم المنطبقة على وجه الحاجة إليهم .."[1] ذلك أن الوظائف نوعان : نوع في بيان الاعتقادات التي ترقي العقل وتعتقه من رق العبودية لمظاهر الطبيعة التي خلق مستعدا لتسخيرها والتصرف فيها ، ونوع في تهذيب النفس وتزكيتها بالأخلاق الفاضلة والأعمال النافعة ، ولا يرتقي الإنسان إلا بمجموع ما يندرج في هذين النوعين من التكاليف ... وبديهي أن العمدة في بيان النوع الأول صدق الخبر بحيث لا يحوم حوله الشّك والرّيب ، والعمدة في الثاني صدق الخبر كذلك مع حسن الأسوة وصحة القدوة بالمخبر لأنه تربية والتربية إنما هي بالقدوة ، والتعليم القولي مساعد للتأسّي ، ولا تحصل الثقة القطعية بصدق المخبر إلا إذا كان المخبر معصوما من الكذب والخطأ في التبليغ ، ولا تتم القدوة وتحسن الأسوة إلا إذا كان الإمام المقتدى به بريئا من النقائص منتهيا عما ينهى عنه مؤتمرا بما يؤمر به متخلقا بما يرغب في التخلق به ، إذ لا تتم حكمة الله تعالى في إرسال الرّسل إلا إذا كانوا بحيث ذكرنا من الصدق والنزاهة ، والحكمة واجبة لله تعالى، فوجب أن يكون الأنبياء المبلغون عنه سبحانه صادقين معصومين لا يعصون الله .[2]

لكن ومع هذا فقد ثبت في القرآن ما يوهم أن الأنبياء عليهم السّلام يذنبون ويعصون ، من ذلك قوله تعالى:﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[3] و قوله تعالى:﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾[4] وقوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾[5] وكقصة داود و سليمان عليهما السّلام . . .

يجيب رشيد رضا عن هذا الإشكال بأن العصمة في معناها العام هو:" نزاهة الأنبياء ، وبعدهم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التي بعثوا لتزكية الناس منها لئلا يكونوا قدوة مفسدين للأخلاق والآداب ، وحجة للسّفهاء على انتهاك حرمات الشرائع ، وليس معناها أنهم آلهة مترهون عن جميع ما يقتضيه الضعف البشري من التقصير في القيام بحقوق الله تعالى على الوجه الأكمل ، ومن الخطأ في الاجتهاد ببعض المصالح و المنافع ودرء المضار"[6]، أي أن الأنبياء عليهم السّلام معصومون من ارتكاب الذنوب كبيرها وصغيرها وكذلك من ارتكاب الفواحش ، وليسوا معصومين مما هو دون ذلك ، وهو الخطأ و النسيان ، وهو ما سيكون حديثنا الآتي:

---

[1] - يذهب رشيد رضا إلى أن للأنبياء وظائف خمسة هي : 1/ بيان ما يجب اعتقاده في خالق الكون ومقدره ومدبره 2/ بيان ما يجب لهذا الإله العظيم 3/ بيان ما يجب اعتقاده في الدار الآخرة والحياة في النشأة الثانية 4/ تهذيب الأخلاق وحملها على الأعمال الصالحة 5/ بيان حدود العقوبات وأحكام المعاملات .راجع مجلة المنار ، مج 4 ، ج 5 ، ص 615.

[2] - المصدر نفسه ، ص 47.

[3] - سورة الفتح الآية 2.

[4] - سورة محمد ، الآية 19.

[5] - سورة طه ، الآية 121.

[6] - رشيد رضا ، مصدر سابق ، مج 4 ، ج 2 ، ص 18.

الفرع الثاني : إثبات العصمة الخاصة .

انطلاقا من النتيجة السابقة راح رشيد رضا يثبت عصمة الأنبياء عليهم السّلام ، باعتماده على منهج الاستدلال المقارن ، فكان مما وصل إليه ، أن كتب العهدين القديم والجديد – التوراة والإنجيل – لا ترمي جميع الأنبياء بالذنوب ، فضلا عن المعاصي التي هي أشدّ من الذنوب[1] ، فيحي عليه السلام، أو يوحنا المعمدان كما تسميه كتب العهدين ، لم يوصم بخطيئة قط ، بل شهدت الأناجيل بأنه كان أعظم من المسيح في عصمته، وهو ما يثبته إنجيل لوقا يقوله : [إنه يكون عظيما أمام الرب ، وخمرا ومسكرا لا يشرب ، ومن بطن أمه يمتلئ بروح القدس] [2] وكذلك وصفه المسيح عيسى عليه السلام بقوله: [الحق أقول لكم إنه لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان][3] وإلى جانب يحي عليه السلام، نجد كذلك أن العهدين القديم والجديد – خاصة الأخير – لم يوصم أبوي يحي عليه السلام، وهما "زكرياء" وزوجته "إليزابات" عليهما السّلام ، بأية خطيئة ، كما ورد ذلك في إنجيل لوقا :[وكان كلاهما بارين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه][4]

إن سبب اعتماد رشيد رضا ذكر كل هذه الشواهد ، هو لغرض تفنيد شيء واحد كنا ذكرناه سابقا ، وهو أنه ليس المسيح عيسى بن مريم وحده المعصوم من الذنوب الخطايا ، والمستحق لأن يكون المخلص ،بل إنه رسول كباقي الرّسل يشترك معهم فيما يشتركون به من أوجه العصمة ، وبالتالي فلا وجه يبرر النصارى من اتخاذه ربا مخلصا أو إنسانا فاديا ، ولكن مع هذا فإن رشيد رضا يتطرق إلى مسألة تخص جانبا من جوانب عصمة المسيح عليه السلام، التي انفرد بها من دون سائر المرسلين وهي : عصمته من مسّ الشيطان له ولأمّه عند ولادته من دون سائر البشر.

منطلق هذه المسألة هو حديث صحيح أورده البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺقال : ﴿كُلُّ بني آدَمَ يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ إلاَّ مَرْيَمَ وَابْنَهَا ﴾[5] فقد أورد رشيد رضا تأويلين لهذا الحديث أولهما هو للمفسر البيضاوي ، حيث فسر المسّ بالطمع في الغواية ، والثاني وهو لمحمد عبده الذي قال :" إذا صح الحديث فهو من قبيل التمثيل لا الغواية"[6] ، وقد بين رشيد رضا أن تفسير البيضاوي لهذا الحديث قد استغله المسيحيون في القول : "هذا مما يدل على أن

---

[1]- رشيد رضا ، الوحي المحمدي ، ص 51.
[2]- إنجيل لوقا ، إصحاح 1 ، فقرة 16، ط1 ، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ، 2003 ، ص 10.
[3]- إنجيل لوقا ، إصحاح 7، فقرة 29.
[4]- لوقا ، إصحاح 1 ، فقرة 6 ، ص 49.
[5]- رواه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى واذكر في الكتاب مريم ، ج4،ص138 ، وكتاب تفسير القرآن ، باب قوله الله تعالى ﴿وإني أعيذها بك وذريتها﴾ ، ج5،ص166 ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام ،ج7،ص96.
[6]- تفسير المنار ، ج 3 ص 289.

عيسى عليه السلام وأمه أفضل من النبي ﷺ، وأنه أفضل البشر على الإطلاق ، وقد كان جواب رشيد رضا على هذه الشبهة من وجهين :

- الوجه الأول ويتمثل في أن الحديث الوارد في هذه المسألة هو حديث آحاد، فهو من الأخبار الظنية، وموضوعه عالم الغيب،والإيمان بالغيب من قسم العقائد، و هي لا يؤخذ فيها بالظن. [1]
- الوجه الثاني ويتمثل في أن في الإنجيل نفسه نصوصا تفيد بأن الشّيطان قد حاول إغواء المسيح عليه السلام ، ففي إنجيل لوقا أن المسيح [رجع من الأردن ممتلئا من الرّوح القدس ، وكان يقتاد بالرّوح في البرية أربعين يوما يجرّب من إبليس ، ولم يأكل شيئا في تلك الأيام ولما تمت جاع أخيرا وقال له إبليس إن كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزا ، فأجابه يسوع قائلا مكتوب بأن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلمة من الله ، ثم أصعده إبليس إلى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان ، وقال له إبليس، لك أعطي هذا السّلطان كله ومجدهن لأنه إليّ قد دفع أنا أعطيه لمن أريد ، فإن سجدت أمامي يكون لك الجميع ، فأجاب يسوع وقال : اذهب يا شيطان إنه مكتوب للرّب إلهك تسجد ، وإياه وحده تعبد ثم جاء به إلى أورشليم ، وأقامه على جناح الهيكل ، وقال له : إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل لأنه مكتوب أن يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك ، وأنهم على أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك ، فأجاب يسوع وقال له ، إنه قيل لا تجرّب الرب إلهك][2] ،ومن خلال هذا النص يذهب رشيد رضا إلى أن إبليسا كان يوسوس للمسيح عليه السلام كما يوسوس لكل البشر .. وأن المسيح لم يكن يطيعه فيما يأمره به، وبهذا فلا وجه لاحتجاج النصارى بحديث أبي هريرة السّالف الذكر على أن المسيح هو أفضل الأنبياء على الإطلاق. [3]

ونجد كذلك إلى جانب هذه المسألة ، مسألة أخرى اهتم رشيد رضا ببياها كثيرا ، وهي مسالة جواز السّهو والنسيان من الرّسول ﷺ، وموقعها من العصمة ككل ، ومن غير شك فإن اهتمام رشيد رضا بهذه المسألة له علاقة بالمستشرقين وشبهاتهم حول رسالة محمد ﷺ.

لقد ناقش رشيد رضا هذه المسألة مطولا عند قوله تعالى ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ

---

[1]- المصدر نفسه ، ص 290.
[2]- لوقا ، إصحاح 4 ، فقرة 2 ، ص 53.
[3]- رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص 290.

الظَّالِمِينَ ﴾[1] فالآية تقر بأن النسيان من الرسول ﷺ مصدره الشيطان ، ومن جهة أخرى تذهب آية سورة النحل إلى أنه ليس للشيطان أية قدرة على إغواء عباد الله المؤمنين فما بالك بالأنبياء وذلك عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[2] ، ومن هنا وعند الإجابة على هذا الإشكال يبين رشيد رضا أن إنساء الشيطان بعض الأمور للإنسان ، ليس من قبيل التصرف والسّلطان ، وإلا لم يقع إلا لأوليائه المشركين[3]، أي أن الشّيطان له أن يوسوس للنبي كيف شاء ،لكن الله تعالى بقدرته يعصم الرّسول من إجابة ذلك الشّيطان ، فينتفي القول بالسلطان عليه .

ويستدرك رشيد رضا هذه المسألة بمسألة أخرى ، وهي أن النسيان من الأنبياء بغير وسوسة من الشيطان من الأمور الجائزة التي أجمعت الأمة عليه ، وأثبته القرآن الكريم في عدة آيات ، كقوله تعالى حكاية عن النبي موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾[4] ، فالأنبياء غير معصومين من النسيان إلا في حالة واحدة ، هو نسيانهم أمور التشريع أو التبليغ ، فإنهم معصومون منه كما سبق ذكره ، وقد فصّل رشيد رضا هذه المسألة بأقوال للعلماء ليس لنا أن نخوض فيها ، لأننا ذكرنا زبدة رأيه في قضية عصمة الرّسل عليهم السّلام ، وهي أهم صفة من صفاتهم ، وسننتقل الآن إلى ذكر بعض الصفات الأخرى لهم ، وهي :

1- سورة الأنعام ، الآية 68.
2- سورة النحل ، الآية 100.
3- تفسير المنار ، ج 7 ، ص 508.
4- سورة الكهف ، الآية 73.

المطلب الثاني : إثبات الصفات الأخرى.

لا يمكننا أن نزعم بأن رشيد رضا قد خصّص مباحث منفردة لمناقشة الصفات التي يجب توفرها في الأنبياء ولا أنها قد كانت أصلا محل اهتمام لديه ، بل إننا نؤكد أننا استخلصنا هذه الصفات بعد استقراء شامل لمعظم إنتاجه الفكري وسنذكرها هنا كآخر مسائل النبوة التي احتواها فكره ، وهذه الصفات هي :

الفرع الأول : صفة العلم.

لم يتفق المتكلمون على أن العلم صفة من صفات الأنبياء عليهم السّلام ، إذ لم نجد هذه الصفة متداولة في مبحث النبوة في الكتب الكلامية ، كما أننا لم نجد عند رشيد رضا كلاما صريحا بأن العلم من الصفات اللازمة للرّسول أو النبي ، لكن هذا لم يمنعه من الكلام عن طبيعة العلم الذي يأتي به هؤلاء الرسل ، و أكثره الوحي.

ولئن كنا رأينا في المبحث الأول من هذا الفصل أن رشيد رضا يقسّم الغيب إلى حقيقي وإضافي : الأول وهو من اختصاص الله تعالى و ينفرد به لوحده ، أما الثاني فهو الذي يعلمه بعض المخلوقات دون البعض الآخر[1] ، فإن علم الأنبياء يندرج ضمن هذا النّوع الثاني من الغيب ، فما يظهر الله تعالى عليه الرّسل هو من علم الغيب الإضافي لا الحقيقي ، الذي لم يؤت أحد من خلقه الاستعداد لعلمه ، كما أن إظهاره تعالى إياهم على شيء خاص من هذا الغيب لا يجعل ذلك داخلا في علومهم الكسبية ، فهو وحي ، والوحي ضرب من العلم الضروري يجده النبي في نفسه عندما يظهره الله تعالى عليه ، فإذا حبس عنه ، لم يكن له قدرة ولا وسيلة كسبية إليه كما يعلم مما ورد في فترات الوحي.[2]

يقودنا هذا الكلام إلى فهم أن علم الأنبياء عليهم السّلام يمتاز بميزتين مهمتين هما : الضرورة وعدم الاكتساب ، وهما وجهان لعملة واحدة ، أي أنّ أحدهما يستلزم الآخر ، وهو ما يلخصه قول رشيد رضا الآتي : " إن الرّسول بشر آتاه الله علما ضروريا غير مكتسب لهداية الخلق إلى ما به تتزكّى أنفسهم ، وتتهذّب أخلاقهم ، وتصلح به أحوالهم الشّخصية والاجتماعية".[3]

ولئن كنا قرّرنا أن رشيد رضا يثبت للأنبياء صفة العلم ، وفق الخصائص التي ذكرناها ، فإنه يرى من جهة أخرى أن الرّسول محمدا ﷺ يمتاز بصفة أخرى لم يمتز بها نبي من قبله ، وهي

---

[1]- تفسير المنار، ج7 ، ص 425.
[2]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
[3]- المصدر نفسه ، ج8 ، ص 275.

صفة سابقة لصفة العلم ، مناقضة لها تماما ، دالـــة دلالة كبرى على نبوته ورسالته ، وهذه الصفة هي صفة الأمية .

فهذه الصفة حتى وإن كـــانت صفة نقص عند البشـــر فهي عند الرسول ﷺصفة كمال من وجهها الإعجازي :"فلم يُنْقَل أن الله تعالى بعث نبيا أميا غير نبينا محمدﷺ ، فهو وصف خاص لا يشارك محمدﷺ فيه أحد من النبيين ، والأمية آية من أكبر آيات نبوته ، فإنه جاء بعد النبوة بأعلى العلوم النافعة ، وهي ما يصلح ما فسد من عقائد البشر وأخلاقهم وآدابهم وأعمالهم وأحكـــامهم وعمل بها ، فكان لها من التأثير في العلم ما لم يكن ، ولن يكون لغيره من خلق الله.[1]

الفرع الثاني: صفة الذكورة.

وهي آخر الصفات التي تكلم عنها رشيد رضا ، والتي يمكننا إيرادها في هذا المبحث الأخير من الرسالة، وعلى عكس الأولى فإننا نجد أن هذه الصفة هي مما قررها المتكلمون ، وأجمعوا عليها كلهم ، ونحن بدورنا قبل أن نتحدث عن رأي رشيد رضا في هذه الصفة ، سنتحدث عن رأيه في صفة سابقة لصفة الذكورة ، وهي صفة البشرية ، فرشيد رضا يقرر أن الرّسل : " رجـــال مـــن البشر في جميع الشؤون البشرية الفطرية ، ليسوا أربابا ولا شركاء لربّ العباد في علم الغيب ، ولا في تصرفه في تدبير أمر الخلق ، فهم لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا إيمـــانا ولا رشـــدا ، بل هم عبيد لله كسائر عباده لكنه أكرمهم بسلامة الفطرة واختصّهم بعلم أوحـــاه إليهم وأمرهم أن يبلغوه لأقوامهم ليهتدي به المستعد منهم للهداية وتحق الكلمة على الجاحدين المعاندين".[2]

ولماذا اختار الله الرّسل بشرا ؟ لأن :" كون الرّسول إلى البشر بشرا مثلهم يفهمـــون أقوالـــه ويتأسّون بأفعاله هو المعقول الذي تقتضيه الفطرة وطبيعة الاجتماع"[3] ، على خلاف ما لو كان ملكا لما آمن الناس به لعدم استعدادهم لرؤيته والتّلقي عنه في الدنيا.

لكن هذا القول لم يمنع رشيد رضا من الذهاب إلى أفضلية الملائكة على الرسل ، وهـــو مـــذهب المعتزلة ، فقد قال بعدما استعرض آراء العلماء في هذه المسألة :" والحق أن ظواهر القرآن الـــواردة في الملائكة والرّســـل تدل على أن الملائكة أفضل من البشر،ولعله لولا ذلك لما قـــال تعالى في بني آدم:﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[4] ، بل لقال على جميع من خلقنا ، ومقتضى ذلك

---

[1]- مصدر سابق ، ج 9 ، ص 225.
[2]- نفسه ، ج 8 ، ص 282.
[3]- نفسه ، ص 279.
[4] - سورة الإسراء ، الآية 70.

أن خواص الملائكة كالمقربين أفضل من خواص الرّسل ، ولا يتحتم أن يقتضي كون عوام الملائكة أفضل من خواص البشر ، وقد ينافيه كون بعض الملائكة مسخرين لمصالح البشر".[1]

بقي لنا أن نشير إلى نقطة أخرى متعلقة بصفة الذكورة من صفات الأنبياء تطرق إليها رشيد رضا وهي:

هل تجوز النبوة في النساء ؟

وقبل أن نستعرض رأي رشيد رضا فيها نود أن نذكر نصا مهما يؤرّخ لهذه المسألة ، وبدايات ظهورها ، وهذا النصّ هو لابن حزم حيث يقول :" هذا فصل - يعني نبوة النسّاء – لا نعلم حدث التنازع العظيم فيه إلاّ عندنا بقرطبة في زماننا ، فإن طائفة ذهبت إلى إبطال كون النبوة في النّساء جملة وبدّعت من قال ذلك وذهبت طائفة إلى القول بأنه قد كانت في النّساء نبوة ، وذهبت طائفة إلى التوقف في ذلك "[2] ، وقد ذهب ابن حزم نفسه في هذه المسألة إلى القول الثاني وهو : أنه قد كانت في النّساء نبوة ، وأثبت النبوة في بعض النّساء : كامرأة إبراهيم عليهما السّلام صارة ، ومريم ابنة عمران ، وأم موسى وآسية زوجة فرعون ...وقد اعتمد في هذا الرأي على منهجه الظاهري في إثبات الدلالة اللغوية لكلمة النبوة ، وأنها لا تعني الرسالة.[3]

ونودّ أن نشير هنا إلى أن رشيد رضا لم يتناول موضوع النبوة من زاويته المباشرة أي أنه لم ينطلق في هذه المسألة من سؤال: هل كانت هناك نبوة في النساء ؟ و إنما وجدناه يذكر هذه القضية في معرض حديثه عن الكرامات ، فاستوقفته قصة مريم وأم موسى عليهما السّلام ، فما هو رأيه فيهما ؟

لقد عرفنا فيما سبق عند الحديث عن الكرامات في باب المعجزات ، أن رشيد رضا ينكر كرامات الأولياء إنكارا ضمنيا لا صريحا ، وذلك من خلال الشّروط المقيدة التي وضعها لقبول كرامة ما ، بدءًا بعدم مخالفتها لسنّة من سنن الكون إلى استحالة تأويلها بأيّ وجه من وجوه التأويل ، وهو ما يعني بداهة أنه إن لم يكن أمر مريم عليها السّلام – خاصة تكليم الملائكة لها وتبشيرها – وأمر أم موسى عليها السّلام – الإلهام الذي ألهمها الله إياها برمي موسى في البحر – كرامة لهما فهو دليل على نبوتهما ، ولكن رشيد رضا لم يقطع بصحة هذا الفرض ولا أقر به ، وبمعنى آخر فان رشيدا رضا لم يؤكّد أن مريم وأم موسى عليهما السّلام نبيتان ، وهو ما يعني بالنسبة لنا أنه يرى جواز كون النبوة في النساء ، يقول رشيد رضا : " إن قصارى ما يحتج به من

---

[1] - تفسير المنار ، ج7 ، ص 429.
[2] - ابن حزم ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج3 ، ص 186.
[3] - المرجع نفسه ، ص 187.

الآيات الكريمة أن الله أكرم أم موسى بالإلهام الصحيح وأكرم السّيدة مريم بكلام الملائكة. وليس في شيء من هذين الأمرين مخالفة لسنن الله تعالى في الخلق ، وأن لله تعالى في خلقه آيات لا تنطبق على سنن الكون المعروفة كحبل مريم من غير اقتران برجل ، وكالضرب على آذان أهل الكهف سنين عددا، فأما الإلهام فانه لا يزال يقع في كل عصر لأصحاب النفوس العالية ، فهو كرامة اختصوا بها من دون سائر الناس ، وأما كلام الملائكة للناس فلم يثبت لغير الأنبياء بوجه قطعي إلا لمريم ، فان كانت غير نبية فهو كرامة قطعية لها".[1]

هذا أقصى ما يمكن قوله في صفات الأنبياء ، ورأي رشيد رضا فيها ، وقد قلنا سابقا إنه لم يخصص لها مباحث مستقلة – كما دأب على فعل ذلك في كثير من مسائل العقيدة – وربما ذكرها في بعض المصنفات التي لم نستطع الوصول إليها ، لهذا نضع احتمالا لأن يكون قد تكلم في بعض الصفات الأخرى ولو بإيجاز.

وأخيرا بقي لنا أن نورد مسألة أردنا أن تكون آخر ما نتحدث عنه في فكر رشيد رضا في النبوة ، يبدو أن لرشيد رضا فيها رأيا مختلفا أو رأيا جديدا، وقد أردنا أن نلحقها بمبحث صفات الأنبياء لقربها منها، وهذه المسألة هي مسألة الفرق بين النبوة و الرسالة.

الفرع الثالث: النبوة و الرسالة.

إن مجرد القيام بمسح سريع لكتب العقائد في تراثنا الإسلامي، يتبن لنا وجود إجماع لدى علماء العقيدة المسلمين أن بين النبوة والرّسالة فرقا ، وأن النبي غير الرّسول، سواء من ناحية الدلالة لهما، أو من ناحية طبيعة الوظيفة لكل منهما.

و لا يختلف رأي رشيد رضا في هذه المسألة عن رأي جمهور العلماء ، فهو يتابعهم في هذا إتباعا كاملا فنجده يعرف النبي لغويا :" أنه مشتق من مادة النبأ وهو الخبر المهمّ العظيم الشّأن ، واصطلاحا بأن النّبي هو من أوحى الله إليه و أنبأه بما لم يكن يعلم بكسبه من خبر أو حكم، يعلم به علما ضروريا أنه من الله عز وجل".[2]

ويقارن رشيد رضا كعادته في كل مسائل العقيدة التي تخص النبوة خاصة وضع مسألة النبوة عند المسلمين والمسيحيين فيورد تعريف النصارى للنبوة بقوله: " جاء في قاموس الكتاب المقدس في تفسير نبي، أنبياء، نبوة، ما نصه :" النبوة لفظة تفيد معنى الإخباري عن الله وعن الأمور الدينية،

---

[1]- مجلة المنار ، مج 2 ، ج 31 ، ص 488.
[2]- تفسير المنار ، ج 9 ، ص 225.

ولا سيما عمّا سيحدث فيما بعد، وسمّي هارون نبيا لأنه كان المخبر والمتكلم عن موسى نظرا لفصاحته، أما أنبياء العهد القديم فكانوا ينادون بالشريعة الموسوية وينبئون بمجيء المسيح".[1]

وقد انتقد رشيد رضا مفهوم النبوة عند النصارى من ثلاثة وجوه هي:

1/ أن أكثر أنبيـــاء بني إسرائيل كـــانوا يتخرجون من مدارس خاصة بهم يتعلمون فيها تفسير شريعتهم التوراة، والموسيقى والشعر، أي أن النبوة بهذا كانت صناعة، تعلم موادها في المدارس.

2/ أن أشهر أنواع نبواتهم: الأحلام والرّؤى المنامية والتخيلات المبهمة، وكلها تقع لغيرهم، والرّؤى صور حسّية في الخيال تذهب الآراء والأفكار في تعبيرها مذاهب شتى.

3/ أن نبوة الإخبار عن الأمور المستقبلية، كانت أحيانا كثيرة بدون تمييز أزمنتها ولا حوادثها، فكان بعضها يختلط ببعض، وذكر أمثلة على ذلك.[2]

فجملة هذه الانتقادات المذكورة هي بلا شك تحط من قيمة النبوة ومن قدر الأنبياء ، ولا تضعهم في موضع مرتفع في القوم، فما بالك إذا ما قورنت بنبوة خاتم الأنبياء، وهو ما فعله رشيد رضا.[3]

وأما الرسالة فيذهب رشيد رضا في تعريفها بقوله: " الرّسول نبي أمره الله تعالى بتبليغ شرع، ودعوة دين وبإقامته بالعمل، ولا يشترط في الوحي إليه أن يكون كتابا يقرأ أو ينشر، ولا شرعا جديدا يعمل به ويحكم بين الناس، بل قد يكون تابعا لشرع غيره كله كالرّسل من بني إسرائيل كانوا متبعين لشريعة التوراة".[4]

ومن دون شك فان الخلاصة التي يتوصل إليها من تعريف النبوة والرّسالة أن الرّسالة أخص من النبوة أو بمعنى آخر أن النبوة محتواة في الرّسالة، وأن الرّسول من حيث الوظيفة أكبر درجة من النبي، وهو ما قرره المسلمون بإجماع، وامتلأت به كتب العقائد الإسلامية، وهو ما قرره رشيد رضا بدوره حيث يقول في نهاية المطاف: " وجملة القول أن الرّسول أخص في عرف شرعنا من النبي، فكل رسول نبي ولا عكس، وإذا أطلق الرّسول بالمعنى الذي يعم رسل الملائكة كان من هذا الوجه أعم من النبي، لأن الله اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ولم يجعل فيهم أنبياء، فنبينا ﷺ نبي رسول، وجبريل عليه السلام رسول غير نبي، وآدم عليه السلام نبي غير رسول، كأكثر أنبياء بني

---

[1]- رشيد رضا ، الوحي المحمدي ، ص 61.
[2]- المصدر نفسه ، ص 63.
[3]- المصدر نفسه ، ص 65.
[4]- تفسير المنار ، ج 9 ، ص 225.

إسرائيل، وهذا على قول المحققين في نص حديث الشفاعة في الصحيحين وغيرهما الناطق بأن نوحا أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض".[1]

هذا ما ورد عن صفتي النبوة والرّسالة والفرق بينهما عند رشيد رضا، وفي الحقيقة فإننا أوردنا هذه المسألة في منظور رشيد رضا لغرض ثان، إضافة إلى غرض عدّهما من صفات الأنبياء، يبدو أن له فيها قولا يختلف عمّا ألفنا سماعه وقراءته، ويتعلق الأمر بمسألة عدد الرّسل الواجب الإيمان بهم تفصيلا.

فمن أصول العقائد الإسلامية كما ذكر رشيد أنه يجب الإيمان بأن الله تعالى أرسل في كل الأمم رسلا منهم من قصّهم علينا ومنهم من لم يقصصهم، ويجب علينا الإيمان بمن ذكر منهم في القرآن إيمانا تفصيليا، أي يجب معرفتهم بأسمائهم، وأيّ إنكار لرسالة أحدهم يعد كفرا.[2]

لكن وخلافا لما هو شائع عند جل العلماء المسلمين، من أن عدد الرّسل المذكورين في القرآن، والذين يجب الإيمان بهم تفصيلا، هم خمسة وعشرون رسولا، فإن رشيد رضا يذهب إلى أن عددهم أقل من ذلك، أي أن القرآن صرح بوجود ثلاثة وعشرين رسولا ونبيا فقط ، وهو المجمع على الإيمان بهم، يقول رشيد رضا :" ذكروا في بعض كتب العقائد وغيرها أن الأنبياء المرسلين الذين ذكروا في القرآن ويجب الإيمان بهم تفصيلا خمسة وعشرون، وهم الثمانية عشر الذين ذكرت أسماؤهم في هذه الآيات(*) ، والسّبعة الآخرون: آدم أبو البشر وإدريس، ولوط، وأنبياء العرب هود وصالح وشعيب وخاتم الجميع محمّد عليه وعليهم الصلاة والسّلام، وزاد بعضهم ذو الكفل لذكره مع الأنبياء في سورة"ص"، ولكن اختلف في نبوته لعدم التصريح بها، وإنما وصف مع من ذكر معهم بأنهم من الأخيار"[3] ، فمن هما اللّذان أخرجهما رشيد رضا من دائرة النبوة و الرّسالة؟

إن هذين النبيين الخارجين من دائرة النبوة والرّسالة عند رشيد رضا هما: آدم و إدريس عليهما السّلام إذ لم يوجد في القرآن الكريم ما يدل على نبوتهما بل إن ما هو موجود من نصوص في القرآن – حسب رشيد رضا – يدل على أن نوحا عليه السّلام هو أول نبي مرسل أوحى الله إليه رسالته و شرعه[4]،قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [5]،وقال:

---

[1]- مصدر سابق ، ص 226.
[2]- نفسه ، ج 7 ، ص 601.
*- يقصد قوله تعالى :﴿ وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ، ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا نوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكرياء ويحي وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ﴾ ، سورة الأنعام ، الآية 86.
[3]- تفسير المنار ، ج 7 ، ص 602.
[4]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
[5]- النساء ، الآية 161.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾[1] وقد استعان رشيد رضا كذلك في استدلاله على رأيه هذا بحديث الشفاعة المشهور الذي فيه: ﴿يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَهْتَمُّونَ لِذَلِكَ فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا فَأَرَاحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ لَهُمْ آدَمُ لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ الَّذِي أَصَابَهُ فَيَسْتَحِي رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، فَيَأْتُونَ نُوحًا...﴾[2]

إن هذه الأدلة الثلاث التي أوردناها، هي عمدة ما استعان به رشيد رضا على إثبات رأيه ، فقد راح يذكر أقوال العلماء في تفسيرهم للآية الأولى، ولأحاديث الشفاعة، التي حاولوا من خلالها إثبات نبوة آدم، واصفا إياها بأنها مضطربة، حيث لم يستطيعوا إثبات نص صريح بنبوة آدم عليه السّلام، وكذلك اعتماده على أقوال بعض العلماء في أن إدريس عليه السّلام، إنما هو النبي إلياس عليه السلام، وهو قول ابن مسعود وابن عباس من الصحابة رضي الله عنهما[3]، ليصل في الأخير إلى النتيجة التي أقرها بقوله:" فجملة هذه النقول عن كبار المفسرين والمحدثين من المتكلمين والفقهاء أن آدم مختلف في رسالته، وأن إدريس مختلف في رسالته وفي كونه هو إلياس المذكور في آيات سورة الأنعام، فيكون عدد الرّسل المجمع على وجوب الإيمان برسالتهم – لأن نص القرآن فيها قطعي – ثلاثة وعشرون رسولا فقط ، وأما الأحاديث فليس فيها نص قطعي الرواية والدلالة على رسالة آدم".[4]

هذا مجمل ما أردنا ذكره في هذا المبحث الأخير من هذا الفصل التطبيقي حول محمد رشيد رضا في إثبات بعض القضايا المهمّة التي تخص مبحث النبوة، وإلى هنا نكون قد أوردنا كل ما أردنا تبيينه حول فكر رشيد رضا العقدي، وسنحاول ذكر أهم النتائج التي توصلنا إليها.

---

[1]- سورة الحديد ، الآية 25.

[2]- رواه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، ج7،ص303، وكتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى لما خالقت بيدي ، ج48،ص172، ومسلم ، كتاب الإيمان ،باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ، ج1،ص123 ، الترمذي ، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ، باب ما جاء في الشفاعة ، ج 4 ، ص622 ، وأحمد ، كتاب باقي مسند المكثرين ، باب باقي المسند السابق ، رقم 9250،و11710.

[3]- تفسير المنار ، ج 7 ، ص 203-205.

[4]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

الخاتمة :

والآن وقد وصلت إلى ختام هذا البحث أقول :

لقد كان محمد رشيد رضا من أبرز المصلحين ورجال الفكر الذين عرفتهم النهضة العربية الإسلامية الحديثة،يبرز ذلك جليا في جوانب مختلفة من تراثه الذي شمل ميادين السياسة والاجتماع والثقافة ...

لقد نذر رشيد رضا حياته كلها للإصلاح، وقد كان هدفه في هذا الخروج بالمجتمع الإسلامي من حالة الجهل والتخلف إلى حالة العلم والتقدم ، من حالة الركود إلى حالة اليقظة ومسايرة الرّكب الحضاري ، ومن الطبيعي أن يحتل الإصلاح الديني عنده – وهو يحسب من فئة المصلحين الدّينيين – المساحة الكبرى في هذا المشروع الإصلاحي ، ذلك أنه لا حياة للمجتمع الإسلامي والعربي على وجه الخصوص ، إلا بالإسلام ، فهو الذي يمثل هويته ، ويحقّق وجوده الحضاري ، ويحفظ عزّته وكرامته فردا ومجتمعا .

لقد رأى رشيد رضا – كغيره من المفكرين المسلمين – أن المسلم قد فقد فاعليّته الحضارية ، وغاب عنه شعور المسؤولية بالهدف المنوط به ، وهو تحقيق الاستخلاف والتّمكين لدين الله ، بسبب غياب التصوّر العقدي الصّحيح الذي يمثل القوة الدّافعة التي لا تنضب ، والخزّان الذي لا ينفذ ، والمحرّك الذي يوجه المسلم بكل قوته لتحقيق ما أمر به شرعا ... لقد سيطرت على البيئة الإسلامية ولمدة طويلة أفكار عقدية كان لها دور مباشر في وصول المسلم إلى تلك الحالة المزرية التي استمرت إلى زمن رشيد رضا ، وبعد زمنه أيضا ، وكان لا بد من تغيير هذه الأفكار الميّتة واستبدالها بأفكار حيّة ، لقد نظر رشيد رضا إلى العقيدة الإسلامية فوجدها مستقرة في علم كلام، جل ما فيه خلافات ونقاشات طويلة حول قضايا أصبحت تمثل عوائق ومشكلات أمام المسلم المعاصر، لا يستطيع المضيّ نحو التقدّم والرقيّ ما لم يتجاوزها ، فحاول أن يغيّر هذا الوضع المتردّي إلى وضع أحسن منه، فكانت له جهود واضحة في إصلاح العقيدة الإسلامية وإصلاح علم الكلام، كانت محلا لدراستي هذه .

فقد بيّنت في المبحث الأول من الفصل الأوّل ، الذي جعلته خاصا بسيرة محمد رشيد رضا ، جملة العوامل والمؤثرات التي جعلت منه شخصية بارزة في الإصلاح الإسلامي ، وذلك بأن تطرّقت إلى طبيعة تكوينه المركزّ ، وتحصيله العلمي المزدوج (التراثي ، والعصري) وكذلك حاولت أن

أبيّن الدّور الكبير الذي لعبه كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في صقل شخصيته ، وتحديد مساره الفكري الإصلاحي ، ثم عرجت بعد ذلك إلى تناول الخطوط العريضة لمنهجه الفكري ، وذلك بأن تناولت آراءه في مجالات شتى (في السّياسة ،والاجتماع ، والتّربية والتعليم ...) والشيء نفسه فعلته في معرفة منهجه الإصلاحي ، وذلك بأن تطرقت إلى الحديث عن الوسائل المتنوعة التي استعان بها في تحقيق الإصلاح الذي سعى إليه ، كالمدارس والجمعيات والتآليف والمشاركات السّياسية ..

ثم خصّصت المبحث الثاني للحديث عن منطلقات التجديد في علم العقيدة الإسلامية عند محمد رشيد رضا ، فابتدأت بمعرفة موقفه من بعض القضايا العقدية الكلامية القديمة (في التوحيد والصفات والقدر) وقبل هذا تطرقت إلى موقفه من الفرق الإسلامية ، وحتمية افتراق الأمة الإسلامية ، وركّزت في نهاية حديثي في هذا الموضوع على استخلاص المذهب العقدي الصريح لرشيد رضا ، وذلك بعد مناقشتي لآراء المفكرين المعاصرين في هذه القضية ، لأعرج بعدها إلى موقفه من تجديد علم العقيدة الإسلامية ، وبيّنت جملة المقترحات المنهجية والموضوعية التي نادى بها، ودعا إلى إدراجها في علم الكلام الجديد ، كطرق تدريس هذا العلم ، وجملة المواضيع التي ينبغي التركيز عليها ، وكذا تجديد منهج الاستدلال على قضايا العقيدة الإسلامية .

وفي الفصل الثاني الذي عنونته : الجهود التجديدية في مسألة النبوة عند رشيد رضا ، فقد حاولت فيه معرفة الأسباب التي جعلت رشيد رضا يركز على موضوع النبوة ، وذلك بأن تطرقت في المبحث الأول من هذا الفصل إلى الحديث عن النبوة بشكل عام ، وبينت مكانها وموقعها في الأديان الثلاثة الكبرى : اليهودية والمسيحية والإسلام ، واستخلصت أهمّ الفوارق والمميّزات التي تتميز بها النبوة بين هذه الأديان الثلاثة ، ثم خصّصت الكلام عن النبوة حين تناولته من منظار رشيد رضا ، حيث تطرقت إلى الحديث عن جملة الأسباب والدّوافع الدّاخلية (كنظرة المتصوفة ، والحركة البهائية والقاديانية) ، والخارجية (كنظرة المسيحيين الغربيين ، وكذا المستشرقين) التي اعترضت عقيدة النبوة ، وطريقة تعامل رشيد رضا معها منهجا وموضوعا .

ثم انتقلت في المبحث الثاني إلى الحديث عن المصادر التي اعتمد عليها رشيد رضا في الاستدلال على قضايا النبوة ، وقد قسّمتها إلى أقسام ثلاث : مصادر إسلامية ، ومصادر يهودية ومسيحية ، ومصادر علمية ، وحاولت تناول هذا المبحث بربطه بالموضوع العام للبحث ، وذلك بالتركيز

على تبيين أوجه التّجديد في استعمال هذه المصادر وتقييمها ، قبل الحديث عنها بالتفصيل في الفصل الثالث باستعمال الشّواهد والأدلة .

والفصل الثالث الذي جعلته فصلا تطبيقيا ، وعنونته بمنهج رشيد رضا في إثبات قضايا النبوة ، فقد حاولت فيه إسقاط منهج رشيد رضا التّجديدي الذي استخلصته من تراثه الفكري ، على بعض قضايا النبوة ، وقد جعلتها في ثلاثة مباحث .

تناولت في المبحث الأول منه منهجه في إثبات الوحي مركّزا على تحليل الشّواهد والاستدلالات التي وظّفها في إثبات الوحي المطلق والوحي المحمدي ، ثم عرجت إلى منهجه في الرّد على المفترين على نبوة محمد ﷺ ، واخترت درمنغهام نموذجا من بين نماذج عدة تعامل معها رشيد رضا.

وفي المبحث الثاني تناولت منهجه في إثبات المعجزات ، حاولت أن أعرض فيه بتفصيل رأيه في معجزات الأنبياء ، التي قسّمها إلى معجزات تكوينية وروحانية (هل ينكرها أم لا؟) وذلك من خلال تناولي معجزة انشقاق القمر كنموذج لمعجزة كونية كبيرة ، كان لرشيد رضا فيها رأيا جريئا ، وانتقلت بعدها إلى ذكر موقف بعض أعلام الفكر الإسلامي الحديث من رأي رشيد رضا في المعجزات وناقشتها .

وفي المبحث الأخير الذي هو خاتمة الفصل ، تناولت فيه موقفه من مسألة صفات الأنبياء ، وقد تناولت هذه الصفات في مطلبين ، جعلت الأول منهما خاصا بصفة العصمة ، تناولت جلّه بمنهج مقارن ، نظرا لأنّ رشيد رضا قد عالجه من منظور الأديان السّماوية الثلاثة .

وأما ثانيهما فقد تناولت فيه رأيه من بعض الصّفات الأخرى للأنبياء عليهم السّلام ، كصفة العلم والذكورة ، وصفتا النبوة والرّسالة والفرق بينهما ، خاتما المبحث بمسألة تعداد الرّسل والأنبياء الواجب الإيمان بهم ، وقد كان لرشيد رضا قول متميز فيها .

ويمكنني الآن بعد ذكري لهذه الخلاصة أن أورد أهمّ النتائج التي توصلت إليها في بحثي هذا وهي :

1- لم يكن رشيد رضا كما نظر إليه كثير من المفكّرين المعاصرين ، سلفيا منغلقا ، لا تهمه أمور علم الكلام وقضاياه ، بل على العكس من ذلك تماما ، فقد كان رشيد رضا منتميا إلى تيار سلفيّ عقلي حديث ، له نظرته الخاصّة للإسلام عموما وللعقيدة الإسلامية وعلم الكلام على وجه الخصوص ، وأعماله كلها شاهدة على اهتمامه الجاد بعلم الكلام وبالقضايا الكلامية القديمة والمعاصرة .

2- لقد وقف رشيد رضا موقفا وسطا من علم الكلام القديم ، فلم يرفضه جملة ولا تفصيلا والعكس ، فقد انتقد ما رآه خاطئا فيه ، وترك ما رآه صحيحا ، و لم تكن انتقاداته لعلم الكلام مقتصرة على الآراء الكلامية فقط ، بل تعدّته كذلك إلى المناهج والأساليب التي كان يعتمد عليها المتكلمون ، فلقد رأيناه ينتقد مسائل وآراء كثيرة،كالكلام النّفسي واللّفظي ، والجبر والاختيار ، والحسن والقبح ، وكل القضايا الفلسفية المتعلقة بمسألة التوحيد ، كموقف المعتزلة من الصفات ، وموقف الأشاعرة في الوجود الواجب وتفريعاته ، كما انتقد كذلك مناهج كثيرة كانت أسسا مهمة لعلم الكلام القديم ، كقياس الشّاهد على الغائب ،وأسلوب الالزامات ، ومنهج تقديم العقل على النقل ، وفي المقابل نجده يوظف بعض أساليب المتكلمين القديمة في إثبات قضايا العقيدة الإسلامية المعاصرة ، كأسلوب المناظرة، والأسلوب الجدلي ... وقد استعملها خاصة مع المسيحيين، والمستشرقين ، والبهائيين ، والقاديانيين ...

3- لقد دعا رشيد رضا إلى تجديد علم العقيدة الإسلامية ، وقدم مجموعة من المقترحات في هذا الشأن كمحاولة منه للمساهمة في بناء علم كلام جديد ، يتماشى والمتطلبات المعاصرة للمسلمين، فبالإضافة إلى أنه قد وضع حدّا فاصلا بين علم التوحيد الذي هو علم معرفة العقائد الإسلامية الثابتة في أصولها (القرآن والسنّة) وعلم الكلام الذي هو علم الدّفاع عن العقائد الإسلامية المقررة في أصولها ونصرتها ، وجعل لكل علم فئة من المشتغلين به ، فإنه في المقابل ركّز على تقديم نظرة معاصرة لعلم الكلام الجديد ولوظيفته الحضارية ، فلقد دعا إلى تحرير هذا العلم من نزعة المذهبية والطّائفية ، بدءا برفضه لأحاديث الافتراق التي طال الاعتماد عليها ، ومرورا بالمناداة بالاهتمام بالمسائل والقضايا الحديثة التي تعترض العقيدة الإسلامية وتشكك فيها ، ووصولا إلى إلحاحه بضرورة تغيير طرق الاستدلال القديمة التي لم يعد لها أهمية ، والاعتماد على طرق وأساليب حديثة تعتمد على استغلال العلوم الحديثة ونتائجها في إثبات حقائق الدين عموما والعقيدة الإسلامية خصوصا، وهو ما سماه باختصار : منهج الاستقلال والاستدلال .

4- لقد كان تركيز رشيد رضا منصبا بوضوح على مسألة النبوة كأهم مسألة عقدية ينبغي الاهتمام بها، وتجديد طرحها في العصر الحديث ، فبالإضافة إلى أنها مسألة اعتقادية محورية تتوقف عليها مسائل اعتقادية أخرى كثيرة ، فإنها كذلك قد لاقت هجوما شرسا ، وحملة عنيفة من قبل أطراف عديدة متنوعة ومختلفة في المناهج والأساليب ، وطرق العرض ، وإزاء هذا فقد وجد رشيد رضا نفسه مضطرا للتصدي لهذا الهجوم الشرس ، فحاول أن يرد على كل الشبهات التي اعترضت

مسألة النبوة، بمنهج يختلف – إلى حد كبير– عن منهج علم الكلام القديم ، وهو مـــا رأينـــاه في المسائل الثلاث التي تناولناها.

فقد رأيناه وهو يتناول قضية الوحي ، يستدل في إثباته بمنهج تاريخي اجتماعي ، وآخـــر تحليلـــي نفسي ، مضيفا إليها بعض الحقائق العلمية الطبيعية والكونية التي توصل إليها العلم المعاصر ، دون أن ننسى أهم شيء في هذه المسألة ، وهو إعطاؤها بعدها الاجتماعي ، الذي لم يكن علم الكلام القديم يعيره أيّ اهتمام، وهي أهم ميزة تجديدية وظفتها المدرســـة العقـــلية الـــحديثة (الأفغاني ، وعبده ، ورشيد رضا..)

– ورأيناه كذلك وهو يتناول مسألة المعجزات ، ويطرحها في ثوب جديد لم يسبقه إليه أحد من قبل ،ولا حتى أستاذه محمد عبده ، باستثناء بعض اللّمحات التي أخذها عنه ، فقد فصـــل رشـــيد رضا بشكل واضح بين المعجزات التكوينية ، والرّوحانية (النفسية) ، وجعل معجـــزة القـــرآن الكريم هي المعجزة الوحيدة الدّالة على نبوة محمد ﷺ ، دلالة لا مجال فيها للإنكار ، وجاعلا من المعجزات الكونية — في رأي جريء — شبهة لمنكري الوحي وجاحديه بدل أن تكون حجـــــة لمثبتيه بسبب اشتباهها بالكرامة والحيل والسّحر... إلا إذا أثبتتها المعجزة العلمية الكبرى وهـــي القرآن الكريم .

– ورأيناه أخيرا وهو يتناول مسألة صفات الأنبياء ، معتمدا فيها على منهج الاستدلال المقـــارن ، وهو وإن كان منهجا قديما ، إلا أن نفحات التجديد فيه بارزة الاستعمال عند رشيد رضا ، وذلك من خلال اطّلاعه الواسع على كتب المسيحيين ، وتوظيفها التوظيف الحسن ، للدفاع عن قضـــايا النبوة الخاصة ، كصفة عصمة الأنبياء عليهم السّلام ، وصفة العلم وصفة الذكورة ، وصولا أخيرا إلى مذهب فريد في عدد الأنبياء والرّسل عليهم السّلام ، مخالف لما هو مقرر ومعروف عند معظم المسلمين ، وهو أن عدد الرسل والأنبياء الواجب الإيمان بهم ثلاثة وعشرون رسولا ، لا خمســـة وعشرون .

ولا أقول إنني بهذا قد وقفت على المذهب النهائي لرشيد رضا في العقيدة ، بل العكـــس مـــن ذلك، فما قمت في دراستي هذه إلا بفتح الطريق للبحث أكثر في هذا الجانب من تفكير رشـــيد رضا ، الذي لا يزال فيه كثير من القول والتبيين ، لذلك فإن أهم التوصيات التي يمكننا تقديمها لمن يريد الاشتغال بهذا الجانب من تفكير رشيد رضا هي :

- إن ما لمسته وأنا أتعامل مع موضوع رسالتي هذه ، هو الإهمال الواسع من طرف الباحثين لهذا الجانب المهم من تفكير رشيد رضا ، وهو الجانب العقدي ، فلقد اطلعت على عدد معتبر من المؤلفات والرسائل التي تحدثت عن رشيد رضا ، لكنني لم أعثر على مؤلف خاص ينفرد بالبحث في فكر رشيد رضا العقدي ، وهو ما يدفعني للدعوة إلى الاهتمام بهذا الجانب الذي سيفتح الباب واسعا لفهم قضايا كثيرة تخص النهضة الحديثة بالخصوص ، كما تخص من جانب آخر كشفا واضحا لطريقة تعامل أعلام النهضة الحديثة في العالم الإسلامي للجانب العقدي ، ومكانته في مشاريع النّهضة والإحياء التي دعا إليها هؤلاء ومن بينهم رشيد رضا .

- يظن كثير من الناس أن فكر محمد رشيد رضا محصور في مجلة المنار وتفسير المنار فقط ، وهذه في الحقيقة نظرة قاصرة ، وليست صائبة ، لقد لاحظت وأنا أتناول فكر محمد رشيد رضا العقدي، أن هناك مصادر أخرى مهملة أو غير معروفة ، يمكن أن نجد فيها الشيء الكثير مما تعذر علينا إيجاده في مجلة المنار أو التفسير ، وهو ما يدفعني لتنبيه الباحثين إلى ضرورة أخذه بعين الاعتبار، كمصدر مهم في تفكير محمد رشيد رضا العقدي، إن كتبا مثل : تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ، والحكمة الشّرعية في محاكمة القادرية والرّفاعية ، والرّسالة الموضوعة لجمعية شمس الإسلام في التوحيد ، والحاشية التي علّق فيها على رسالة التوحيد لمحمد عبده ، كلها مصادر مهمة يمكن الاستعانة بها في دراسة فكر محمد رشيد رضا العقدي ، ومقارنتها مقارنة سليمة بفكر أستاذه محمد عبده ، حتى يسهل علينا معرفة الأصيل والدخيل من فكر رشيد رضا.

- وأخيرا وكما رددت مرارا ، فإنني أدعو الباحثين الذين اشتغلوا بفكر رشيد رضا مسبقا ، أو الذين سيشتغلون به لاحقا ، إلى عدم الانصياع وراء القول الشائع بأن محمد رشيد رضا لم يكن إلا قلما من أقلام محمد عبده ، فهذه نظرة لا بد أن تمحى تماما من ذاكرة المفكرين كلية ، كما لا بد من الوقوف بموضوعية أمام الفكرة الشائعة المقرّة بأن محمد رشيد رضا كان سلفيا منغلقا ، لأن من يغوص في فكره العقدي – وأنا لم أتناول إلا جانبا يسيرا منه في دراستي هذه – سيصل حتما إلى نتيجة غير متطابقة مع هذه الفكرة .

وأنا بهذا الجهد البسيط الذي بذلته في هذه الرّسالة ، ما أردت إلا بلوغ الحقيقة ، والمساهمة في إعطاء نظرة تنويرية صحيحة لعلم من أعلام النهضة الإسلامية الحديثة ، والله من وراء القصد ، وهو يهدي السبيل .

ملحق الفهارس

- فهرس الآيات
- فهرس الأحاديث
- فهرس المصادر والمراجع
- فهرس المواضيع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الآيات .

السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
الفاتحة	﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ.. ﴾	06	113
البقرة	﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى .....﴾	62	121
	﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ... ﴾	120	114
	﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ .....﴾	213	135
	﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ.. ﴾	213	136
	﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ .....﴾	217	114
	﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ..... ﴾	260	73
	﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ..... ﴾	285	142
النساء	﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..... ﴾	136	98
	﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ..... ﴾	136	98
	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا ..... ﴾	150	99
المائدة	﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً .... ﴾	14	128
	﴿اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا ..... ﴾	57	16
	﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً ....﴾	71	96
	﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ..... ﴾	72	97
	﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ..... ﴾	116	98
الأنعام	﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ...﴾	08	174
	﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى ..... ﴾	68	192
	﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ .....﴾	103	68

	﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ..... ﴾	125	72
الأعراف	﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ..... ﴾	53	68
	﴿لَن تَرَانِي ..... ﴾	143	68
يونس	﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ..... ﴾	20	173
هود	﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ..... ﴾	61	99
النحل	﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ..... ﴾	100	192
	﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ..... ﴾	103	155
الإسراء	﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ..... ﴾	70	194
	﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ..... ﴾	60	174
	﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا..... ﴾	93	173
الكهف	﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ..... ﴾	73	192
طه	﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى .....﴾	50	72
	﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى .....﴾	121	189
الأنبياء	﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ..... ﴾	18	48
	﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ..... ﴾	107	184
الشعراء	﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ..... ﴾	192	141
النمل	﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ .....﴾	65	138
العنكبوت	﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .... ﴾	48	144
	﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ..... ﴾	50	173
فاطر	﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ..... ﴾	24	99

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يس	﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ ..... ﴾	49	68
فصّلت	﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ..... ﴾	26	180
الشورى	﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ نُورًا مِّنْ أَمْرِنَا .....﴾	52	189
محمد	﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ..... ﴾	19	189
الفتح	﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ .....﴾	02	189
القمر	﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ..... ﴾	26	179
الرحمن	﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ .....﴾	05	176
الحديد	﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ..... ﴾	25	199
القيامة	﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ .....﴾	33	68
الضحى	﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى .....﴾	06	145

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأحاديث .

طرف الحديث	الصفحة
﴿افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً . . . . . ﴾	58
﴿إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ . . . . . ﴾	76
﴿قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ ، قَالَ الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ . . . . . ﴾	98
﴿مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلاَّ وَأُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ . . . . ﴾	173
﴿كُلُّ بَنِي آدَمَ يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ إِلاَّ مَرْيَمَ وَابْنَهَا . . . . . ﴾	190
﴿يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَهْتَمُّونَ لِذَلِكَ . . . . . ﴾	199

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر والمراجع .

أولا : المصادر الأساسية (مؤلفات محمد رشيد رضا) .

1. الخلافة ،أو الإمامة العظمى ، تقديم الطاهر بن عيسى، دط ، موفم للنشر ، الجزائر ، 1982.
2. الوحي المحمدي ، دط ، دار الكتب ، الجزائر ، 1983.
3. تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ، ط1 ، مطبعة المنار ، القاهرة ، مصر، 1931.
4. تفسير المنار ، دط ، دار الفكر العربي ، بيروت ، لبنان ، دت.
5. ذكرى المولد النبوي ، ط1 ، مطبعة المنار ، القاهر ، مصر ، 1335هـ .

ثانيا : المصادر والمراجع العامة .

(أ)

6. الكتاب المقدس : (العهد القديم ، والعهد الجديد) ، دط ، دار الكتاب المقدس في العالم العربي، دت .
7. أبو حمدان ، سمير : الشيخ محمد رشيد رضا ، والخطاب الإسلامي المعتدل ، دط ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ، لبنان ، 1992.
8. أبو زهرة،محمد: ابن حزم ، حياته وآثاره ، ط3 ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، 1978 .
9. ابن تيمية ، تقي الدين عبد الحليم بن أحمد : مجموع الفتاوى، جمع وترتيب : عبد الرحمان بن قاسم ، دط ، دار المعارف ، الرباط ، المغرب ، دت .
10. " " " : منهاج السنة النبوية ، دط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، دت .
11. " " " : كتاب النبوات ، دط ، دار الكتاب العربي ، بيروت، لبنان ، 2005.
12. ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، تحقيق : أحمد السيد سيد أحمد علي ، دط المكتبة التوفيقية ، مصر ، 2003.
13. ابن القيم ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: مدارج السّالكين ، دط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، دت .

14. أدمز تشارلز ، الإسلام والتجديد في مصر ، د م ن .
15. أدونيس، وخالدة سعيد : ديوان النهضة ، محمد رشيد رضا ، ط1 ، دار العلم للملايين، بيروت ، لبنان ، 1983.
16. أرسلان، شكيب : رشيد رضا ، أو إخاء أربعين سنة ، مطبعة ابن زيدون ، دمشق، سوريا، 1937.
17. الأفغاني ، جمال الدين ، محمد عبده : العروة الوثقى ، تقديم مصطفى عبد الرزاق ، ط3، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، 1983.
18. البغدادي ، عبد القاهر : الفرق بين الفرق ، تحقيق : محمد زاهد الكوثري ، دط ، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية ، 1948.
19. البيجوري ، ابراهيم بن محمد : شرح جوهرة التوحيد ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1983.
20. البوطي ، محمد سعيد رمضان : كبرى اليقينيات الكونية ، ط8 ، دار الفكر ، الجزائر ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، 1985.
21. الجويني ، أبو المعالي : كتاب الارشاد ، تحقيق : أسعد تميم ، ط1 ، دار الكتب الثقافية بيروت ، لبنان ، دت.
22. الجندي،أنور :الموسوعة العربية الإسلامية،ط1، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، دت.
23. " " :من أعلام التربية العربية الإسلامية،دط،مكتبة التربية العربية لدول الخليج،دت.
24. الخطيب ، محمد عجاج : الوجيز في علوم الحديث ، دط ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية ، الجزائر ، 1989 .
25. الرفاعي ، عبد الجبار : الاجتهاد الكلامي ، ط1 ، دار الهادي ، بيروت ، لبنان ، 2002.
26. الزركلي ، خير الدين : الأعلام ، ط5 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، 1980.
27. الشافعي ، حسن : الآمدي وآراؤه الكلامية ، ط1 ، دار السّلام ، القاهرة ، مصر ، 1998.

28. الشريف ، ماهر : رهانات النهضة في الفكر العربي ، ط1 ، دار المدى للثقافة ، دمشق ، سوريا ، 2000.

29. الشكعة ، مصطفى : أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية ، ط1 ، دار الثقافة الدوحة ، قطر ، 1992.

30. الشهرستاني ، عبد الكريم : الملل والنحل ، تحقيق : أمير علي مهنا ، علي حسن فاعور ، ط6 ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، 1997.

31. الصلابي ، أحمد علي : الدولة العثمانية ، عوامل النهوض وأسباب السّقوط ، ط1 ، البيارق ، بيروت ، لبنان ، 1999.

32. الطالبي ، عمار : آثار الإمام عبد الحميد بن باديس ، ط1 ، دار اليقضة العربية ، بيروت، لبنان ، 1968.

33. الغزالي ، أبو حامد: الاقتصاد في الاعتقاد ، ط2 ، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان،1986 .

34. القاسمي ، جمال الدين : دلائل التوحيد ، ط1 ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان ، 1991.

35. القطان ، مناع : مباحث في علوم الحديث ، ط4 ، مكتبة وهبة ، القاهرة ،مصر، دت.

36. الكيلاني ، عبد الوهاب وآخرون ، الموسوعة السياسية ، ط3 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1990.

37. الماتريدي ، أبو منصور : كتاب التوحيد ، تحقيق : فتح الله خلف ، ط2 ، دار المشرق، بيروت ، لبنان ، دت .

38. المجدوب ، عبد العزيز : أفعال العباد في القرآن الكريم ، دط ، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للكتاب ،1985.

39. المراكشي ، محمد صالح : قراءات في الفكر العربي الحديث والمعاصر ، ط1 ، الدار التونسية للنشر ، دت .

40. المسيري ، عبد الوهاب : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، دط ، بيت العرب للتوثيق العصري والنظم ، القاهرة ، مصر ، 1999.

41. المشرقي ، أحمد : النبوة في الأديان الكتابية ، ط1 ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 2004.

42. المنجد ، صلاح الدين وآخـــرون : فتاوى الإمـــام رشيد رضا ، (جمع وتحقيق) ط1 ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، 1971.

43. الميداني ، عبد الرحمان حسن حبنكة : العقيدة الإسلامية وأسسها ، ط8 ، دار القلـــم، سوريا ، دمشق ، 1997.

44. النجار ، عبد المجيد عمر : الإيمان بالله وأثره في الحياة ، ط1 ، دار الغرب الإســـلامي، بيروت ، لبنان ، 1997.

45. الندوي ، أبو الحسن : روائع إقبال ، دط ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، دت .

46. " " : النبوة والأنبياء في ضوء الكتاب والسنة ، ط7 ، دار القلم ، سوريا ، دمشق ، 2000.

47. النشار ، علي سامي : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ط9 ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، 1995.

48. أمين ، أحمد : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ط2 ، مكتبة النهضـــة المصـــرية ، القاهرة، مصر ، 1948.

49. أيبش ، يوسف : رحلات الإمام محمد رشيد رضا ، ط1 ، المؤسسة العـــربية الدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1971.

(ب)

50. بدوي ، عبد الرحمن :موسوعة المستشرقين ، ط3 ، دار العلـــم للملايين ، بـــيروت ، لبنان، 1993.

(ت)

51. ترحيني ، محمد حسن : الإحكام في علم الكلام ، ط1 ، دار الأمير للثقافـــة والعلـــوم ، بيروت، لبنان ، 1993.

(ج)

52. جدعان ، فهمي : أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، ط2 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1982.

53. جعيط،هشام : أزمة الثقافة العربية الإسلامية ، ط1 ، دار الطليعة ، بيروت ، لبنان ، 2000.

(ح)

54. حنفي ، عبد المنعم : الموسوعة الصوفية ، ط1 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، مصر ، 2003.

55. " " : موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية ، دط ، دار الرشاد ، القاهرة ، مصر ، 1993.

56. حنفي ، حسن : من العقيدة إلى الثورة ، دط ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، مصر ، دت .

(د)

57. درنيقة ، أحمد محمد : السيد محمد رشيد رضا ، إصلاحاته الاجتماعية والدينية ، ط1، مؤسسة الرسالة، دار الإيمان ، بيروت ، لبنان ، 1986.

(ز)

58. زين العابدين ، محمد سرور بن نايف : دراسات في السيرة النبوية ، ط4 ، دار ابن تيمية، الجزائر ، 1990.

(س)

59. ستوارت ، لوثروب : حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة ، عجاج نويهض ، ط4 ، دار الفكر، بيروت ، لبنان ، 1973.

60. سعد الله ، أبو القاسم : بحوث في التاريخ العربي الإسلامي الحديث ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 2001.

(ص)

61. صبري ، مصطفى : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، ط3، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، 1983.

(ط)

62. طعيمة ، صابر : التاريخ اليهودي العام ، ط3 ، دار الجيل ، بيروت ،لبنان ، 1991.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(ع)

63. عمارة ، محمد : الأعمال الكاملة لمحمد عبده ، ط1 ، المؤسسة العربي للدراسات والنشر، بيروت ، لبنان ، 1972.

64. " " : تيارات الفكر الإسلامي ، ط3 ، دار الشروق ن بيروت ، لبنان ، 1991.

65. " " : مسلمون ثوار ، ط3 ، دار الشروق بيروت ، لبنان ، 1988.

66. عبده ، محمد : الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية ، تقديم ، برهان غليون ، دط ، موفم للنشر ، 1990.

67. " " : تفسير جزء عم ، دط ، دار الكتب الجزائر ، 1982.

68. " " : جمال الدين الأفغاني في رسالته في الرد على الدهريين ، دط ،دار الشهاب باتنة ، الجزائر ، دت .

69. " " : رسالة التوحيد ، تحقيق وتعليق ونشر ، محمد رشيد رضا ، ط1 ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، 2001.

70. عبد الحميد ، محسن : جمال الدين الافغاني ، المصلح المفترى عليه ، ط2 ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان ، 1985.

71. عثمان ، محمد فتحي : السّلفية في المجتمعات المعاصرة ، دط ،دار آفاق الغد ، د ت .

72. عبد الجبار ، ابن أحمد القاضي : المغني في أبواب التوحيد والعدل ، تحقيق : ابراهيم مدكور وآخرون ، دط ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، مصر ، 1986.

73. عبد الظاهر ، حسن عيسى : القاديانية ، نشأتها وتطورها ، ط3 ، دار القلم ، الدوحة، قطر ، 1981.

74. عبد الفاوي ، عبد الفتاح : النبوة بين الفلسفة والتصوف ، دط ، مكتبة الزهراء ، القاهرة، مصر ، 1996.

(ق)

75. قطب ، محمد : منهج علم التوحيد ، ط4 ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، 1990.

(ك)

76. كحالة ، عمر رضا : معجم المؤلفين ، ط1 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، 1993 .

77. كوثراني،وجيه: مختارات سياسية من مجلة المنار،ط1 ، دار الطليعة ، بيروت ، لبنان ، 1980.

(م)

78. مهنا ، أمير علي ، علي خريص ، جامع الفرق والمذاهب الإسلامية ، ط2 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، 1994.

79. محمد سيد ، محمد صالح : إعادة بناء علم التوحيد عند الأستاذ الإمام محمد عبده ، دط ، دار قباء للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر ، 1998.

(ي)

80. يحيى ، جلال : العالم العربي الحديث ، دط ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، 1966.

الصحاح والسنن .

81. ابن حبان ، أبو حاتم : الجامع الصحيح ، دط ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، دت .

82. ابن حنبل ، أحمد : المسند ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، دط ، مكتبة التراث الإسلامي ،

83. أبو داود ، السجستاني : السنن ، دط ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، بيروت ، لبنان ، دت

84. الترمذي ، أبو عيسى محمد : الجامع الصحيح ، دط ، دار إحياء التراث الإسلامي ، بيروت، لبنان ، 1985.

85. البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل : صحيح البخاري ، دط ، دار الفكر العربي ، بيروت ، لبنان ، دت .

86. مسلم ، أبو الحسن بن الحجاج القشيري : صحيح مسلم ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، دت .

الرسائل الجامعية .

87. المراكشي ، محمد صالح : تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار،(رسالة ماجستير)، دط ، الدار التونسية، تونس ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985.

88. الشوابكة ، أحمد فهد بركات : محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية (رسالة ماجستير)، دط ، دار عمار ، الأردن ، 1989.

89. بوالروايح ، محمد : النبوة في التوراة والإنجيل والقرآن ، (رسالة دكتوراة) ،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، الجزائر ، 2000.

90. شقير ، شفيق بن عبد بن عبد الله : موقف المدرسة العقلية الحديثة من الحديث النبوي الشريف ، (رسالة ماجستير) ، ط1 ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1998.

91. العصيمي ، عبيد الله بن رجاء : الشيخ رشيد رضا في كتابه الوحي المحمدي ، (رسالة ماجستير) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، 1987.

الدوريات والجرائد .

92. أبو رية ، محمد : الشيخ رشيد رضا ، بمناسبة مرور خمسة أعوام على وفاته ، مجلة الرسالة، ع 373، القاهرة ، مصر ،أغسطس1940.

93. الأبيض ، أنيس ، رحلات الإمام محمد رشيد رضا ، مجلة الموقف ، ع70، بيروت ، لبنان، جانفي ، 1989.

94. الدغامين ، زياد خليل محمد:ملامح التجديد في فكر الأفغاني في التعامل مع القرآن الكريم، وأثره في منهج التفسير في العصر الحديث،مجلة الشريعة،الكويت،ع46،السنة1،ديسمبر 2001.

95. " " " : منهج التعامل مع القرآن الكريم في فكر الشيخ رشيد رضا ، مجلة الشريعة ، الكويت ، ع50 ، السنة 17 ، سبتمبر ، 2002.

96. رشيد رضا، مجلة المنار ، دط ، در الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، المنصورة ، مصر ، دت.

97. الزغلول ، محمد : الخصائص المميزة لتفسير المنـــار،مجلة الكلمة ، منتدى الكلمة للدراسات الإسلامية ، بيروت ، لبنان ، ع24 ، السنة 6، 1999.

98. الميلاد ، زكي : الشيخ رشيد رضا وتحولات الفكر الإسلامي المعاصر ، مجلة الكلمة ، منتدى الكلمة للدراسات الإسلامية ، بيروت ، لبنان ، ع24 ، السنة 6، 1999.

99. شتيوي، محمد شلبي : دفاع عن النبوة ، مجلة الشريعة ، ع14 ، السنة 16 ، أغسطس ، 1989.

100.عيسى،عبد الجليل:محمد رشيد رضا،مجلة الرسالة،ع899، القاهرة ، مصر،سبتمبر 1950.

101. سالم ، أحمد علي : الإصلاح السياسي عند رشيد رضا بين بناء دولة نموذجية وإقامة جامعة إسلامية ، مجلة الكلمة ، منتدى الكلمة للدراسات الإسلامية ، بيروت ، لبنان ، ع24 ، السنة 6، 1999.

102. دراجي ، محمد : ركائز الفكر السلفي عند الشيخ أحمد حماني ، الجائر ، جريدة البصائر، جويلية 2003 ، ع153.

الأقراص المضغوطة .

103.الموسوعة الجزائرية للقرآن الكريم ، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ، الجزائر ، 2005.

104. مكتبة العقائد والملل ، المكتبة الالكترونية العصرية ، مصر ، دت .

مواقع الأنترنت .

105. وحيد الدين خان ، www.alrisala.org

106. يفوت،سالم:مدخل لقراءة رسالة التوحيد ، www.fikrwanakd.aljabiriabed.com

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المواضيع	الصفحة
المقدمة:	أ
الفصل الأول : محمد رشيد رضا ، سيرته ودعوته التجديدية	01
المبحث الأول : سيرته وتميز شخصيته.	02
المطلب الأول : نشأته وبيئته	02
الفرع الأول : نشأته وتكوينه	02
الفرع الثاني : بيئته وأوضاع عصره	06
أولا : الأسرة	06
ثانيا : أوضاع عصره.	08
الفرع الثالث : رحلاته	09
أولا : الرحلة الكبرى	10
ثانيا : رحلاته الصغرى	12
المطلب الثاني : مصادره في الفكر والإصلاح والتجديد	15
الفرع الأول : مصادر المرحلة الإصلاحية الأولى	15
أولا : كتاب إحياء علوم الدين	15
ثانيا : الشيخ حسين الجسر	16
الفرع الثاني : مصادر المرحلة الإصلاحية الثانية	18
أولا : مجلة العروة الوثقى	18
ثانيا : جمال الدين الأفغاني	20
ثالثا : محمد عبده	22
المطلب الثالث : حياته الفكرية ، ومنهجه في الفكر والإصلاح والتجديد	27
الفرع الأول : حياته الفكرية	27

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : المرحلة الصوفية	27
ثانيا : المرحلة العقلانية	29
ثالثا : المرحلة السّلفية .	30
ربعا : موقع رشيد رضا في الفكر الإسلامي الحديث	32
الفرع الثاني : منهجه في الفكر والإصلاح	35
أولا : تفكيره	35
1 – تفكيره السياسي .	36
أ- سعيه لتحقيق الجامعة الإسلامية.	36
ب- سعيه لتحقيق الجامعة العثمانية .	38
ج- سعيه لتحقيق الجامعة العربية.	39
2- تفكيره التربوي والإجتماعي.	41
أ- تفكيره الاجتماعي .	41
ب – تفكيره التربوي والتعليمي .	43
ثانيا : منهجه في الفكر	46
1- الاجتهاد .	46
2- رفض التعصب والتقليد .	47
3- الاستقلال الفكري .	47
ثالثا : منهجه في الإصلاح	48
1- الوسائل النظرية .	48
أ- مجلة المنار .	49
ب- تفسير المنار .	50
2- الوسائل العملية .	52
أ- المدارس .	52
ب- الجمعيات .	53
المبحث الثاني : منطلقات التجديد في علم العقيدة الإسلامية عند رشيد رضا	56

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول : موقفه من التراث العقدي	56
الفرع الأول : موقفه من الاختلاف العقدي والفرق الإسلامية	57
الفرع الثاني : مذهبه العقدي	59
الفرع الثالث : آراؤه العقدية	64
أولا : التوحيد	64
ثانيا : الصفات	66
أ- الاستواء .	66
ب- رؤية الله تعالى .	67
ج- كلام الله تعالى .	70
ثالثا : أفعال العباد	71
رابعا : مسألة الإيمان	73
المطلب الثاني : دعوته التجديدية في علم العقيدة الإسلامية ، ومنهجه المقترح	75
الفرع الأول : رشيد رضا ومسألة التجديد	75
الفرع الثاني : موقفه من تجديد علم العقيدة الإسلامية	78
الفرع الثالث : منهجه المقترح لتجديد علم العقيدة الإسلامية	83
الفصل الثاني : جهوده التجديدية في مسألة النبوة.	92
المبحث الأول : دواعي الاهتمام بمسألة النبوة عند رشيد رضا.	93
المطلب الأول : موقع مسألة النبوة في المنظومة العقدية.	93
الفرع الأول : موقع النبوة في المنظومة العقدية اليهودية.	94
1- النبوة قبل الأسر البابلي .	95
2- النبوة أثناء الأسر البابلي .	95
3-النبوة بعد الأسر البابلي .	95
الفرع الثاني : موقع النبوة في المنظومة العقدية المسيحية.	96
الفرع الثالث : موقع النبوة في المنظومة العقدية الإسلامية.	98

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : نظرة القرآن الكريم لمسألة النبوة.	98
ثانيا : نظرة علم الكلام لمسألة النبوة.	99
المطلب الثاني : التداعيات الداخلية والخارجية لمسألة النبوة.	105
الفرع الأول : التداعيات الداخلية.	105
أولا : التداعي الصوفي.	105
ثانيا : تداعي المتنبئين.	108
أ- دعوى البابية والبهائية .	108
ب- دعوى القاديانية .	111
الفرع الثاني : التداعيات الخارجية.	114
أولا : التداعي المسيحي.	114
ثانيا : تداعي المستشرقين.	116
المبحث الثاني : مصادره الاستدلالية على قضايا النبوة.	119
المطلب الأول : المصدر الإسلامي.	119
الفرع الأول : القرآن الكريم .	119
الفرع الثاني : آراء المتكلمين .	123
المطلب الثاني : المصدر اليهودي والمسيحي.	126
المطلب الثالث : المصدر العلمي.	130
الفصل الثالث : منهجه في إثبات قضايا النبوة.	133
المبحث الأول : منهجه في إثبات الوحي.	134
المطلب الأول : إثبات الوحي المطلق.	134
الفرع الأول : المنهج الاستدلالي في إثبات الوحي المطلق.	134
أولا : طور القصور.	135
ثانيا : طور الرشد .	135

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا : طور الاستقلال .	136
الفرع الثاني : عناصر الوحي.	137
المطلب الثاني : إثبات الوحي المحمدي.	143
الفرع الأول : الحجج التاريخية الاجتماعية.	143
الفرع الثاني : الاستدلال المقارن.	145
المطلب الثالث : الرد على منكري الوحي المحمدي (نموذج ذرمنغهام).	150
الفرع الأول : تصوير شبه درمنغهام في الوحي المحمدي.	150
أولا : القسم الأول.	150
ثانيا : القسم الثاني.	151
ثالثا : القسم الثالث.	152
الفرع الثاني : منهج رشيد رضا في الرد على شبه درمنغهام.	153
المبحث الثاني : منهجه في إثبات المعجزات.	155
المطلب الأول : مذهب رشيد رضا في المعجزات.	156
الفرع الأول : مذهب المتكلمين في المعجزات.	156
الفرع الثاني : تقسيم رشيد رضا للمعجزات.	159
أولا : الآيات الكونية الآفاقية.	161
ثانيا : الآيات النفسية العلمية.	165
المطلب الثاني : مذهب رشيد رضا في المعجزات الكونية (انشقاق القمر نموذجا).	169
الفرع الأول : عرض معجزة انشقاق القمر عند رشيد رضا.	169
أولا : نقد السند.	170
ثانيا : نقد المتن.	171
الفرع الثاني : موقف رشيد رضا من المعجزات الكونية (انشقاق القمر نموذجا).	172
المطلب الثالث : موقف العلماء المسلمين من منكري المعجزات الكونية.	175
الفرع الأول : الاتجاه النصوصي.	175
الفرع الثاني : الاتجاه العلمي الإستشراقي.	177

الفرع الثالث : الاتجاه السياسي الاستعماري.	180
المبحث الثالث : منهجه في إثبات صفات الأنبيًاء.	186
المطلب الأول : إثبات صفة العصمة.	186
الفرع الأول : إثبات مطلق العصمة.	186
الفرع الثاني : إثبات العصمة الخاصة.	190
المطلب الثاني : إثبات الصفات الأخرى.	193
الفرع الأول : صفة العلم.	193
الفرع الثاني : صفة الذكورة.	194
الفرع الثالث : صفتا النبوة والرسالة.	196
الخاتمة .	200
فهرس المراجع والمواضيع .	205

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية